هذه أخلاقنا
حين نكون مؤمنين حقاً

محمود محمد الخزندار

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com

دار طيبة

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على المبعـــوث رحمةً للعـــالمين، المتمِّم لمكــارم الأخلاق، والمشــهود لــه بالأســوة الحسنة والخلق العظيم، وعلى آله وصــحبه أجمعين، ومَن تبعهم بإحســـــان إلى يـــــوم الدين.

أما بعد: فكم من المشاريع بدأت من فكـرة عابرة!

وكم من الأفكار انطلقت من رأي عَجِلٍ!

وكم من الدراســـات تولـــدت من موقـــف طـارئ.. ثم تنقـدح الخطـط وتنـبري الهمم لتصــبح فكــرةُ الأمس واقعًــا قائمًــا اليــوم، وليغـدو الاقـتراح العـابر مشـروعًا حيًّا على ساحة العمل.

هكـذا نبتت فكـرة هـذا الكتـاب.. وتلـك هي قصته.

لم تكن مواضيع كتاب اليوم سـوى مقـالات الأمس المنشــورة شــهريًّا في صــفحة (من أخلاق المجاهـد) وشـهرًا تلو شـهر ثم سـنة تلو سنة بدأت تتوارد رسائل كتابية وكلمـات شفوية بجمع هذه المادة بين دفتي كتاب.

وببركــة الشــورى نبتت فكــرة المقالــة ثم فكرة الكتاب، وببركة التعـاون بـدأت تنقلب إلى حقيقة واقعـة، وبـدأ الكتـاب يصـل إلى

يدَي القــارئ الكــريم بعــد حــوالَي عشــر سنوات مشحونة بالمعاناة من خلال تجربــة فريدة للعمل الإسلامي المعاصر.

وفي هــذا المقــام لا بــدَّ أن أتقدَّم بجزيــل شكري وصالح دعائي لكل مَن سـاهم معنـا برأيــه أو بجهــده أو بتشــجيعه، ولكــل من يسعفنا بملاحظاته وتوجيهاته.

ولعلــه إن كُتِب لهــذا العمــل القَبــولُ بين الناس أن يُطوَّر ويُكمَل ويُعَـد، ونسـأل اللـه أن يرزقنـــا الإخلاص وأن يتقبـــل منا، إنـــه سميع مجيب.

(ربيع الأول/ 1415هـ)

مقدمـــات

- الفكرة وليدة تجربة عملية.
- لماذا الأخلاق؟
- منهج التربية بالأحداث.
- منهجنا في الكتابة والتوثيق.
- من خصـــائص التربيـــة الأخلاقيـــة في الإسلام.
- ملاحظـــــــــات على بعض الكتب في الأخلاق.
- مزايا هذه الدراسة.

الفكرة ولدية تجربة عملية

اليـــوم تُبدِئ وســـائل الإعلام وتُعِيـــد في الحــديث عن معانــاة شــعب (البوســنة والهرســك)، ويتم إثــارة العــالَم وتهــييج

الشعوب وحفز الدول للمشاركة بالكلمـة أو المال، وبتوظيف جميع وسائل الإعلام، مع التحفُّظ على فتح المجـال للمشـاركة بـالنفس أو تقـديم السـلاح؛ لئلا ينقلب السحرُ على الساحر، كما حدث بالأمس.

بـالأمس كـان نفس الهيـاج، وتحت سـمع العـالم وبصـره، جُنِّد المـال والرجـال، وتعـاونت الشـعوب والـدول لاسـتخدام الحربـة الأفغانيـة في القضـاء على الكـابوس الشـيوعي، بعـد هـذا التنـادي والتداعي اجتمع لخدمةِ هـذه القضـية من شـباب الإسـلام مجتمعٌ بشـري فريـد ومتمـيز، على بقعـة صـغيرة من الأرض، ولهـدف عـامٍّ مشـترك، رغم تعـدد المشارب وتباين الوسائل، واختلاف سُلَّم الأولويات.

وكـان لهـذه التجربـة الجديـدة الفريـدة إيجابياتٌ لا يمكن إغفالهـا أو التقليـل من أهميتهـا، كمـا كـان لهـا سـلبيات لا يمكن غضُّ الطـرف عن خطورتهـا، وكـان من أبـرز هـذه السـلبيات - بنظـري - عـدم القـدرة على التعـايش في صـورة فريـق عمل منسجم، ومجتمع إسلامي متعـاون، بحيث تُستَهلك الأوقات والأموال والجهود في البنـاء لا في الهـدم، وفي التكامل لا

في التضـــادِّ، وذلـــك خللٌ لا بـــدَّ من المصارحة فيه؛ لقطف العبرة من تجربـة كبـيرة ونـادرة، كـان يُؤمَّل منهـا أن تُقدِّم نموذجًـا عمليًّا لأخوَّة الإسـلام الـتي طـال الحـــديث في وصفها وضـــرب أمثلتهـــا نظريًّا.
كـان يُتوقَّع للمبـادئ والقيم الـتي تـربَّى عليهـا الشـباب أن تأخـذ طريقَهـا إلى العمل والتنفيـذ، وكـان الـذي نرجـوه، أن تتحوَّل بصـيرتنا بمـداخل الشـيطان ومصـائده وحبائلـه إلى حـذر شـديد، واحتياط بالغ؛ لئلا يكون بأسنا بيننا.
وكان الشيطان يخترق الصـفوف، ويُفرِّق بين الأحبـة، ويشـيع الدَّخَن بين القلـوب، ولو أنه فعل ذلك بدواعي الهوى وشـهوة المـال أو حب الزعامـة؛ لكـان الأمـر مفضوحًا مكشوفًا ظاهر العَوَر، لكنه كـان يفعل فعله بدوافعَ ظاهرُها الخير، فتسأل الواحد من النـاس: مـا سـر العـداوة مـع فلان؟ فتسـمع عـددًا من الإجابـات منطلقهـا الظـاهر الشـرع - واللـه أعلم بخفايـا الصـدور وكيـد الشـياطين -: لأنـه عميـل، لأنـه لا يوثـق بدينـه، لأنـه لا يتَّبـع السنة، ليس لديه علم، عقيدته فيها خلل،

ولا نــبرئ طرفًــا ونتهم آخر، فقــد ولــغ الجميع في نفس البلاء بأقدار متفاوتة.
في وسط هذا الجو المغاير لِمَا ينبغي أن يكـون، كـان لا بـدَّ من صـمام أمـان يُـتيح لكــل طــرف أن يُنصــِت لســماع رأي الطـرف الآخــر، وأن يــرد الثـاني بـأدب ولطف، بغير تجريح ولا اتهـام، وأن ينفض الجميع من مجلسهم متحـابِّين متعـاونين، يعذِرُ بعضهم بعضًا إذا لم يتَّفقوا.
وكان هذا الصمام المفقود هـو (الأخلاق)، فالتربية الأخلاقية لكل شـاب لم تكن قـد أخذت حظها من الصقل والرعايـة، بقـدر مـا تـدرب الشـاب على عـرض فكرتـه، ونقض آراء المخالفين، من أجل سد هذه الثغرة كان لا بـدَّ من الأخلاق؛ لأننـا نتَّفـق جميعًا على أن الصدق والحيـاء والتكافـل والصبر من محاسـن الأخلاق، كمـا نتفـق على أن الخيانة والحسـد والغيبـة والكـبر من مســـاوئ الأخلاق، فأردنـــا أن نتقي وساوس الشيطان، من البـاب الـذي قـد يندر فيه الخلاف: (التربية الأخلاقية).

لماذا الأخلاق؟

منــذ مطلــع حياتنــا في أجــواء التربيــة الإسـلامية، كـانت تصـطرع حولنـا أفكـار، نحفظ ألفاظهـا ولا نـدري مـبرِّر الاختلاف عليها، هؤلاء يقولون: التربية الفكرية أولًا لتحصين الشاب من الغزو الفكـري، ومن اعتقاد تصورات خرافية حـول سـنن اللـه في الكون.

وآخـرون يقولـون: التربيـة الأخلاقيـة أولًا لحماية الشاب من الانجراف وراء سـعير الشهوات، ومن الغرق في حمأة الرذيلة، فذاك يريد دفـع الشـبهات، وهـذا يُحصـَّن من الشهوات.

كنا يومها - بالفطرة - نشعر أننا مطالبون بكلا الأمـرين إذا مـا أردنـا أن نـدخل في السِّلْم كافَّة، وكنـا نـرى في واقـع الحيـاة أن الشــيطان يســتعمل كلا الســلاحين: الشهوات والشبهات.

ولكم رأينـا من العابـدين الـذين نحسـبهم من أهـــل العلم والصـــلاح لا يعيشـــون عصــرهم، ولا يُــدرِكون كيــف يُواجهــون الأفكار الدخيلة بأكثر من تَمْتَمات وتعاويذ وحَوْقَلة وتهليل، وبقي يسرح في عالمــه، وبقيت الشبهة عالقـة بقلـوب النـاس، لم

تُزِلْهـا من قلـوبهم تهويمـات العابـد ولا انفعالاته!
وكم رأينـا من ذوي الفكـر الرَّصـين، والنظـر الثـاقب، والعـرض الجـذاب للإسلام، والقدرة الفائقة في بيان أوهـام الأفكار الضالة والمذاهب الهدامة، الـذين حين نُفتِّش في سـلوكهم عن عناصـر القـدوة نجـدها ضـامرة، وإن واجـه المخالف لـه بـدأ يسـخر ويطعن ويجـرح، وإن لقي ندًّا هوَّن من أمره، وكشـف من عيوبه مـا يظهـر فضـله عليه، فتجـد وراء هذا الفكر الـبرَّاق مرضًـا أخلاقيًّا خطـيرًا، فعلمنـا - بفطرتنـا - أيضًـا أن في كلٍّ من الفريقين ميزة، كما في كل من الفريقين نقص وخلل.
ثم إن الكتابـات الـتي خـدمت الفكـر الإسلامي وخاطبت العقل وسـعت لنشـر الوعي وتعميق المفـاهيم، هـذه الكتابـات ملأت السـاحة الثقافيـة، وأُتْخِمت بهـا المكتبات، وتـدور بهـا المطـابع كـل يـوم، بينما لم تحظَ التربية الأخلاقية بهذا القدر من الاهتمام، وكان مـا يُكتَب فيهـا نـادرًا، وربما كانت الكتابة في المجـال الأخلاقي محـدودةَ المواضـيع لا تحتمـل الكثـير من التجديد لا في المحتوى ولا في الأسلوب،

غير أن الهدف الأخلاقي يمكن أن يشارك في تعميق غـوره كلُّ كـاتب إسـلامي من خلال المقالة أو القصـة أو الشـعر، بحيث تغطي مسـحة الأخلاق كـل صـور التعبـير الأدبي والفكري. ولست أعني أن الكتابـة عن الأخلاق هي التي ستعدِّل الأخلاق.

إن التربيــة الأخلاقيــة تؤخــذ بالمعايشــة والقدوة والمواقف الحياتية، ومـا الكتابـة عن الأخلاق ســوى إشــاراتٍ تــدل على الطريق، وتُـذكِّر بـالقيم، وترفـع الأبصـار إلى القمم، لنرى البـون الشاسـع بين مـا نحن فيه وما ينبغي أن نكون عليه، وحين نحس بأزمتنـــــا التربوية، ومشـــــكلتنا الأخلاقية، وحاجتنــا المُلِحَّة إلى التــأديب والتهـذيب، عندئذٍ قـد نضـع أقـدامنا على بدايـة الطريـق بمجاهـدة النفس وحسـن الصحبة والتناصح ومجالسه الصالحين.

إن الواقع العملي لحملة الفكر الإسـلامي على اختلاف مشــاربهم قــد يُحدِث بينهم نوعًــا من التقــارب الفكــري في أجــواء الحــــوار الهــــادئ والتعامــــل المهذَّب والاحـترام المتبـادل إذا وجـدت الأخلاق، وإن أصحاب الفكر الواحـد قـد يتقـاذفون الاتهامــات ويَفْجُــرون في الخصــومات، ويشقون الصفوف، وتحـركهم الأهـواء إذا

ضـعفت فيهم الأخلاق، فـالخلق الفاضـل يجمعهم على مـــــــا بينهم من اختلاف، وسـوء الخلـق يُفرِّقهم على مـا بينهم من وحدة فكرية.
لقد ملك المسلمون في قرونهم الأولى - قرون الخير - أعلى مسـتوى من التربيـة الأخلاقية، وكان النـاس يـدخلون في هـذا الــدين أفواجًــا لِمــا يــرون من حســن المعاملة وجميل الأخلاق أكـثر ممـا كـانوا يدخلونه بالمنـاظرات الكلاميـة والمنطـق السديد في العرض.
كــانوا يملكــون من القــدوة أكــثر ممــا يملكــون من قــوة البيــان، وخاصــة في دعــوة العجم؛ حيث لم يكونــوا يملكــون مزيــد بيــان، واســتطاع ذلــك الجيــل أن يُدخل الناسَ في دين الله قبل أن يعـرف منطق أرسطو والفلسفة اليونانيـة، وبعـد أن دخلت إليــــه الفلســــفة وعلم الكلام بــدأت تضمُرُ التربيــة الأخلاقيــة، وبــدأت تتنامى على حسابِها العلومُ العقلية.
إذا تحدَّثنا عن الأفكــار تتعــدد المواقــف بتعدد المشارب.
وإن تحــدثنا في قضــية فقهيــة تجاذبتنــا الخلافــات المذهبيــة واختلفنــا أكــثر في

الــــراجح والمرجـــوح، والمعتـــبر وغـــير المعتبر.
وإن حاولنا أن نتحدث في العقيدة لا يخلو الأمـــر من الفـــرق والملـــل والنِّحـــل، التفسيق والتبديع والتكفير.
أما إذا تحدثنا في الأخلاق، فالحسن منهــا تكاد تجمع على حسنه العقـول البشـرية، كما تجمع على قبح القـبيح منها، وتضـيق دائرة الخلاف حولها بين المؤمنين وحـتى مع غير المسلمين، وإن أحب الناس إليك لينفضـون عنـك حين تكـون فظًّا غليـظ القلب، وإن أبغض الناس إليك ليحتكمون إليك حين تكون صادقًا وأمينًا.

منهج التربية بالأحداث

إن منهج التربيـة في القـرآن قـام على معالجة المشاكل القائمة، والتعليـق على الأحـداث الواقعـة، والقطـع فميـا فيـه الاختلاف، بحيث تتنَزَّل الآيـات مُواكِبةً في تَنَزُّلها مسيرة المجتمـع الإسـلامي الأول، فتنقش آثارها التي لا تُمحَى في القلوب، وقـد قـام على تتبـع هـذه الظـاهرة علم (أسباب النزول).

وكذلك الأمر في سنة النبي ﷺ؛ حيث كـان الحدثُ يجري أمـام سـمع وبصـر رسـول الله ﷺ فيكون له عليه تعليق، أو إقـرار، أو استنكار، حتى تركت هـذه التربيةُ العملية بصـماتِها على شخصـية الصـحابة، بحيث كان أحدهم يستحضر موقفَ رسول اللـه ﷺ من الأمـر كلمـا تكـرر مثيلُـه أمـام الصحابي، وحـتى كـان الواحـد منهم حين يـروي مـا سـمع أو رأى، كثـيرًا مـا كـان يـؤدي السـنة مـع الألفـاظ والكلمـات والحركات والإشارات وتشخيص الموقف وتمثيله، وهو ما سُمِّي في علم مصـطلح الحديث بالحـديث (المسلسـل)، وجُمِعَت الأحـاديث ذوات المناسـبة تحت علم (أسباب الورود).

إن التجربة الـتي عشـناها دهـرًا في هـذا المجتمـــع البشـــري ذي المواصـــفات والظــروف الخاصــة - بحلوهــا ومرِّهــا - كـانت تُملِي علينـا ضـرورة العـودة إلى صقل المفاهيم، وأهميـة مراجعـة النفس لتحديد معالم الطريق، ومعالم الشخصية الإسلامية كما ينبغي أن تكون، لا كما هي كائنة، وفي كـل شـهر كنـا نراجـع النفس لتحديـد أكـبر الأمـراض ظهـورًا لتكـون الكتابة عن ضده من محاسن الأخلاق.

إن ذكــر الحــوادث الدافعــة لكتابةِ كــل موضوع فيه من الفضيحة مـا لا ينبغي أن نُشـارك فيـه، ممـا يسـيء إلى الصـديق ويسر العـدو، غـير أنـه يكفينـا أن نقطـف العـبرة؛ لتكـون هـذه الأخلاق حصـنًا لأي تجمع مثيـل، يمكن أن يقـوم مـرة أخـرى بنفس الاتســـاع أو بصـــورة أصـــغر، فأمراضـــنا هي هي، نحملُهـــا معنـــا حيث حلَلْنـــا، وتظهـــر بـــارزة حيث نكـــون مجتمعين، أكثر مما تظهر ونحن مُوزَّعون ومشتَّتون، وتظهـر حيث نشـعر بنـوع من الحرية، أكـثر ممـا تظهـر حين نعيش في بلد ذي نظام صارم وقوة وسلطان.

كانت الفتن تدعونا إلى العودة إلى كتـاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا ﷺ، وفهم القرون

الأولى وسـيرتهم؛ حـتى نُعِيـد صـياغة عقولنا، وتعديل سلوكنا من جديد، فوجدنا كنـوزًا مدفونـة يجـدها مَن يُنقِّب عنهـا، وحاولنا أن نبرز ما أسفر عنه التنقيب.

منهجنا في الكتابة والتوثيق

إن الكتابــة عن الأخلاق من وراء مكتب فـارهٍ، وبـالنظر إلى عنـاوين وأسـماء الأخلاق الـتي سـبق أن كُتِب عنهـا أمـر سـهل ويسـير، فالموضـوعات محـدودة، والأحـاديث المشـهورة في كـل موضـوع تكاد تكون مكررة في أكثر كتب الحديث، لقد كان اختيـار الموضـوع مسـتوحًى من واقـع أليم لا من فهـارس الكتب، ولقـد كـانت المـادة المختـارة - في كثـير من الأحيان - مستخرَجة من غير مظانِّهـا في كتب الحديث، ولقد كان اختيـار العنـاوين أيضًا بما يناسب الهدف والمحتوى.

حاولنا أن نتوسَّع في معنى الأخلاق، بحيث يشمل كل ما يمكن أن يتَّصِف به المسلم من الصفات المحمودة، التي إن التزم بها، ودوام عليها، صارت له خلقًا مميزًا.

ولقد كان تسلسل المواضيع تابعًا لِمَا يتوارد من أحداث - كما أشرنا - غير أنه لَمَّا انعقد العزم على إخراج هذه المواضيع في كتاب، تم تصنيف هذه الأخلاق على أبواب تشمل بمجموعها جوانب شخصية المسلم بنوع من التوازن، واقتضى الأمر إعادة النظر في المواضيع لاستبعاد ما ينبغي استبعاده، وإضافة ما يحسن إضافته، وتعديل ما يلزم تعديله، فإن الصفحة الواحدة من المجلة التي كنا ألزمنا أنفسنا بها، كانت تضطرنا إلى مزيد من الإيجاز، بحيث نترك الكلام لرسول الله ﷺ، أكثر مما نستأثر به لأنفسنا، وألا يكون كلامنا أكثر من تمهيد، أو تعليق، أو ربط بين النصوص.

إن طبيعة الكتابة في مجلة غير متخصصة، لم تكن تتيح لنا وضع الحواشي والتخريجات، فلما أن عزمنا على إخراج الكتاب إلى النور، كان لا بدَّ

أن يُوثَّق بالمصادر والمراجع، وتخريجـات الأحاديث.
ولقـــد حـــاولت ألا أعتمـــد على حـــديث ضـعيف - قـدر الاسـتطاعة - فمـا علمت ضــعفه، ولم يُصحِّحه أحــد من العلمــاء، اســتبعدته. وأشــرت في الحاشــية إلى المرجــع الــذي اســتخرجت منــه لفــظ الحديث، مشيرًا إلى الكتاب والباب ورقم الحــديث - غالبًــا - بحيث يعين البــاحث - وإن اختلـــف رقم الصـــفحة بـــاختلاف الطبعات.
وكــان جــلُّ اعتمــادي على الصــحيحين، وغالبًا أقدم روايــة البخــاري، وأقتبس من فهم ابن حجــر في (فتح البــاري)، كمــا أفدت كثـيرًا من الكتب الـتي خـدمها كـل من الشـــيخين (الألبـــاني والأرنـــؤوط) - رحمهما الله تعالى - والـذي كـان يتعبـني ندرة المراجع في الغربــة، وخصوصًــا في محاولة توثيق (مسـند أحمـد)، واعتمـدت في تخـــريج بعض أحاديثـــه على طبعـــة الشيخ أحمد شاكر رحمه اللــه - الـتي لم تكتمل - وطبعة الشيخ عبد الرحمن البنــا السـاعاتي في كتابـه (نيـل الأمـاني على الفتح الرباني) رغم عناء البحث وصـعوبة الطلب.

واكتفيت في التوثيــق بمجــرد العــزو إلى المراجع والمصادر، وأعفيت نفسـي - لئلا يتأخر الكتاب - من شرح الألفاظ الغريبة، وإن كنت حـاولت في تعبـيري ألا أُغـرِب، ونصوص الأحاديث يغلب عليها الوضوح.

كما أعفيت نفسـي من الترجمـة للرجـال أو الأمــاكن، واكتفيت من نصــوص كثــير من الأحــاديث بموضــع الشــاهد، حرصًــا على الإيجاز وعـدم الإطالـة، وخشـية من تـوزع الفكـر وتشـتت الـذهن إذا تعـددت مواضــــيع الحــــديث الواحــــد، فمَن أراد الحديث بتمامه رجع إلى موضعه المشـار إليه في الحاشية، وما كان من الأحــاديث الموقوفــة أو المرســلة اســتبعدت مــا علمت ضعفه، وما لم أعلم لسنده صــحة ولا ضــعفًا أبــرأت الذمــة بعــزوه إلى مصـدره، وارتياحًـا مـني بموافقـة معنـاه لأصول صحيحة.

من خصائص التربية الأخلاقية في الإسلام

1- ربانيــة المصــدر: الأخلاق الإســلامية ليست رأيًا بشريًّا، ولا نظامًا وضعيًّا، وإنمــا هي مســتمدة من شــرع ربّ البشر، سواء منها مــا أثبتــه الشــرع ابتداءً، أو أقره مما قد تعارف عليــه النــاس، وحــتى مــا لم ينصَّ عليــه الشـــــرع من محاســـــن الأخلاق، فربانيتــه في اندراجــه تحت أصــل شــرعي عــام: (مــا رآه المســلمون حســنًا فهــو عنــد اللــه حســن) فهي ربانيـــة المصـــدر، وربانيـــة الهـــدف والغايـــة والقصـــد، غـــير أن أصـــول الأخلاق وأمهاتهـــــا مســـــتمدة من الشــرع، ويبتغي المســلم بهــا رضــا الله.

2- عبادية القصد: مهمـا تخلّـق إنسـان بـالأخلاق الإسـلامية، فإنهـا سـتبقى صـورة بلا روح، طالمـا لم يُرد بهـا صـاحبُها وجـه اللـه ورضـاه، فليس الغرضُ من الأخلاق الإسلامية وجود صورتها الخارجية، الـتي لا تعـدو أن تكون طلاءً يسقط لأي حكّة، وإنمـا تهـــدف الأخلاق الإســـلامية إلى أن تملـك على المسـلم قلبـه، فيدفعـه إليهـا إيمانـه، ويزيـده الالـتزام بهـا إيمانًـا، فمصـدرها قلـبيٌّ، وأصـلها صـلاح البـاطن، فالعـدل مـع العـدو أقـرب إلى التقـوى؛ لأنهـا مسـألة عباديـــة، ومهمـــا حســـنت أخلاق الكـافر فهي هبـاء منثـور؛ لأنهـا لم تكن خالصة لوجه الله، ومـا لم تكن الأخلاق خالصة، فإنها ستظهر نفاقًـا أو لمصـالح، ثم تـزول ويظهـر مـا وراءها من سوء الخلق.

3- مثاليـة واقعيـة: الأخلاق الإسـلامية تـدعو النـاس إلى السـمو، وتـراعي نفسية البشر واحتياجاتهم وقدراتهم

على الارتقاء، كما تراعي حقهم في ألا يُعتدَى عليهم، وفي أن يُقتص لهم، فلا تطالبهم بما فوق طـاقتهم، عملًا بقولـه تعـالى: {**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**} [التغابن: 16] ولا يعـد الجـائع خائنًـا للأمانـة إن سرق ليأكل، ولا يعتـبر الخـائف أو المكرَه ناقضًا للصدق إن كذب لينجو - حين لا ينجيه من البطش إلا الكذب - ولا يتعد طيشًا وخروجًا عن خلق الحلم إن غضـــب وثـــار من اســـتفز أو استغضب.

4- شمولية متكاملة: الأخلاق الإسلامية تشمل جميع جوانب حياة الإنســان: مع ربه، ومع النـاس، في بيتـه وفي عملـــه، وفي خلوتـــه، في الـــبيع والشراء، في السـلم والحـرب، في الوجـــــدان، وفي المجتمـــــع، في الظـــاهر والبـــاطن، ولكـــل هـــذه الجـوانب أخلاق تـدعو المسـلم إلى التميز بالسلوك الفاضـل في جميـع مجالات الحياة وبصورة متكاملة.

5- ثابتـــة: الأخلاق الإســـلامية تكـــون أصـــيلة في نفس صـــاحبها، بحيث يصدر منه الخلق نفسـه كلمـا تكـرر الموقف نفسـه الـذي يقتضـي ذلـك الخلق، فلا يتغير خلقه مع الضــعفاء ولا الأقويـاء، ولا في حـال فقـره أو غنـاه، ولا في إقامتـه أو سـفره، ولا في خلوتـه أو جلوتـه، ولا في حـال رضاه أو غضبه، ولا في حال النعمة أو البلاء، لا فيمـــا لـــه أو عليـــه، ولا تختلف أخلاقـه حين يكـون أمـيرًا أو مأمورًا، ومصدر ثبـات هـذه الأخلاق أنها تعبُّدية، يدور صاحبها مـع الحـق حيث يدور، ومصـدر تذبـذب الأخلاق غير الإسلامية أنها تدور مع المصالح والأهواء، وهذه متقلبة؛ تدير صاحبها على حسب تقلبها.

6- متوازنة: الأخلاق الإسـلامية لا تُغلِّب جانبًـــا على جـــانب، فكـــل الأخلاق الإســـلامية مطلوبـــة ودون تغليب بعضها وإغفال البعض، وإلا سـتكون الشخصــية ممســوخة، فــإن غلبت

على الشـــخص صـــفات القـــوة والشـــجاعة والتضـــحية والعـــزة والنصرة، فسيجأر النـاس إلى اللـه من عدوانــه وجبروتــه وتكبُّره، وإن غلبت عليه صفات العفو والسماحة والتواضـع والسـكينة، ربمـا وُجـدت فيه شخصية الذليل المستكين، وإن غلبت عليه أخلاق الصراحة والجرأة والنصـيحة والأمـر بالمعروفة، ربمـا شكوا من سوء أدبه وقلـة احترامه، فـالخلاق الإسـلامية مـع تكاملهـا متوازنة، تدعو إلى العزة والتواضع، كما تدعو إلى الانتصار والعفو، فيهـا الصـراحة والاحـترام وفيهـا الكـرم والاقتصاد، وهي شجاعة بغير تهـور، ولين في غـير ضـعف، هـذه بعض معـالم الشخصـية الإسـلامية ذات الأخلاق المتوازنة.

7- تُنـــال بالمجاهـــدة: هنالـــك أخلاق يتفضـل اللـه عـز وجـل على بعض خلقه فيجعلهم عليها، ويطبعهم بهـا، عن غير كسب منهم ولا جهد، فمثل

هـذه فضـل ومنّـة على من أوتيهـا، ومَن لم يُؤتَهـــا مكلّف بمجاهـــدة نفســه؛ لكي يأطرهــا على الحــق أطرًا، ويجرها إلى الجنة بالسلاسل، ويلزمها بكسر هواهـا، وتغليب رضـا الرب على ما سواه، إلى أن تصــبح هذه الصفات الفاضلة خلقًـا مكتسبًا بعد الـترويض والمجاهـدة، وإلى أن يكتسبها يحتاج إلى أن يتكلـف فعـل هـــذه الأخلاق الفاضـــلة، فيـــؤدي تكــراره لهــا، وتعــوده عليهــا، إلى ترشــحها في قلبــه، وانقلابهــا مــع الزمن إلى طبع ثابت، وخلق أصيل؛ ولــذلك جــاء في الحــديث: «**ومَن يســـتعفف يُعفّـــه الله، ومن يتصبر يُصبِّره الله**»، وهكـذا كـل الأخلاق، بالتشــجع يصــبح شــجاعًا، وبالتسامح يصـبح سـمحًا، وبـالتورع يصبح ورعًا، والسعيد مَن وفّقه الله للصـــبر على المجاهـــدة، إلى أن تتأصـــل فيـــه الأخلاق الفاضـــلة ويكتسبها.

8- تؤخذ بالتأسـي: من واقعيـة الأخلاق الإسلامية أنهـا لم تُقدِّم إلى النـاس قائمـة من مكـارم الأخلاق النظريـة ليعملــوا بهــا، وهم في معــزل عن النموذج البشـري الـذي يقيم عليهم الحجة بأن الارتقاء إليها في مقـدور البشـــر، والـــذي يســـهل على مَن يضـــعفون عن اكتســـاب الأخلاق بالمجاهـــــدة - بأنفســـــهم - أن يكتســبوها بالاقتــداء بــه، وباقتفــاء أثــره، وبالتأســي بســلوكه، إلى أن تصبح لهم عـادة، والـذي ينقش في أذهان الناس صورًا عملية لا تنســى للخُلُــق الفاضــل الــذي يظهــر في المواقف التي تقتضـي ذاك الخُلُـق، بينمـا قـد ينسـى النـاس التعليمـات النظريـــة، أو لا يـــدركون كيفيـــة تطبيقها، أو يَحُول بينهم وبين العمل بهـــا اعتقـــادُ مثاليتهـــا، واســـتبعاد واقعيتها؛ ولذلك فـإن اللـه لم يـنزل كتبه إلا ومعها العامـل بهـا، والقـائم عليهــا من رســله: {**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ**

هَدَى اللَّهُ فَبِهُـدَاهُمُ اقْتَـدِهْ...} [الأنعام: 90].

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَن كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ...} [الأحزاب: 21]

ولذلك أيضًا فإن فطرة الصبي تبــدأ بـالانحراف، حين يعيش بين والـدين لا يلتزمان بمحاسـن الأخلاق، أو في مجتمع تتفشى فيه مفاسد الأخلاق؛ ولأجل ذلك أيضًا كان من توبة قاتل المائة أن يهجر قرية السوء؛ ليعيش في قريــــة صــــالحة، بين قــــوم صــالحين، يعينــه التأســي بهم على الطاعــــة وعلى مكــــارم الأخلاق، وهكـــذا تتـــوارث الأجيـــال الأخلاق العاليـة بـالنظر إلى أخلاق القـرون الأولى، ويتــوارث الأفــراد مكـــارم الأخلاق بالتأسي بأحاسنهم أخلاقًا.

تــراعي التــدرج: ومن الواقعيــة أيضًــا أن الأخلاق الإسلامية لا تُطلَب من الناس بكمها الكبـير، وكليتهـا الشـاملة، منـذ الانخلاع من الجاهلية والولـوج في بوابـة الهدايـة، وإنمـا تقوم تربيـة الإسـلام على التـدرج في إلقـاء الأوامر والواجبـات، بتقـديم الأهم والأوجب،

واجتناب الأفحش والأكبر، وحتى في سُلَّم التحليـــة يمكن أن يتـــدرج في مســـتوى الصعود، فيطالب ابتداءً بالصدقة بمـا تجـود به نفسه، ولا يطالب بالتنازل عن كـل مالـه كما فعل أبو بكر ، ولا ننتظر منه أكـثر من العفو عمن أساء إليـه، أمـا أن يحسـن إلى المسيء، فتلك مرتبـة أعلى، ومقـام أرفـع، يمكن أن يرتقي إليها بالتربية، وحين أقسـم رسـول اللــه على أن يُمثِّل بسـبعين من المشركين؛ جزاءَ تمثيلهم بجثة سيدنا حمزة أنزل الله عز وجل عليـه مبـادئ متدرجـة: أدناها {**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُـوقِبْتُم بِـهِ...** } [النحـل: 126] وأرفـع منهـا: {**... وَلَئِن صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّـابِرِينَ**} [النحـل: 126] واللائـق برسول اللـه {**وَاصْبِرْ وَمَـا صَـبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ...**} [النحل: 127] ويبقى القفـز إلى معالي الأخلاق من العزيمة التي يُوفَّق إليهـا ذَوُو الهمم الكبـيرة، ولكن أغلب النفـوس يربيها التدرج.

10 - ذات أثـر اجتمـاعي: أخلاق الرهبنـة تبقى بين العبد وربـه، وفي إطـار صـومعته، وبمـا أن الإسـلام دين الحيـاة، فإنـك سـتجد المسـلم في كـل مجـالات الحيـاة متخلقـا بـأخلاق الإسـلام، فالعبـادات تنعكس على

السلوك الاجتماعي {**...إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَـرِ...**} [العنكبـوت: 45] {**...كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} [البقـرة: 183] {**لَن يَنَـالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُـــهُ التَّقْــوَى مِنكُمْ...**} [الحج: 37] ومعالجـــة آفـــات القلـــــوب من (حقد، وحسد، وريـــــاء، وعُجْب...) وكلهـا خفيـة، تنعكس معالجتهـا على الســلوك الاجتمــاعي الظــاهر؛ محبةً وإخلاصًــا وتواضــعًا وتنافسًــا، فليس في الإسـلام انفصـامٌ بين عَلاقـة المـؤمن بربـه، وعَلاقته بمجتمعه، وهو في كل حركة يصـدر عن الإسلام.

ملاحظات على بعض الكتب في الأخلاق

لا أزال أذكر أننا كنا نُقبِل على قراءة الكتب الحديثة عن خلق المسلم وأخلاق المؤمـنين والتربية الروحية، وبعض الكتب القديمة في مكـارم الأخلاق ومـدارج السـالكين ومنهـاج القاصـدين، وكـان لهـذه الكتب بمجموعهـا أكـبر الأثـر في تربيتنـا الأخلاقيـة وثقافتنـا التربوية، ويلاحظ على هذه الكتب - قـديمها

وحديثها - التي تيسر لنا الاطِّلاع عليها بعض الملاحظات؛ منها:

1- عدم الاقتصار على الصحيح:
فبعضها كتب تجمع لـك نصوصًـا من السـنة، لا تمـيز بين صـحيحها وضـعيفها، مقتصـرة على الأحـاديث المشهورة في كل باب، حتى غـدت بعض الأحـاديث تتكـرر في نفس الباب من كل كتاب، وكأنـه لا يوجـد في السنة غيرها.

2- غلبة الأسلوب الإنشائي:
بعض كتب الأخلاق فيهـا استرسـال في العـرض الإنشـائي حـتى غـدا مجمـوع الخـواطر، والمواقـف الحياتيـة، والأمثلـة من الواقع، يغلب على مـادة الكتـاب، ويطغى على حظِّ السنة فيه.

3- صعوبة الأسلوب والمصطلحات:
تجـد بعضـها قـد ركـز على آفـات النفس، وأمـراض القلـوب، وعلاج هـذه الأمـراض والآفـات، ووصـف الخطـوات والـدرجات في سـُلَّم الـرقي بالمسـتوى الـروحي، وهـذه

الكتب - غالبًا - لا تخلـو من أحـاديث ضعيفة، وإن سـلمت منهـا فلا تخلـو من مصطلحات صـوفية، أو عبـارات فلسـفية، لهـا معانيهـا الخاصـة عنـد أهلها، وفي زمن نشوئها، وكثـيرًا مـا يَحُــول بينــك وبين أن تســتروح في الآفــاق الروحيــة مــا يعترضــك من العبـارات الـتي تُكـد الـذهن، وتُتعِب الفكـر في مجـرد محاولـة تفكيكهـا، والوصول إلى المراد منهـا، عـدا مـا يواجهـــك من الحـــديث عن بعض الفــرق، الــتي زال وبــاد أكثرهــا، ويمكن للمتخصـص أن يراجعهـا في مظانِّها.

4- نقول وقصص غير محققة:

بعضـــها تُكـــثر من نقـــل عبـــارات التابعين وغيرهم في تعريـف الخُلُـق الواحد، وكل منها تكـون قـد أخـذت جانبًا من هذا الخُلُق، وحقيقتُـه ربمـا تتَّسِع لكـل التعريفـات، فلا تعـارض ولا تضاد بينها، ويحتـار القـارئ بأيهـا يأخذ، وعلى أيها يعتمد.

ثم إن هذه الأقوال أو القصص ربمـا نُقلت دون تعليـق المحققين عليهـا، وبعضها إن دققت النظـر فيـه، ربمـا وجدتـــه مخالفًـــا لهَـــدْي النـــبي وصحابته الكـرام؛ بمـا فيـه من غلـو في فرعيـة، أو تعـارض مـع نصـوص شـرعية، أو ابتـداعٍ لأحـوال لم يكن عليها أخشانا لله وأتقانـا لله كمـا قد تجـد صـورًا من مجاهـدة النفس أقـــرب مـــا تكـــون إلى طقـــوس ورياضات الهندوس والبوذيين.

5- الإطالة:

كثير منها يغلب عليهـا التطويـل إلى بضـعة مجلـدات حـتى بـدأ النـاس يقبلـــــــون على المختصـــــــرات والتهـذيبات، خاصـة في عصـر كلّت فيه الهمم، وكثرت فيه المشاغل.

6- الحديث عن فلسفة الأخلاق:

بعضـها قـد يحمـل اسـم (الأخلاق الإسـلامية) فتجـده دراسـة عن فلسفة الأخلاق، وعن معـنى الأخلاق

في القـــــديم والحـــــديث، عنـــــد المسلمين وعند غيرهم.

7- المثالية:

كثير منها تركز على الأخلاق العاليــة والســامية المحلِّقــة، دون إشــارة للضعف البشري، ولا مراعاة قدرات النــاس على المجاهــدة، وتعــرض المستوى الأخلاقي بصورة قد تشعر القارئ بـأن البـون بينـه وبينهـا كبـير جـدًا، وأنـه قـد لا يصـل إليهـا مهمـا جاهــد نفســه؛ لأنهــا أخلاق خــواص الأوليـاء وكبـار الزهـاد، ومثـل هـذه الكتب تجدها غالبًـا تُركّز على أخلاق المــؤمن مــع ربــه، ولا تكــاد تهتم بأخلاقه مع الخلق.

كل هذه الملاحظات لا تنفي مــا في تلـــــــك الكتب من نقع، ولا تلغي أهميتها كمراجع ومصادر سـابقة في هـــذا الميـــدان، ومَن يســـتطيع أن يدَّعي لنفسه الكمال! وإنما يتفـاوت النـاس بعـدد أخطـائهم لا بالعصـمة منها.

مزايا هذه الدراسة

1- الجمع: فقـد جمعتُ قريبًـا من ألـف نص شـرعي حـول بضـع وخمسـين خلقًا، وقد كان التركـيز على السـنة أكثر؛ لأن فيها مادة ثريـة تحتـاج إلى تنقيب وإبراز، ولو أن القارئ اقتصر على مجرد قـراءة النصـوص، لكـان بين يديه كتاب حديث في الأخلاق.

2- الاقتصار على الصحيح: وقد تم ذلـك ضـمن القـدرات المتاحـة والمراجـع المتيسرة، ولئن كتب الله عـز وجـل في العمـــر بقيـــة يتم التـــدقيق والتحقيق والتحبير.

3- الإيجاز: فإن تعبير رسول الله ﷺ أبلغ وأفصـح، فنقـدم بيانـه على بياننـا، وبعض القصـص يطـول عرضـها، وموضع الشاهد فيهـا بضـع كلمـات، فيتم الاقتصـــار على مـــا يـــؤدي الغـرض، ولـذلك لم نسترسـل في خواطرنا حـول كـل نص، وإلا لطـال الأمـر واتسـع، ولكـان مـدعاة لملـل القارئ.

4- التوثيـق: وهـذا الـذي أخـذ الجهـد الكبير لعزو النصـوص إلى مواضـعها في الطبعـات المتـوفِّرة، وبتفصـيل يـتيح للبـاحث العـودة إلى مواضـع النصوص المقتبسة، والتحقـق منهـا، أو التوسع فيها.

5- استقاء المواضيع من تجربة عمليـة: وهـذا قـد يعطي الطـرح نوعًـا من الواقعية، وقربًـا من حقيقـة حاجاتنـا التربويـــة، من خلال حركتنـــا بهـــذا الــدين وظهـــور جـــوانب ضـــعفِنا البشري عند التطبيق.

6- البساطة والوضوح: حاولنا أن يكـون التعبـير مباشـرًا، بعيـدًا عن الإلغـاز وغـريب الألفـاظ، يتسـم بالبسـاطة، ويتمـــيز بالوضـــوح؛ لأن الغـــرض تربـــوي، فـــأي عـــائق يحـــول دون توصـيل الفكـرة وتحقيـق الهـدف ينبغي اجتنابـــــه؛ ليبقى القـــــارئ مسترسـلًا مـع المعـاني، ومعايشًـا للنصوص.

وأخيرًا:

إنما هي بداية، قد تتكامل وتنضج مع الـــزمن، وهي بين يـــدي الخطيب والواعـــظ، والمطـــالع والمثقـــف، والمتصـــفح والمتســـلي، ومحاولـــة لوضع بعض الخطوط المنهج التربية الأخلاقية في الإسـلام، يسـتفيد منـه المتأني والمتأمِّل، وينتفع به العامـل والمبلِّغ، وتستمر رحلة التربية طول العمر ولا تتوقـف، ويقـدم كـل جيـل نتاج خبرته، وثمرات دراساته، ولعـل اللــه ينفــع بهــذه الجهــود، إنــه نعم المولى ونعم النصير.

الباب الأول

من أخلاقنا في الجهاد

الفصل الأول: الثقة بنصر الله.
الفصل الثاني: الاستعداد للشهادة.
الفصل الثالث: النصرة.
الفصل الرابع: الانتصار.
الفصل الخامس: الشجاعة.
الفصل السادس: الصبر والمصابرة.

الفصل الأول
الثقة بنصر الله

الإسلام يعلو ولا يُعلى

تظهـــر حقيقـــة اليقين باللـــه في مراحـــل الضعف؛ إذ ليس صـاحب اليقين من تنفـرج أسـاريره، وينشـرح صـدره، ويتهلـل وجهـه حين يرى قوة الإسلام وعـزة أهلـه وبشـائر

نصره، وإنما يكون اليقين لصاحب الثقة بالله مهما حلك الظلام، واشتد الضيق، واجتمعت الكروب، وتكالبت الأمم؛ لأن أمله بالله كبير، ويقينه بأن العاقبة للمتقين، وأن المستقبل لهذا الدين.

ولأن المجاهد يسعى لإقامة دين الله في الأرض، فإن سبيله إلى ذلك الصبر واليقين، يقول ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}[السجدة: 24][1].

وأهم ما يؤتاه المرء اليقين، كما في الحديث: «**وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإنه لم يؤتَ أحدٌ بعد اليقين خيرًا من المعافاة**»[2].

ولا تهلِكُ هذه الأمة إلا حين يبخَل أبناؤها بتقديم الجهود المتاحة لنصرتها، ثم يتجرّعون كؤوس الأمل بلا عمل؛ لذلك قال رسول ﷺ: «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد**

---

[1] (?) تهذيب مدارج السالكين - منزلة الصبر - ص 352.

[2] (?) صحيح الجامع برقم 4072 (صحيح).

واليقين، ويهلِك آخرها بالبخل والأمل» [1].

ولأن الله وحده هو عالم الغيب فلا ندري متى النصر؟ ولا نعلم أين الخير؟ ولكن الذي نعلمه أن أمتنا أمة خير - بإذن الله - يُرجَى لها النصر من الله - ولو بعد حين - ويشير رسول الله إلى ذلك بقوله: «**مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرَى أوله خير أم آخره»** [2]، ولا ندري على يد أي جيل يكشف الله الغمة، ويرفع شأن هذه الأمة، ولكن الذي ندريه أن سنة الله في الكون كما أخبر رسول الله : «**لا يزال الله يغرِسُ في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»** [3].

ولقد جاءت بشائر كثيرة في سنة رسول الله ، تجدد الأمل وتثبت اليقين، منها وعد الله بأن يبلغ مُلْك الأمة المشارق والمغارب، ومازالت هناك بقاع لم تقع تحت ملك المسلمين، ولابد أن يفتحها الإسلام، كما في الحديث: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها،**

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 3845 (حسن).

[2] (?) صحيح الجامع برقم 5854 (صحيح).

[3] (?) صحيح الجامع برقم 7692 (حسن).

وإن أمتي سيبلغ ملكهـا مـا زُوِي لي منها» [(1)]**.**

فـإذا عرَفنـا أن الأصـل في الإسـلام العلوُّ والسيادة والتمكين، فلا نستيئس من ضعف المسلمين حينًا من الدهر، فقد قال رسـول الله ﷺ: **«الإسلام يعلو ولا يُعلى»** [(2)]**.**

وقـد أخـبر رسـول اللـه ﷺ باسـتمرار زيـادة الإسلام**: «... ولا يـزال الإسـلام يزيـد، وينقص الشـرك وأهلـه، حـتى تسـير المرأتان لا تخشيان إلا جورًا، والـذي نفسي بيدِه لا تذهب الأيام والليالي، حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم»** [(3)]، فالأمل باقٍ، وامتداد سلطان المسلمين مستمر - بإذن الله.

وقد بشَّر رسول الله ﷺ ببشريات تـذيب كـل يأس، وتدفع كل قنوط، وتثبِّت كـل صـاحب محنة، وتريح قلب كل فاقد للأمل بأبناء هذا الـدين، حين لا يجـد بصـيص أمـل يلمـع لـه حيث قـال: **«بشِّر هـذه الأمـة بالسـناء والدين والرفعة والنصر والتمكن في الأرض..»** [(4)]**.**

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب 5 - الحديث 19/2889.

[2] (?) صحيح الجامع برقم 2778 (حسن).

[3] (?) صـحيح الجـامع بـرقم 1716 (صـحيح) وطرفه «**إن الله استقبل بي الشام ...** ».

[4] (?) صحيح الجامع برقم 2825 (صحيح).

والجهاد مستمر إلى يوم القيامة، والطائفة الظاهرة على الحق لا يضرها من خذلها، وهي مستمرة حتى يأتي أمر الله، وفي ذلك يقول : «**لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**» [(1)].

والمقياس عند الله غير مقياس البشر، إن الله يجعل من الضعف قوة، وذلك واضح من التأمل في قول رسول الله : «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**» [(2)]، إن ذلك المسلم المَسُوق بالأغلال، المحبوس في الأَقْبِية، المُلاحق في كل مكان، الفاقد للسلاح، الفقير المُعدَم؛ بدعوته وصلاته وإخلاصه ينصرُ الله هذه الأمة، رغم كل صور الضعف التي تمثَّلت فيه، وكما أشار رسول الله : «**رُبَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه**» [(3)].

قد نرى القوةَ اليوم بيد أعدائنا، والغلبة لهم علينا، ولكن لا ننسى أن الله هو المتصرِّف

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب 53 - الحديث 172/1922.

[2] (?) صحيح سنن النسائي للألباني - كتاب الجهاد -باب 43 - الحديث 2978.

[3] (?) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب 40 - الحديث 138/2622.

بهــذا الكــون، وعينُــه لا تغفُــلُ عن عبــادة المؤمــنين، ولن يرضــى لهم دوام الذلــة واستمرار القهـر، كما قـال رسـول اللـه ﷺ: **«الميزان بيد الرحمن، يرفع أقوامًـا، ويضع آخرين»** [1]، ولابد أن يرفعَنا بعد أن وضعنا؛ إذا رأى منا صدق السعي لمرضاته.

وفي كل قرنٍ يُعِيـد اللـه اليقين إلى نفـوس الأمة، بأن يجعل فيها سبَّاقين في الخــير، لا يُبالون بالمحن، يتأسَّى النـاس بهم كمـا في الحــديث: **«في كــل قــرن من أمــتي سـابقون»** [2]، كمـا يجعـل في الأمـة مَن يُصحِّح لهــا المفــاهيم، ويســير بهــا على الجادَّة، ويقودها إلى الهداية، ويجدد لها أمـر دينها، وقد بشَّر بذلك رسـول اللـه ﷺ فقـال: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يُجدِّد لها دينها»** [3]، فإما أن يـأتي الفـرج على أيـدي السـابقين، وإما على أيدي المجـددين، ولكنَّ الكـرب لا يدوم.

وجميـع أعـداء الإسـلام واقعـون في دائـرة تهديد الله لهم بالحرب، ومَن كان اللـه حربًـا عليــه فلا خــوف منــه ولا أمــل باســتمرار

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 6737 (صحيح).

[2] (?) صحيح الجامع برقم 4267 (حسن).

[3] (?) صحيح سنن أبي داود للألباني - كتاب الملاحم - باب 1 - الحديث 3606/4291 (صحيح).

سلطانه علينا، كما جاء في الحديث القدسي: «**مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**»[1].

فلنتواصل بالصبر على البلاء، والثبات إذا وقع القضاء، ولنكن بشيرَ خيرٍ، ولا نكون نذير شر، ولنقُلْ للمتشائمين بعد طول انتظار كما قال النبي لأصحابه حينما اشتكوا من كثرة البلاء وشدته: «**واللهِ ليُتِمّنَ الله هذا الأمر.. ولكنكم تستعجلون**» [2].

إن الثقة التي يريدها الرب سبحانه وتعالى من عباده هي الثقة التي تحققت في أم موسى عمليّاً، حين قال عنها:

{**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي...**}[القصص: 7]

وهكذا ألقته في اليم ولم تخَفْ، ولم تحزن، مع أن اليم خطير على الطفل الرضيع عادة، وكتب الله له النجاة، وتلقّى فرعونُ الطفل الرضيع، ولم يخَف من كفالته في قصره؛

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب 38 - الحديث 6502.

[2] (?) صحيح سنن أبي داود الألباني - الجهاد - باب 107 - الحديث 2307 / 2649 (صحيح).

لأن الطفل الرضيع لا يخيف من ربّاه عـادة، فكان هلاك فرعون على يديه، وهكـذا تجـري عجائب قدر الله.
وقد حدّث رسول الله عن ثلاثة أصناف من النــاس لا خــير فيهم: «**ثلاثــة لا تســأل عنهم... ورجل في شك من أمر الله، والقنـوط من رحمـة اللـه**» [1]، ولـذلك فـإن الأمـة الـتي نخرهـا الشـك، ونهشـها القنوط لا يُـرجَى خيرهـا مـا لم تستَعِدِ الثقةَ واليقين بنصر رب العالمين.
إن عقيدة الإيمان بالقدر مصدر من مصــادر الثقــة بــأن العاقبــة للمتقين، ولــذلك قــال رسول الله : «**إن لكل شـيء حقيقـة، وما بلـغ عبـد حقيقـة الإيمـان، حـتى يعلم أن مـا أصـابه لم يكن ليخطئـه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**» [2].
ليسـت المسألةُ مسألة تخلُّف وعـد اللـه - حاشـاه سـبحانه - ولكنهـا مسـألة التـوقيت المقدور، والأجـل المحـدود، الـذي لا يتقـدّم لاستعجال متعجِّلٍ، ولا يتأخر لهـوى كسـول، ولذلك كـان عمـر بن عبـد العزيـز كثـيرًا مـا يدعو: (اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته، ولا

---

[1](?) صحيح الجامع برقم 3059 (صحيح).
[2](?) صحيح الجامع برقم2150 (صحيح).

تـأخير شـيء عجلتـه) [1]، وبهـذه النفسـية تـزول ظـاهرة الاسـتعمال، ويطمئن القلب بأن العاقبة للمتقين.
ولئن مرَّت الأمة بفترات ضـعف، فلا ننسـى أنها تقادير الله، الذي يقـدر على إعـادة عـزّ ضـاع، واسـترجاع سـيادة مضـت، وشـأن البشر الصعود والـنزول، كمـا في الحـديث: **«مَثَل المـؤمن مَثَـل السـنبلة؛ تميـل أحيانًـا وتقـوم أحيانًـا»** [2]، المهم أنهـا تقـوم يومًـا مـا - وتلـك سـنة كونيـة - وهـذا اليوم آتٍ لا محالة، إذا توفرت الأسباب.
وهكذا مضت سـنة اللـه في الأمم، كمـا في الحديث: **«عُرضت عليَّ الأمم، فـرأيت النبي ومعـه الرهيـط، والنـبي ومعـه الرجل والـرجلان، والنـبي ليس معـه أحد...»** [3].
ومع ذلك استمرت الـدعوة، وسـتبقى مهمـا لقيت من الضـعف في بعض الأزمـان، ولن يعيب النبيَّ الذي ليس معه أحد أنـه لم يهتد على يديه أحد، رغم بذله جهدَه في دعوتــه، كمـا لا يعيب المجاهدَ ألا يصـل إلى النصـر

---

[1] (?) تهذيب مدارج السالكين -منزلة الرضا - ص 380.
[2] (?) صحيح الجامع برقم 5845 (صـحيح)، وبـرقم 5844 روايـة: **«تستقيم مرة، وتخر مرة»** (صحيح).
[3] (?) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب 94 - الحديث 374/220 (شرح النووي 3/93).

رغم طول جهـاده، إنمـا يَعيبُنـا التقصـير في أخذ الأسباب، والبخـل بالجهـد المسـتطاع - وإن قلَّ - والباقي تعهَّد به الله حين يشاء.

ولِمَا يخشـاه الشـهداء على مَن بعـدهم من الأحياء من ضعفِ الثقة المُفضِي إلى الزهـد بالجهاد، أو اليأس من ثماره، يقولون لربهم سبحانه وتعالى: **«مَن يبلِّغ إخواننـا عنَّـا أنّـا أحيـاء في الجنـة نُـرزق؛ لئلا يزهـدوا في الجهـاد، ولا ينكلـوا عنـد الحـرب، فقـال اللـه سـبحانه: أنـا أبلغهم عنكم..»**[1].

فلابد لليل أن ينجلي، ولابد للغثاء أن يـذهب جفاءً، ولابد لِمَـا ينفـع النـاس أن يمكث في الأرض، ويمضـي قـدر رب العـالمين في أن تكون العاقبة للمتقين.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- صاحب اليقين واثق بالله مهما ضـاقت عليه الدنيا.
- بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.
- اليقين خير ما يُؤتاه المرء، وبه صلَحت الأمة.

---

[1](?) صحيح سنن أبي داود للألبـاني - كتـاب الجهـاد - بـاب 27 - الحديث 2199/2520 (حسن). وفي صحيح الجـامع بـرقم 5205 (صحيح).

- لا يزال الله يغرِسُ لهذا الدين، والخــير آتٍ بإذن الله.
- من البشائر بنصر الله:
  - مُلــك الأمــة ســيبلغ المشــارق والمغارب.
  - الإسلام يعلو ولا يُعلى، وهو يزيــد، والشرك ينقص.
  - الوعد بالتمكين، ولن يـبرح الـدين قائمًا.
  - ينصر الله الأمة بضـعيفها، ويرفـع أقوامًا ويضع آخرين.
  - في كل قـرن سـابقون ومجددونــ والله آذن أعداءه بالحرب.
  - النصـــــــر آتٍ ولكن النـــــــاس يسـتعجلون، أو يشـكون ويضـعف إيمانهم بالقدر.
  - الوعـد آتٍ، ولكن اللــه هــو الــذي يحدِّد ميقاته.
  - لا حــرج في قلــة الأتبــاع، ولكن الحــرج في التقصــير في الأخــذ بالأسباب.

الفصل الثاني

الاستعداد للشهادة

«.. فلا جهاد ولا صدقة، فلِمَ تدخُلُ الجنة إذًا؟!»

المــوت قــدرٌ محتــوم على كــل مخلــوق، والشهادة أسمى صور الموت يصطفي اللـه لهـا مَن يشاء، والمـؤمن مـأمور على كـل حال بالاستعداد للمـوت، فمَن كـانت أمنيتـه الشــهادة كــان أولى بالاســتعداد، وأحــرى بالتطلع لاصطفاء الله له.

ولقـد صـدقَت فراسـة كثـيرين في إخـوان لهم، توقَّعــوا لهم الشــهادة لمظــاهرَ من ســمتِ الصــلاح بدَت عليهم، فقيــل فيهم بالتوقيع ما قيل في طلحة بالوحي الصادق: **«شـهيدٌ يمشـي على وجـه الأرض»**، وفي رواية: **«هذا ممن قضى نحبـه»**[1]، فكيف نستعدُّ للشهادة ونتهيَّأ لها لنكـون من أهلهـا حقًّا؟ لعـل اللـه يرزقنـا الشـهادة في صورة من صورها.

أول العُدَّة للشـهادة: التوبـة الصـادقة، وقـد ورد في الحــديث: «**يضــحك اللــه إلى رجلين يقتـل أحـدهما الآخـر يـدخلان الجنـة؛ يقاتـل هـذا في سـبيل اللـه فيُقتَـل، ثم يتـوب اللـه على القاتـل**

---

[1] (?) صـحيح سـنن ابن ماجه للألبـاني - المقدمة - بـاب 11 - الحديثات: (102 صحيح، 103 حسن).

فيُستشــهد»[1]، فليس غريبًــا أن ينــال الشهادةَ مَن كان له ماضٍ جاهلي تاب منـه، وقد رؤيت نماذج معاصـرة من صـدق جهـادِ حـديثِي الهدايـة، وقـد ذهب بعض الصـحابة إلى غزوة أُحُدٍ بعد ليلـة من شـرب الخمـر: (اصـطبح نـاس الخمـر يـوم أحـد ثم قُتِلـوا شـهداء)[2] - وذلـك قبـل تحـريم الخمـر - وحتى الذين شرِبوها بعد تحريمها في قرون الخير، فإنهـا لم تكن تمنعهم من البحث عن الشهادة لعلها تُكفِّر عنهم ما بدر منهم.

ولابد في الاستعداد للمـوتِ في سـبيل اللـه أن يستتبع التوبـة إصـلاح العمـل، وقـد كـان ابن عمــر يقــول: (إذا أمســيتَ فلا تنتظــر الصــباح، وإذا أصـبحتَ فلا تنتظـر المســاء، وخــذ من صــحتك لمرضــك، ومن حياتــك لموتــك)[3]، يقــول ابن حجــر في شــرح الحــديث: (أي اعمَــل مــا تلقى نفعــه بعــد موتك، وبادِر أيـام صـحتك بالعمـل الصـالح، فـإن المـرض قـد يطـرأ فيمنـع من العمـل،

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتـاب الجهـاد -بـاب 28 - الحـديث 2826 (فتح الباري 6/39).

[2] (?) صحيح البخاري - كتـاب الجهـاد -بـاب 19 - الحـديث 2815 (فتح الباري 6/31).

[3] (?)صحيح البخاري - كتاب الجهاد -باب 3 - الحديث 6416 (فتح الباري 11/233).

فيُخشى على مَن فـرط في ذلـك أن يصـل إلى المعاد بغير زاد) [1].

كما جاء في تعليل النهي عن تمني المـوت، قوله ﷺ: **«لا يتمنى أحـدكم المـوت إمـا محسـنًا فلعلـه يـزداد، وإمـا مسـيئًا فلعله يستعتب»** [2]، (وقوله: يستعتب أي يسترضـــي اللـــه بـــالإقلاع والاســـتغفار، والاستعتاب طلب الإعتاب، والهمزة للإزالة؛ أي: يطلب إزالـــة العتـــاب) [3]، وفي بيـــان توفيق الله للعبد إلى حسـن الخاتمـة يقـول رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبـد خـيرًا استعمله، قـالوا: وكيـف يسـتعملُه؟ قال: يُوفِّقه لعمل صالح قبل موتـه»** [4]، وإن الإكثـار من ذكـر المـوت والحسـاب ليُجدِّدُ الـدافع لإصـلاح العمـل، ولعـل اللـه يستعملنا في طاعته، ويُحسِن خاتمتنا.

لا يثبت لامرئٍ صـدقُ سـعيه للشـهادة بغـير التضحية؛ لأن الجهاد يكون بالنفس والمـال، وكلاهما يحتـاج إلى جـود وتضـحية، فمَن لم يعُـــدَّ نفســـه ليُقدِم ويعطي فكيـــف يحلم

---

[1] (?) فتح الباري (11/235) عند شرحه للحديث 6416.

[2] (?) صحيح البخاري - كتـاب التمـني - بـاب 6 - الحـديث 7235 (فتح الباري 13/220).

[3] (?) فتح الباري 6/122 عند شرحه للحديث 7235.

[4] (?) مسند أحمد 3/106، وصححه الترمـذي ووافقه الأرنـاؤوط: (جامع الأصول الحديث 7588). والألباني: (صـحيح الجـامع بـرقم 305).

بالجنة؟! وَرَد عن بشـير بن الخصاصـية أنـه جاء لمبايعة النبي ، فـأراد أن يسـتعفي من الالتزام بشرطين من شروط البيعة، فقال: (أمـا اثنتـان، فواللـه مـا أُطِيقهمـا: الجهـاد والصدقة، فإنهم زعمـوا أنـه مَن ولى الـدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلـك جشـعت نفسـي، وكـرهت المـوت، والصـدقة؛ فواللـه مـا لي إلا غنيمـة وعشـر ذود هن رسـل أهلي وحمـولتهم)، فعلَّل خوفـه من الجهـاد بـالخوف من وقوعـه في كبيرة الفرار، وعلَّل خوفه من الصدقة بقلة مـا يملكـه، فقبض رسـول اللـه يـده، ثم حركهـا وقـال: «**فلا جهـاد ولا صـدقة، فلم تدخل الجنة إذًا؟!**» يقول الصحابي: (فبايعتُ عليهن كلهن) [1]، فالمسألة جـد ولا تحتمل المساومة ولا التنازل.

ولا تضـحية بغـير جـرأة، ولـذلك عـد من الشـهداء مَن قتـل دون دمـه، أو عرضـه، أو مالـه كمـا في الحـديث: «**مَن قتـل دون مالـه فهـو شـهيد**» [2] لتبقى روح رفض الظلم ومقاومته حية في النفـوس، فـإن لم يـرزق صـاحبها الشـهادة لم يفتـه أجرهـا - بإذن الله - .

---

[1] (?) مسـند أحمد 5/224، وفي أسد الغابة 1/230: ".. فبم تدخل الجنة.." في ترجمة بشير بن الخصاصية ط.كتاب الشعب.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المظالم - باب 33 - الحديث 480.

ثم كيف تحمل اسم المجاهد بغير بذل الجهد؟! إذ إن الجهاز بذل أكبر الطاقة وأقصى الجهد، وغاية الوسع في نصرة الإسلام، ويمثل هذا المعنى حديث ابن ماجه: **«خير معايش الناس لهم: رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، ويطير على متنِه، كلما سمع هَيْعَة أو فزعة طار عليه إليها، يبتغي الموت أو القتل مظانه..»** [1].

وصورة أخرى للمجاهد الجاد في طلب الشهادة من غزوة خيبر؛ حيث قتل عامر بن الأكوع - خطأ - بارتداد سيفه على ركبته، فقال بعض الصحابة: (حبط عمله) - لظنِّهم أنه قتل نفسه - فذهب أخوه سلمة بن الأكوع يسأل رسول الله ، فقال رسول الله : **«إن له لأجرين - وجمع بين أصبعيه - إنه لجاهدٌ مجاهد، قل عربي مشى بها مثله»** [2]، (قال ابن دريد: رجل جاهدٌ؛ أي: جادٌّ في أموره، وقال ابن التين: الجاهد مَن يرتكب المشقة) [3]، وكانت شهادةً من رسول الله على نيلِه أجرَ القتل في سبيل الله، وأجر الجد

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب الفتن - باب 13 - الحديث 3212/3977 (صحيح).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 38 - الحديث 4196.

[3] (?) فتح الباري 7/467، عند شرحه للحديث 4196.

والنشـاط فيـه رغم المشـقة، وهـذا شـأن المتحفِّزين للشهادة.

وصورة من غزوة أحد لأنس بن النضر الذي لم يُكتَب له حضور غزوة بدر، فعاهد ربه أن يعوض ما فاته: (لئن أشهدني الله مع النـبي لـيرين اللـه مـا أجـد)، وحضـر غـزوة أحـد وتقـدم بسـيفه لمـا رأى النـاس ينهزمـون وقال لسـعد بن معـاذ: (أين يـا سـعد؟! إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عُرِف، حتى عرَفتـه أختـه بشـامةٍ أو ببنانـه، وبـه بضـع وثمـانون: من طعنـة، وضـربة، ورمية بسـهم) [1]، وفي وصـف شـدة قتالـه في أحد (قال سعد بن معاذ: فما اسـتطعت يـا رسـول اللـه مـا صـنع... ودل ذلـك على شجاعة مفرطة في أنس بن النضير؛ بحيث إن سعد بن معاذ مع ثباته يـوم أحـد وكمـال شـجاعته مـا جسـر على مـا صـنع أنس بن النضـــر) [2]، فلا تدَّخِر شـــيئًا من وقتـــك أو جهـدك دون أن تنصـر دينـك على ثغـرة من الثغرات، لتكون من الذين جاهـدوا في اللـه حق جهاده، واستعدوا لمقام الشهادة.

ليس الموت هـدفًا لذاتـه، ولا ابتغـاء مظـان الموت انتحارًا، ولا تمني الشـهادة يأسًـا من

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 17 - الحديث 4048.

[2] (?) فتح الباري 7/355، عند شرحه للحديث 4048.

الحياة، كما أنه ليس من الجبن أن تحتمي بخندق، ولا من التعلق بالحياة أن تستكمل الأسباب، ولا من الجرأة عدم التحرز من الأخطار.

بل إن مزيدَ يوم في عُمر المسلم يزداد فيه طاعةً، وينكأ فيه عدوًا، ويَغيظ به كافرًا، ولقد عجب الصحابة رضي الله عنهم من رجلين أسلما معًا، وكان أحدهما أشد اجتهادًا من الآخر، فاستشهد المجتهد، ومات الآخر بعده بسنة، فرأى طلحة بن عبيد الله أن الثاني دخل الجنة قبل صاحبه المجتهد، فقال رسول الله ﷺ: **«من أي ذلك تعجبون؟ فقالوا: يا رسول الله! هذا كان أشد الرجلين اجتهادًا، ثم استشهد، ودخل هذا الآخر الجنة قبله، فقال رسول الله ﷺ: أليس قد مكث هذا بعده سنة؟ قالوا: بلى، قال: وأدرك رمضان فصام، وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»** [1].

إن المستعدَّ للشهادة حقًّا يكون قد وطن نفسه لما قد يُصيبه من البلاء، وروض

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب التعبير - باب 10 - الحديث 3171/3925 (صحيح).

نفسه على الصبر عن الفـرار، ولـو أدى بـه هذا الصـبر إلى المـوت، يـروي البخـاري أن نافعًـا سُـئل على أي شـيء بـايع الصـحابة رسول الله ؟ على المـوت؟ (قـال: لا، بـل بـايعهم على الصـبر) [1]، ويليـه في صـحيح البخاري حديثٌ عن سلمة يثبت البيعـة على الموت، فربط ابن حجر بين الروايتين ربطًـا لطيفًا؛ فقال: (ولا تنـافِيَ بين قولهم بـايعوه على الموت، وعلى عدم الفرار؛ لأن المراد بالمبايعة: ألا يفروا ولو ماتوا، وليس المـراد أن يقع الموت ولابد، وهو الذي أنكـره نـافع وعدل إلى قوله: بل بايعهم على الصبر؛ أي على الثبـات، وعـدم الفـرار، سـواء أفضـى بهم ذلـك إلى المـوت أم لا) [2]، ويؤكـد هـذا المعنى أنا أبا أمامـة رجـا رسـول اللـه - ثلاث مرات - في مواقف متفرِّقة، أن يـدعو لـه بالشـهادة، فكـان رسـول اللـه لا يزيـد على أن يقـــــول: «**اللهم ســـــلمهم وغنمهم**» [3]، فالأصـل أن حيـاة المسـلم تزيــد ســوادَ المســلمين، وتُقوِّي شــوكتهم

---

[1] (?) صـحيح البخـاري - الجهـاد - بـاب 110 - الحـديث 2958. وحديث البيعة على الموت 2960.

[2] (?) فتح الباري 6/118، عند شرحه للحديث 2958.

[3] (?) مسند أحمد 5/248، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصـحيح - بلوغ الأماني 22/392-.

وتَغيظ الكفار، ولكنه مع ذلـك مهيـأ للثبـات، مستعدٌّ للصبر مهما عظم البلاء.

ومثل هذه التربية على الاسـتعداد للشـهادة هي الـتي تجعـل مَن ينشـد الشـهادة جريئًا في الحـق، كمـا في قولـه : «**أفضـل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[1]، ويُعلِّق الغزالي على هذا المعنى فيقول: (ولَما علم المتصلِّبون في الـدين أن أفضـل الكلام كلمـة حـق عنـد سـلطان جـائر، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد - كما وردت بـه الأخبـار - قـدموا على ذلـك موطـنين أنفســهم على الهلاك، ومحتملين أنــواع العـذاب، وصـابرين عليـه في ذات اللـه، ومحتسـبين لمـا يبذلونـه من مهجهم عنـد الله)[2].

وبغير هذه النفسية تكون الأمـة غثـاءً كغثـاء السيل، وتكون نتيجـة تلـك الغثائيـة أن اللـه (ينـتزع المهابـة من قلـوب عـدوكم ويجعـل في قلوبكم الوهن)، ولما سئل رسـول اللـه عن الوَهَن قال: «**حب الدنيا وكراهيـة**

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود للألباني - كتـاب الملاحم - بـاب 17 - الحديث 3650/4344 (صحيح).

[2] (?) إحياء علوم الدين 2/343.

الموت» [1]، وذلك الـوهن هـو الـذي يجعـل الأمة تستمرئ الذل وترضى بالدنية.
ثم كيف تكون قاصدًا منزلةَ الشـهداء إن لم تكن صادق التوكل على الله؟!
يروي البخاري عن عائشـة في أجـر الصـابر على الطـــاعون قولـــه ﷺ: «**...فليس من عبدٍ يقع الطـاعون فيمكث في بلـده صابرًا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبــه الله له إلا كان له مثل أجر الشــهيد»** [2].
ثم يعلق ابن حجر
فيقول: (صابرًا؛ أي: غير مـنزعج ولا قلق، بل مُسلِّمًا لأمر الله، راضيًا بقضـائه - وهـذا قيـد في حصـول أجـر الشـهادة لمن يمـوت بالطاعون - .. وقوله: يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له - قيد آخر -)[3].
وملاك الأمـر كلـه في الاسـتعداد للشـهادة الإخلاص وتجريد النية من الشوائب.
وتأمَّل هذه الصورة من غـزوة خيـبر لرجـل يقاتل المشركين: (رجـل لا يـدع لهم شـاذَّة ولا فاذَّة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقيل: مـا

---

[1] (?)صـحيح سـنن أبي داود للألبـاني - كتـاب الملاحم - بـاب 5 - الحديث 3610/4297 (صحيح).
[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الطب - باب 31 - الحديث 5734.
[3] (?) فتح الباري 10/193، عند شرحه للحديث 5734.

أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان)[1]، فأخبر رسول الله أنه في النار؛ لما يعلم من نفاقه، وتبعه صحابي فوجده لم يصبر على جراحه فقتل نفسه، ولذلك جاء في الحديث: «**إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين اللهُ أعلم بنيته**» [2].

فربما يموت رجل على فراشه ولا يُحرَم أجر الشهداء؛ لما يرى الله من صدقه، وربما يُحمل رجل مُضرَّج بدمائه من أرض المعركة، وهو عند الله من الخاسرين؛ لما شاب نيتَه من عُجب، أو فخر، أو عصبية، أو حب سمعة، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة منها قوله في صحيح مسلم: «**من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه**» [3]، وأخرجه الحاكم بلفظ: «**مَن سأل القتل في سبيل الله صادقًا ثم مات أعطاه الله أجر شهيد**»، وفي رواية أخرى للحاكم: «**مَن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» [4]، والإخلاص لا يعلمه إلا الله، ولا تنقيه إلا

---

[1](?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 38 - الحديث 4202.

[2](?) مسند أحمد 1/397، استشهد به ابن حجر، وقال: رجال سنده موثقون - الفتح 10/194.

[3](?) صحيح مسلم - كتاب الإكارة - باب 146 - الحديث 1908.

محاسبة النفس، فحاسب نفسك، وراقب قلبك، وضع نفسك في الميزان، لترى مدى استعدادك للشهادة، عسى أن تكون {**...مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**} [النساء: 69].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- من عدة الشهادة:
  - التوبة الصادقة.
  - إصلاح العمل.
  - البذل والتضحية.
  - الجرأة في دفع العدوان.
  - تقديم أقصى الجهد في خدمة الإسلام.
  - البيعة على الموت ماذا تعني؟
- الموت ليس هدفًا لذاته، وزيادة العمر زيادة في الطاعة وإغاظة للعدو.
- الجرأة في الحق تقتضي الزهد في الدنيا وكراهية الموت.
- صدق التوكل على الله.
- الإخلاص وتجريد النية.

---

[4](?) أدرج ابن حجر روايتي الحاكم بعد رواية مسلم في فتح الباري 6/16.

- طلب الشهادة بصدق طريق إلى نَيْلهـا أو نَيْل أجرها.

الفصل الثالث
النصرة

«انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا.. »

كم في المسلمين من ذوي الحاجة وأصحاب الهموم وصرعى المظالم وجرحى القلوب الذين لم يجدوا مَن يطرق بابهم، أو يسأل عن حالهم، أو يسعى في كشف الغم عنهم بدافع من خُلُق (النصرة).

نعني بالنصرة تلك الغَيْرة الإيمانية التي تدفع المسلم لرفع الظلم عن أخيه المسلم

المستضعف، أو لمد يد العـون إليـه، وبقـدر ما تمـارس هـذا الخلـق في حياتـك اليوميـة تكــون أقــدر على الاســتجابة لنــداء داعي الجهاد لمنازلة البغاة أو الكافرين.

الأخوة الإيمانيـة ضـريبتها النصـرة، والقـائم بحق النصرة أو المتخاذل عنهـا؛ كـل منهمـا يلقي ثمرة ذلـك - في الـدنيا قبـل الآخـرة - جزاءً وفاقًا كما جـاء في قولـه ﷺ: «**مـا من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا عند موطِن تُنتهك فيه حرمتُـه، وينتقص فيـه من عرضه، إلا خذلـه اللـه عـز وجـل في مــوطن يحب فيــه نصـرته، ومــا من امرئ ينصر امرءًا مسلمًا في مـوطن ينتقص فيه من عرضه، ويُنتهـك فيـه من حرمته إلا نصره الله في مــوطن يحب فيه نصرته**» [1].

وقد أمر رسول الله ﷺ بسبعٍ، كان منها (نصر المظلوم)، ونصه: «**أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانـــا عن ســـبع، فـــذكر عيـــادة المـريض، واتبـاع الجنـائز، وتشـميت العـــاطس، ورد الســـلام، ونصـــر المظلـوم، وإجابـة الـداعي، وإبـرار القسم**» [2].

---

[1] (?) مسند أحمد 4/30، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم 5690.

ويصف ابن الجوزي الظلم بأن المعصية فيه أشد من غيرها من المعاصي معلِّلًا ذلك بقوله: (لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار) [1].

وليس من شأن المسلم أن يرتضي لنفسه إيقاع الظلم بأخيه، أو أن يدع أخاه فريسة بيد ظالم بذله، ورسول الله يقول: **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلِمه، ومَن كان فيه حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»** [2].

فهل بعد هذا ترى مصيبة واقعة بأخيك وتسلمه لها وتخذله فيها، أم تُحتَقن دماؤك في عروقك ولا يروق لك نوم حتى تبذل ما تستطيع من جهد لكشف ما نزل من ضرّ بأخيك؟

لقد كان أبناء الجاهلية يتناصرون في الخير والشر، وأراد الإسلام لهذا الخلق أن يستمر بوجهه الخير معطيًا له معنًى جديدًا، فقال

---

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المظالم - باب 5 - الحديث 2445 (فتح الباري 5/99).

[1] (?) عن فتح الباري 5/100 - كتاب المظالم - باب 8 - من شرح الحديث 2447.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المظالم - باب3 - الحديث 2442 (فتح الباري 5/97).

رسـول اللـه ﷺ: «**انصُرْ أخـاك ظالمًـا أو مظلومًـا،فقال رجل: يا رسـول الله، أنصره إذا كـان مظلومًـا، أفـرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: تحجزه - أو تمنعـه - من الظلم فـإن ذلـك نصره**» [1].

فإن كنت تنصر قومك وعشيرتك وعُصْـبتك، وتمنعُهم بكـل الوسـائل من إيقـاع ظلم بمسـلم - منهم أو من غـيرهم - فتلـك هي النصرة، وإلا فهي العصبية المقيتـة المنتنـة؛ التي أُمرنا بـأن نـدعها، وقـد قـال في ذلـك رسول الله ﷺ مشبهًا حـال صـاحب العصـبية ببعيرٍ هلك: "من نصر قومه على غير الحـق فهو كالبعير الذي ردي، فهو ينزع بذنبه"[2].

والقادر على النصرةِ لأخيـه المسـلم بكلمـة أو شفاعة أو إشارة بخير، إن لم يقدمها مـع قدرته على ذلك وهو يرى بعينه إذلال أخيـه، ألبسـه اللـه لبـاس ذل أمـام الخلـق يـوم القيامـة؛ لتقصـيره في نصـرة أخيـه ورفـع الـذل عنـه، وفي ذلـك قـال رسـول اللـه ﷺ: «**من أُذِل عنـده مـؤمنٌ فلم ينصـره - وهو قادر على أن ينصره - أذله اللـه**

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتـاب الإكـراه - بـاب 7 - الحـديث 6952 (فتح الباري 12/323).

[2] (?) صـحيح سـنن أبي داود للألبـاني - كتـاب الأدب - بـاب 121 الحديث 4270/ 5117 (صحيح).

عـز وجـل على رؤوس الخلائـق يـوم القيامة» [(1)].

لابد لكل دعـوة من رجـال متشـبعين بخلـق النصرة، وإلا فلن تكتب لهـا الحيـاة، وأدناهـا النصـرة بالمعونـة ورفـع المظـالم، وأعلاهـا النصرة في الجهاد، وحين كان رسول الله ﷺ يعــرض دعوتــه في المواســم بمــنى كــان يقــول: «**مَن يُؤويني؟ مَن ينصــرني؟**» [(2)].

وحين بُويِـع بيعـة العقبـة اشـترط النصـرة، فقـــــال: «**...وأســـــألكم لنفســـــي ولأصـــحابي أن تُؤونـــا، وتنصـــرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم»** [(3)].

وحـتى ورقـة بن نوفـل كـان يقـول لـه في مطلع الرسالة: (وإن يُدرِكني يومك أنصـُرْكَ نصرًا مؤزرًا) [(4)].

والله عز وجل قادر على أن ينصـر رسـوله، لكنــه تــرك للمؤمــنين حظًّا في النصــرة

---

[1](?) مسند أحمد 3/487، وحسّنه عبد الرحمن البنا (بلوغ الأماني 19/69).

[2](?) مسند أحمد 3/322، صحح الحاكم إسـناده وأقـره الـذهبي، وقال ابن كثير في تاريخه: هذا إسناد جيد على شرط مسلم (عن بلوغ الأماني 30/270).

[3](?) مسـند أحمد 4/119، وفي بلـوغ الأمـاني 20/276 (رجاله ثقات).

[4](?) صحيح البخـاري - كتـاب بـدء الـوحي - بـاب 3 - الحـديث 3 (فتح الباري 1/23).

يؤدُّونه، ويُسألون عنه ويؤجرون عليه، قال تعالى: {**... هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**} [الأنفال: 62] والمفلحون هم الذين {**آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ...**} [الأعراف: 157].

وقد شرع للمؤمن أن يدعو بالنصرة، كما في الحديث: «**ربِّ أعنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى إلي، وانصرني على من بغى علي**»[1]، ولكن هذه النصرة لا تكون غالبًا بسبب غيبي، وإنما بتسخيرك يا صاحب خلق (النصرة) لتؤدي دورك بحميّتك الإيمانية، وغيرتك للحق، أما الخذلان في ساعة الحاجة، فشأن المنافقين مع أوليائهم الذين قال الله فيهم: {**لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ...**} [الحشر: 12].

وقد اشترط رسول الله ﷺ على الجالسين على قارعة الطريق أن يتحمَّلوا ضريبة جلوسهم هذا، وشهودهم لمواقف تقتضي منهم التدخُّل وأداء الواجب، فقال لهم:

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب الدعاء - باب 2 - الحديث 3088/3830 (صحيح).

«إن أبيتم إلا أن تجلسـوا فاهـدوا السـبيل، وردُّوا السـلام، وأعينـوا المظلوم» [1].

والمبادرة إلى نصرة الأخ في الله في الدنيا - وخاصـة في حـال غيابـه حيث تسـقط المجاملات وتظهر حقيقة المشاعر، وتخلص النصـرة للـه - يكـون من ثمرتهـا أن يسـخر الله للناصر مَن يقف إلى جانبه وينصره في الـدنيا ويتـولاه اللـه في الآخـرة، كمـا في الحديث: **«من نصر أخاه بظهر الغيب، نصره الله في الدنيا والآخرة»** [2].

وأوجبُ صور النصرة ما يكون فيه دفـع أذى من أمير أو ذي سلطان أو صـاحب سـطوة؛ لأن هـؤلاء أذاهم شـديد، وناصـحوهم قليـل، والمتملقـون لهم كثـير، فيضـيع الحـق في غمرة المجاملات والمداراة، ورسول اللـه ﷺ يتبرأ ممن يعينهم على ظلمهم، ولا ينصرهم على أنفسهم وأهوائهم بـردعهم عن الظلم، وقـد جـاء هـذا المعـنى في قولـه ﷺ: **«إنـه سـتكون بعـدي أمـراء، من صـدّقهم بكـذبهم، وأعـانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بوارد علي الحـوض، ومن لم يصـدقهم**

---

[1] (?) مسـند أحمد 4/282، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 1407.

[2] (?) صحيح الجامع برقم 6574 (حسن).

بكـــــذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مـني وأنـا منـه، وهـو وارد علي الحوض» [1].

وإذا كـــان منـــع ظلم الملـــوك بنصـــرة المستضـــعفين خُلُقًـــا يتجمـــل بـــه غـــير المسـلمين، فالمسـلمون بـه أولى وأحـرى، وقد وصف عمرو بن العاص الـروم بخصـالٍ استحسـنها فيهم، فقـال: (إنّ فيهم لخصـالًا أربعًـــا: إنهم لأحلم النـــاس عنـــد فتنـــة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشـكهم كرَّة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضـعيف، وخامسـة حسـنة جميلـة: وأمنعهم من ظلم الملوك) [2].

ومن كانت نصرته بصـورته الجاهليـة نصـرة على الباطل، ودورانًـا مـع العصـبية، وإعانـة على الظلم، فقد غضب الله عليه، كمـا في الحـــديث: «**من أعـــان على خصـــومة بظلم - أو يعين على ظلم - لم يـــزل في سخط الله حتى ينزع»** [3].

فكن نصيرًا للحق حيث كان، وإلا فلا تطمـع بوسام الجهاد ولا شرف الاستشهاد.

---

[1] (?) صـحيح سـنن النسـائي للألبـاني - كتـاب البيعة - بـاب 35 - الحديث 3923 (صحيح).

[2] (?) صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب 10 - الحـديث 35/2898 (شرح النووي 9/239).

[3] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألبـاني - كتـاب الأحكـام - بـاب 6 - الحديث 1878/2320 (صحيح).

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- النصرة استعداد لنصـرة المستضـعف، وهي ضريبة الأخوة.
-
- صـاحب (النصـرة) ينصـره اللـه في موطن يحب فيه نصرته.
- الظلم لا يقع - غالبًا - إلا على الضعيف فهل تُسلمه أو تخذله؟
- الجـاهليون يتناصـرون فكيـف تكـون النصرة للمسلم؟
- الـدعوات تقـوى بالنصـرة لمن يقـوم بتبليغها.
- يشـرع للمـؤمن أن يـدعو ربـه بـأن ينصره.
- تتوجب النصرة بشـهود مواقـف الظلم أو العلم بها.
- حقيقة النصرة الخالصة نصرتك لأخيـك في غَيبته.
- أوجب صـور النصـرة بـدفع ظلم ذوي السلطان.
- ممـا استحسـن عمـرو بن العـاص في الروم منعهم ظلم الملوك.
- في النصـرة للعصـبية، والإعانـة على الباطل، سخط الله.

الفصل الرابع

الانتصار

{**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ**}

إن صفة التوازن التي تميز بها ديننا تجعل المؤمن في بعض المواطن متواضعًا متسامحًا؛ يعفو ويصفح، وإذا ما غضب يغفر، وفي مواطن أخرى تجده أبيًّا حريصًا على مروءته، مطالبًا بحقه، مقتصًّا من ظالمه، منتصرًا من المسيء إليه، فمتى يكون الانتصار؟

يوضح ابن العربي جواب هذا التساؤل بقوله: (أن يكون الباغي معلنًا بالفجور، وقحًا في الجمهور، مؤذيًا للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل).

ويصف الحالة المقتضية للعفو، فيقول: (أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل).

وأكد هذا المعنى إلكيا الطبري في أحكامه، ووافق ابن العربي في أن أفضلية الانتصار تُفهَم من قول إبراهيم النخعي عن السلف: (كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق)، وخصص العفو فيما إذا كان الجاني نادمًا مُقلعًا.

وقد استحسن القرطبي هذا التفصيل وأقره، وحمل الغفران على غير المصر،

وقال: (فأما المصر على البغي والظلم، فالأفضل الانتصار منه)[1].

ومما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: {**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**} [الشورى: 39]: (هو عام في بغي كل باغٍ من كافر وغيره، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه)[2]

وبعد أن عرض القرطبي جملة من الأقوال علق قائلًا: (وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه.. وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ما يدل عليه)[3]، واستدل بحديث انتصار عائشة من زينب - رضي الله عنهما - وسيأتي تفصيله.

جاء في تفسير الآية {**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا..**} [الشورى: 39، 40]؛ (أي: ينتقمون ممن بغى عليهم ولا يستسلمون لظلم المعتدي، قال أبو السعود: هو وصف لهم بالشجاعة بعد

---

[1] (?) جميع النقول والأحكام السابقة من تفسير القرطبي 16/39، وقول النخعي استشهد به البخاري في ترجمة باب 6 من كتاب المظالم بلفظ: كانوا يكرهون أن يُستذلوا فإذا قدروا عفوا.

[2] (?) تفسير القرطبي 16/ 39.

[3] (?) تفسير القرطبي 16/44.

وصـفهم بسـائر الفضـائل، وهـذا لا ينـافي وصـفهم بـالغفران، فـإن كلًّا في موضـعه محمـود. {**وَجَزَاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**}؛ أي: وجزاء العـدوان أن ينتصـر ممن ظلمـه من غير أن يعتدي بالزيادة.

قـال الإمـام الفخـر: لمـا قـال اللـه تعـالى: {**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَـــــــابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**} أردفـه بمـا يـدل على أن ذلـك الانتصار يجب أن يكـون مقيـدًا بالمثـل دون زيادة، وإنمـا سمى ذلـك سـيئة لأنهـا تسـوء من تنزل به)[1].

ولما استقى الإمام مالك في قول سعيد بن المسيب: (لا أحلل أحـدًا). وجَّه هـذا القـول في: عدم التجاوز عن الرجل الظالم، فقال: (لا أرى أن يجعلـــه من ظلمـــه في حـــل)، وعلل ابن العـربي فتـوى مالـك بقولـه: (إن كـان ظالمًـا فمن الحـق ألا تتركـه لئلا تغـترَّ الظَّلَمـة ويسترسـلوا في أفعـالهم القبيحـة)[2].

ويؤكـد الصـاوي في حاشـيته على الجلالين هـذا المعـنى فيقـول: (من مكـان الأخلاق التجاوز والحلم عند حصـول الغـرض، ولكن يشـــترط أن يكـــون الحلم غـــير مخـــل

---

[1] (?) عن صفوة التفاسير 3/144 عند تفسير الآيات 39 - 43 من سورة الشورى.

[2] (?) قول مالك وتعليله من تفسير القرطبي 16/42 - 43.

بـالمروءة)، وأمـا إذا انتهكت حرمـات اللـه (فـالواجب حينئذٍ الغضـب لا الحلم، وعليـه قول الشـافعي: مَن استُغضِـب فلم يغضـب فهو حمار، وقال الشـاعر: وحلم الفـتى في غير موضعه جهل)[1].

وفي تفسـير قولـه تعـالى: {**لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْـرَ بِالسُّـوءِ مِنَ القَـوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ...**} [النساء: 148].

نقل القرطبي في تفسير الآيـة على قـراءة مَن قرأ {**إِلاَّ مَن ظُلِمَ**} قول أبي إسـحاق الزجــاج: (يجــوز أن يكن المعــنى: إلا مَن ظلم، فقـال سـوءًا فإنـه ينبغي أن تأخـذوا على يديـه) وعلـق القرطـبي قـائلًا: (قلت: ويدل على هذا أحاديث منها قوله ﷺ: «**خذوا على أيدي سفهائكم**»[2].

وقوله: «**انصــر أخــاك ظالمًــا أو مظلومًا**»، قـالوا: هـذا ننصـره مظلومًـا فكيـف ننصـره ظالمًـا؟ قـال «**تكفُّه عن الظلم**»[3])[4].

---

[1] (?) عن صفوة التفاسير 3/143 (الصاوي 4/40 عند تفسير الآية 39 من سورة الشورى).

[2] (?) استشهد به القرطبي وهو في ضـعيف الجـامع بـرقم 2819 (ضعيف).

[3] (?) رواه البخاري في كتاب المظالم - باب 4 - الحـديث 2444 (فتح الباري 5/98).

[4] (?) تفسير القرطبي 6/4.

وفي حدث طويل تنتدب نساءُ النبي السيدةَ زينب رضي الله عنها لطلب مساواتهن بالسيدة عائشة رضي الله عنها؛ إذ كن يشعرن أن لها في قلبه منزلةً ليست لغيره، وكن يرين هدايا الناس تأتي أكثر ما تأتي حين يكون في بيت عائشة.. واستطالت زينب على عائشة بالكلام وعائشة تنظر إلى رسول الله . تقول: (حتى عرَفت أن رسول الله لا يكره أن أنتصر..)[1]، وفي رواية: حتى قال النبي : «**دونك فانتصري**»، فأقبلت عليها حتى رأيته وقد يبس ريقها في فيها، ما ترد علي شيئًا، فرأيت النبي يتهلل وجهه)[2].

ولا يجوز للمنتصِر أن يتعدى على أخيه المسلم بأكثر مما أساء إليه، ولا يحق له أن يغمطه حقه، ففي رواية مسلم لحديث عائشة السابق تقول عائشة وفاءً لضرتها التي كانت تساميها في المنزلة عند رسول الله : (..ولم أرَ امرأة قطُّ خيرًا في الدين من زينب؛ وأتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى

---

[1](?) صحيح مسلم فضائل الصحابة باب 13 الحديث 83/2442 (شرح النووي 8/214).

[2](?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني كتاب النكاح باب 50 الحديث 1611/1981 (صحيح).

الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حدَّة كانت فيها، تسرع منها الفيئة) [1]، وذلك أدب النبوة فمع مبادأتها بالسباب لم تتجاوز حد العدل، ولم تغفل عن أن تعذرها.
ويجب أن نفرِّق بين انتصارنا من أخينا الذي غلب خيره والانتصار من الظالم المصر أو الكافر المستكبر، وإذا توقَّعت أن انتصارك من أخيك المسيء إليك قد يزيد الشر، ويوغل في التمادي وتفاقم الخطب، فاسدد أبواب الشيطان، وقدر المصالح والمفاسد.
وفي سنن أبي داود حديث بهذا المعنى، فقد ورد أن رجلًا وقع بأبي بكر فآذاه - بحضرة النبي - ولما آذاه الثالثة انتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، (فقال أبو بكر: أوجدتَ عليَّ يا رسول الله! فقال رسول الله : «**نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**» [2].
قال الخطابي في شرح الحديث: (إنما وقع الشيطان حين انتصر أبو بكر؛ لأن انتصاره يغري صاحبه - سيما وقد بدا الشر منه

---

[1] (?) صحيح مسلم - الحديث 2442 (سبق تخريجه).

[2] (?) صحيح سنن أبي داود للألباني - كتاب الأدب - باب 49 - الحديث 4094 / 4896 (حسن).

بتكرير الإساءة - بالتزيد والتمادي، فيكون ذلك سببًا في تفاقم الخطب) [1].

والمغلوب على أمره يتأسى بنوح عليه السلام حينما عجز عن قومه: {**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**} [القمر: 10] أما القادر على الانتصار - بقيوده وشروطه الشرعية) [2] - فلا عذر له في الخنوع والاستكانة للظالمين.

فأما قوله تعالى {**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**} [الشورى: 43]، فقد قال فيه القرطبي: (هو محمول على الغفران عن غير المصرّ، فأما المصرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه) [3]، وأما كظم الغيظ، فمستحسن ومندوب إليه بعد التمكن من الظالم والقدرة عليه، وإذا عُلم صدق توبته وندمه، أو أنها زلّ

---

[1] (?) شرح سنن أبي داود (معالم السنن للخطابي 5/204).

[2] (?) من القيود والضوابط التي أشير إليها في الانتصار من الظالم المسلم: - أن يكون العفو عنه يجرؤه - أو أن يكون مسترسلًا في ظلمه ومصرًا عليه - كما أن من قيود المنتصر ألا يتعدى بأكثر مما ظلم - وألا يؤدي انتصاره إلى شر أكبر من المظلمة بحسب توقعه وراجح ظنه.

[3] (?) تفسير القرطبي 16/ 39.

ـَة منه لم يصر عليهـا، فـالعفو عنـه عندئذٍ هـو الأولى، أما عفـو الضـعيف فهـو عفـو المكرَه المستضعف، ولا فضيلة فيه.

إن إحياء خلق (الانتصار) هـام وضـروري؛ لئلا تعتاد الأمة قَبول الذل، لا من فاسق يقهرهــا، ولا من كـافر ينحرها؛ لأن الأمــة الـتي تعتـاد السكينة أمام الظلم، والوداعة أمام الخسـف والعســف، تفقـد دافعيــة الأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكر، وتنعدم فيها روح الجهــاد، فهل نحن منتصرون حين يلزم الانتصــار ممن لا يرتدع إلا بالانتصار؟

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الانتصار تكميل لخلق العفو والسـماحة حيث لا ينبغي العفو.
- الانتصـــار من البـــاغي المعلِن المصر أولى من العفــو، والعفــو عن النــادم المقلع أولى.
- الشـجاعة في الانتصـار لا تتنـافَى مـع قابلية العفو عن صاحب الفلتة.
- فتوى مالـك بالانتصـار من الظـالم لئلا يغتر ويسترسل في ظلمه.
- القصـد في الانتصـار أن يكـون بالمثـل وألا يزيد عن ظلم المعتدي.

- يشـترط في الحلم ألا يخـل بـالمروءة، وإلا فالانتصار أولى.
- في تفســير {**الجَهْـرَ بِالسُّــوءِ...**} الأخــذ على يــد الســفيه وكفــه عن الظلم.
- موقف انتصار بين عائشة وزينب رضي الله عنهما.
- لا يجــوز للمنتصــر تجــاوز حــد العــدل والإنصاف.
- المغلــوب على أمــره يــدعو، والقــادر ينتصر، ولا فضيلة في عفو الضعيف.
- حمــل القرطــبي آيــة {**وَلَمَن صَــبَرَ وَغَفَرَ**} على غير المصر.
- خلــق (الانتصــار) يحــيي في الأمــة روح الجهاد.

الفصل الخامس

الشجاعة

«.. وإن الشجاع منا للذي يحاذي به»

حين يكون دين المرء أعز ما لديه في هــذه الــدنيا يكــون في المنافحــة عنــه بــالغ الشجاعة، عظيم الجرأة، قوي الإقدام.

تنبـع الشـجاعة من غرائـز فطريـة، وتقويهـا التربية الجهادية؛ بالمران والتدريب وخــوض المواقف؛ حتى يكتسب الشاب هذا الخلــق،

وإلى ذلـك أشـار سـيدنا عمـر بقولـه: (.. والجـرأة والجبن غرائـز يضـعها اللـه حيث شاء، فالجبان يفر عن أبيـه وأمـه، والجـرئ يقاتل عمـا لا يـؤوب بـه إلى رحلـة، والقتـل حتـف من الحتـوف)[1]، ويعلـق فـؤاد عبـد الباقي على الفقرة الأخـيرة بقولـه: (والقتـل حتف من الحتوف: أي نوع من أنواع المـوت، كـالموت بمـرض أو نحـوه، فيجب ألا يرتـاع منه، ولا يهاب هيبة تورث الجبن)[2].

وقـد جعـل اللـه أمـر الـدين لا يقـوم إلا بالشجاعة، ولذلك إن جبن أهل الحق يستبدل بهم قومًـا غـيرهم، وهـذا مـا أراده ابن تيميـة بقوله: (ولمـا كـان صـلاح بـني آدم لا يتم في دينهم ودنيـاهم إلا بالشـجاعة والكـرم، بين سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبـدل الله به من يقوم بذلك)[3].

ولا يمكن أن يعتمد على النفعيين والمنافقين؛ لأنهم يفتقـدون حـرارة الحـرص ودافعيـة الاهتمام، لذلك وصفهم أبـو طلحـة يـوم أُحُـد بقوله: (.. والطائفة الأخرى المنـافقون، ليس لهم
همّ

---

[1] (?) الموطأ - كتاب الجهاد - الحديث 35.

[2] (?) من حاشية الأستاذ فـؤاد عبد البـاقي على الحـديث السـابق في الموطأ.

[3] (?) فتاوي ابن تيمية 28/157.

إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه، وأخذ له للحق) [1].

إن أصحاب المروءة من أبناء الجاهلية يتعايرون بالجبن، ويتفاخرون بالشجاعة، ويمثل هذا المعنى الحوار الذي دار بين أبي جهل وعتبة بن ربيعة يوم بدر، حيث قال عتبة: (يا قوم، إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي، وقولا جبن عتبة بن ربيعة - وقد علمتُم أني لست بأجبنكم، فسمع ذلك أبو جهل فقال: أنت تقول هذا؟! والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفك رعبًا، فقال عتبة: إياي تعير يا مُصفّر استه؟! ستعلم اليوم أينا الجبان) [2].

ولأن الجبن شر فقد استعاذ منه رسول الله ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من الجبن..»** [3]، ولقد اعتبره رسول الله ﷺ شر صفات الرجال: **«شر ما في رجل: شُح هالع، وجبن خالع..»** [4]، ومثل هذا الجبن الذي يخلع القلوب إنما ينشأ من طبيعة التربية

---

[1] (?) صحيح سنن الترمذي للألباني - كتاب التفسير: آل عمران - الحديث 2406/3208 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 1/117، وعن بلوغ الأماني 20/32: (قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير حارثة بن مضرب وهو ثقة).

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب 25 - الحديث 2822.

وآثار البيئة، وأمثال المجتمع وقِيَمه، ولذلك كان لا بدَّ من غرس الشجاعة منذ الطفولة في نفوس الأبناء لإعدادهم للجهاد.

وإن شدة التعلق بالدنيا وزينتها تنقلب على صاحبها داعية إياه إلى التخوف على مصالحه، والجبن عن خوض الغمار، ولذلك قال ﷺ: **«إن الولد مبخلة مجبنة»** [1]

والفرق بين نفسية الشجاع والجبان ملحوظ وظاهر وفي ذلك يقول ابن القيم: (..فإن الشجاع منشرح الصدر.. والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم؛ إلا من جنس ما للحيوان البهيمي) [2].

ومن يتصدّى لإمرة الناس وقيادتهم يجب أن يكون قدوة في شجاعته، فقد كان ﷺ **«أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس»** [3].

(?)[4] صحيح سنن أبي داود للألباني - كتاب الجهاد - باب 22 - الحديث 2192/2511 (صحيح).

(?)[1] صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب الأدب - باب 3 - الحديث 2957/3666 (صحيح).

(?)[2] زاد المعاد 1/187.

(?)[3] صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب 24 الحديث 2820.

ويقول: **«لو كان لي عدد هذه العِضَاهِ نَعَمًا لقسمتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا»** [1].

وفي فوائد الحديث يقول ابن حجر: (وفيه ذم الخصال المذكورة وهي البخل والكذب والجبن، وأن إمام المسلمين لا يصلح أن يكون فيه خصلة منها)[2]، والجنود يفخرون بشجاعة قائدهم، ويزدادون إقدامًا، لذلك قال البراء في حديثه عن يوم حُنين: (كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به) [3] لما كانوا يرون من شجاعة رسول الله ﷺ.

ولا ينبغي للمؤمن أن يُري عدوه من نفسه جبنًا، حتى إن الصحابي الشهيد خُبيبًا لما صلى ركعتين قبل قتله قال للمشركين: (والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت) [4] وهو مقبل على الموت يخشى أن يلصق بالمسلمين شبهة الجزع والجبن.

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الجهاد باب 24 الحديث 2821، وتكرر برقم 3148.

[2] (?) فتح الباري 6/254 - كتاب فرض الخمس - باب 19 في شرح الحديث 3148.

[3] (?) صحيح مسلم - كتاب الجهاد - الحديث 79.

[4] (?) صحيح البحاري - كتاب المغازي - باب 10 - الحديث 3989 (فتح الباري 7/309).

وشـجاعة المـؤمن تتبـدى على أعدائـه، وفي جرأتـه الأدبيـة في نصـح إخوانـه، وفي الأمـر بـــالمعروف والنهي عن المنكـــر، وتخـــرج الشـجاعة عن حـد القصـد حين تكـون على الإخـــوة والأصـــدقاء، وعلى المســـاكين والضعفاء.

أمة الشهادة على الناس بحاجة إلى أصـحاب الشجاعة في حماية الحق والجرأة الأدبية في الدعوة إليه.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- يكون المرء بالغ الشجاعة إذا كـان دينـه أعز ما لديه.
- أمر الدين لا يقوم إلا بالشجاعة.
- لا يمكن أن يعتمـــــد على النفعـــــيين والمنافقين.
- إن أصحاب المـروءة من أبنـاء الجاهليـة يتعايرون بالجبن.
- الجبن شر صفات الرجال.
- إن شدة التعلق بالدنيا تؤدي إلى الجبن.
- كـــان النـــبي ﷺ «**أحســـن النـــاس، وأشجع الناس، وأجود الناس**».

الفصل السادس

الصبر والمصابرة

{**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**}

المجاهد الذي ارتضى لنفسه طريق التضـحية لن يســـتمر في هـــذا الطريـــق مـــا لم يتحلّ َ بالصبر، وأية فئة اختارت طريــق الابتلاء فلن تــدوم رابطتها، ولن تتماســك بنيتهــا مــا لم تتواصَ بـالحق وتتـواصَ بالصـبر، والمؤمنـون جميعًـا مخـاطبون بقـول ربهم - عـز وجـل -:

{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} [آل عمران: 200].

عُرِف الصبر الاختياري بتعريفات كثيرة نختار منها الأقوال التالية:

- قال الطبري: (الصبر: منع النفس محابها، وكفها عن هواها)[1].
- وقال إبراهيم الخواص: (الصبر: هو الثبات على الكتاب والسنة)[2].
- ووصفه ابن الجوزي بأنه: (حبس النفس عن فعل ما تحبه، وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل، مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الآجل)[3].

وأما الصبر على البلاء المقدور والمصائب النازلة التي ليس فيها للإنسان إرادة ولا اختيار، فكما قال ابن عطاء: (الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب).

---

[1] (?) عن فتح الباري 3/172 من شرح كتاب الجنائز - باب 42 - الحديث 1302.

[2] (?) شرح النووي لصحيح مسلم 2/104.

[3] (?) عن فتح الباري 11/304 من شرح كتاب الرقاق - باب 20.

وقال أبو علي الدقاق: (حقيقة الصبر ألا يعترض على المقدور..) (4).

والحياة صراع بين الحق والباطل، ويفوز في هذا الصراع الأطول نفسًا والأكثر احتمالاً: {**.... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ...**} [الفرقان: 20].

ويتواصى أهل الباطل بالصبر على باطلهم: {**وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ...**} [ص: 6] {**إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا...**} [الفرقان: 42]، أفلا يقول أهل الحق للمبطلين: {**... وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا...**} [إبراهيم: 12] حتى تتحقق فيهم سنة الله بالنصر والتمكين: {**... وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا...**} [الأعراف: 137] {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا...**} [السجدة: 24].

كثير من الناس يتعللون بأن طباعهم تغلبهم، وأنه ليس لديهم القدرة على التحمل والصبر، ولو جاهد أحدهم نفسه لكظم الغيظ، وعف عن الحرام، ووسع صدره، وقنع بما آتاه الله إياه، وتجلد على ما ابتلاه الله به؛ حتى يكتسب هذا الخلق،

---

[4](?) قول ابن عطاء، وقول الدقاق من شرح النووي لصحيح مسلم 2/104.

فقد قال ﷺ: «**ومن يستعفِفْ يعفَّه الله، ومنٍ يستغنِ يُغنِه الله، ومن يتصبر يصبِّره الله..**» [1].

ويوضح هذا المعنى ابنُ حجر بقوله: (.. يصبره الله: أي فإنه يقويه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه) [2].

والصبر المحمود ما كان بغير تسخط ولا جزع ولا يأس ولا شكوى، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «**ليس من أحد يقع الطاعون؛ فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد**» [3].

يقول ابن حجر: (صابرًا؛ أي: غير منزعج ولا قلق، بل مسلمًا لأمر الله راضيًا بقضائه) [4]، وحين أمر رسول الله ﷺ بالصبر في بداية الدعوة أمر بالصبر الجميل {**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**} [المعارج: 5].

---

[1] (?) صحيح البخاري كتاب الزكاة - باب 50 - الحديث 1469 (فتح الباري 3/335).

[2] (?) فتح الباري 11/304 - كتاب الرقاق - باب 20 - من شرح الحديث 6470.

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب 54 - الحديث 3474.

[4] (?) فتح الباري 10/193، من شرح كتاب الطب - باب 31 - الحديث 5734.

يقول القرطبي: (والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله) [1].

والصبر المحمود ما كـان فيـه تمـامُ التوكـل على الله وكمال اليقين به، هذا اليقين الذي يجعل المجاهد مقبلًا غير مدبر، (قـال رجل: يـا رسـول الله، أرأيت إن قتلتُ في سـبيل الله يكفر عني خطاياي؟ قال رسول الله ﷺ: **«نعم. إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مـدبر..»** [2]

وهـو الصـبر المتجمـل بـاليقين في سـاعة المصـيبة؛ بحيث لا يفقـد صـوابه ولا يهـذي بلسانه.

وفي الحـــديث القدســـي: **«ابن آدم، إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرضَ لك ثوابًا دون الجنة»** [3].

قـال الخطـابي: (المعـنى أن الصـبر الـذي يُحمَـد عليـه صـاحبه مـا كـان عنـد مفاجـأة المصـيبة، بخلاف مـا بعـد ذلـك فإنـه على الأيام يسلو) [4].

---

[1] (?) تفسير القرطبي 18/184.

[2] (?) صحيح سنن الترمذي للألبـاني - كتـاب الإيمـان - بـاب 32 - الحديث (صحيح).

[3] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتـاب الجنـائز - بـاب 55 - الحديث 1597 (حسن).

[4] (?) عن فتح الباري 3/150 من شرح كتاب الجنائز - بـاب 31 - الحديث 1283.

إن الـذين عاشـوا حيـاة الصـبر ذاقـوا لـذتها وقطفـوا ثمرتهـا وتـركت تلـك المواقـف الصـابرة أثرهـا في حيـاتهم، قـال عمـر : (وجدنا خير عيشنا بالصبر)[1]، وقـال : «.. **وما أعطي أحـد عطـاءً خـيرًا وأوسـع من الصبر»**[2].

وقـد وصـف رسـول اللـه الصـبر بقولـه: **«والصبر ضياء»**[3].

يقول النووي: (والمـراد أن الصـبر محمـودٌ، ولا يزال صـاحبه مستضـيئًا مهتـديًا مسـتمرًّا على الصواب)[4].

وقد تعجب رسول اللـه من الخيريـة الـتي تعم حياة الصابرين "عجبًا لأمر المـؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكـان خـيرًا لـه، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[5]. وقـال تعـالى: {**... وَلَئِن صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّـابِرِينَ**} [النحـل: 126] وأهم مـا في حيـاة الصـبر من الخـير أنهـا تمـيز الصـف،

---

[1] (?) ذكره البخاري في ترجمة الباب 20 من كتاب الرقاق.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب 50 - الحديث 1469.

[3] (?) صحيح مسلم - كتـاب الطهـارة - بـاب 1 - الحـديث 1/223 (شرح النووي 2/101).

[4] (?) شرح النووي لصحيح مسلم 2/103 - 104.

[5] (?) صـحيح مسـلم - الزهد والرقـائق - بـاب 13 - الحـديث 64/2999 (شرح النووي 9/335).

وتكشف معادن الرجال {**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**} [محمد: 31].

وقد يظن الناس أن الصبر ذلة لصاحبه مع أن رسول الله يؤكد أنه «**.. ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله - عز وجل - عزًّا**»[1].

والثابت على الصبر الدائب في العمل يبشره رسول الله بما بشر به ابن عباس: «**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا** »[2].

والمجتمع المسلم هو الذي يعم فيه التناصح بالصبر والتواصي به، فحين مر رسول الله بامرأة وهي تبكي عند قبر قال لها: «**اتقي الله واصبري**»[3]، وحين أرسلت إليه إحدى بناته تخبره أن ابنها قُبِض أرسل إليها بقوله: «**إن لله ما أخذ وله ما**

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 3024 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 1/307 - 308، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 7957.

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب 31 - الحديث 1284 (فتح الباري 3/148).

أعطى وكـل عنـده بأجـل مسـمى، فلتصبر ولتحتسب...»[1].

ولا يزول الخسران عن المجتمع البشري ما لم يكن من صفاتهم: {**...وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ**} [العصـر: 3] {**...وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَةِ**} [البلد: 17].

ولأن طعم الصـبر مرٌّ فلابـد أن يتعهـد الإنسان نفسه ويتزود بالصبر الجميل، ومما يعين المسلم على التصبر استحضار ما أعد اللـه للصـابرين؛ من تكفـير السـيئات ورفـع الـدرجات وتكثـير الحسـنات؛ ففي قصـة المرأة التي كانت تصـرع أن رسـول اللـه خيّرها: «**إن شئتِ صـبرتِ ولكِ الجنـة، وإن شـئتِ دعـوت اللـه أن يعافيـك.. فقالت: أصبر..**»[2].

وجاء ثلاثة نفـر إلى عبـد اللـه بن عمـرو بن العاص يشكون إليه حاجتهم للنفقـة والدابـة والمتـاع فخيّـرهم: (إن شـئتم رجعتم إلينـا فأعطينـاكم مـا يسـر اللـه لكم، وإن شـئتم ذكرنا أمركم للسـلطان، وإن شـئتم صـبرتم فإني سمعت رسول الله يقول: «**فقـراء**

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - بـاب 32 - الحـديث 1284 (فتح الباري 3/151).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المرضى - بـاب 6 - الحـديث 5652 (فتح الباري 10/114).

المهـاجرين يسـبقون الأغنيـاء يـوم القيامة إلى الجنـة بـأربعين خريفًـا» قالوا: (فإنا نصبر لا نسأل شيئًا) [1].

ويعين المرء على الصبر والثبات تذكُّر سـير الصالحين والتأسِّي بهم، فحين ذُكر لرسـول الله ﷺ أن رجلًا قدح في قسمة رسول الله ﷺ قـال: «**يـرحم اللـه موسـى قـد أوذي بـأكثر من هـذا فصـبر**» [2]، وقـد وجَّهـه القـرآن إلى هـذا المعـنى {**فَاصْـبِرْ كَمَـا صَـبَرَ أُوْلُـوا العَـزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ**} [الأحقاف: 35].

ويهـون على النفس اسـتقبال البلاء وتلقِّي المحن، حين تعلم أن البلاء والصـبر على قدر صلابة الدين وقوته، سُـئل رسـول اللـه ﷺ: أي النـاس أشـد بلاءً؟ فقـال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبـد على حسب دينه؛ فإن كان في دينـه صـلبًا اشتد بلاؤه، وإن كـان في دينـه رقـة ابتُلي على حسـب دينـه، فمـا يـبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشـي على الأرض وما عليه من خطيئة**» [3].

---

[1] (?) صـحيح مسـلم - أول كتـاب الزهد - الحـديث 37/2979. وانظر (شرح النووي 9/320 - 321).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الأنبيـاء - بـاب 28 - الحـديث 3405 (فتح الباري 6/436).

[3] (?) صحيح سـنن ابن ماجه للألبـاني - كتـاب الفتن - بـاب 23 - الحديث 3249 (حسن صحيح).

وفي حـديث آخـر: **«لقـد كـان أحـدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العبـاءة يجوبهـا فيلبسـها، ويبتلى بالقمـل حتى يقتله. ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء»**[1].

وحين يعلم الصـابر مـا يُزيحـه الصـبر عن كاهلـه من الـذنب؛ يكـون أكـثر طمعًـا في رحمة اللـه، وأكـثر رضًـا بقـدر اللـه، فبعض النـاس ليس لهم أعمـال صـالحة يـداومون عليها ترفع درجـاتهم، يصـلون إلى المـراتب العليـا بالصـبر: **«إن الرجـل ليكـون لـه المنزلة عند اللـه فمـا يبلغهـا بعمـل، فلا يزال الله يبتليـه بمـا يكـره حـتى يبلغه إياها»**[2] وهـؤلاء يغبطهم أهـل نعيم الـدنيا على مـا هم فيـه **«ليـودُّن أهـل العافيـة يـوم القيامـة أن جلـودهم قُرضـت بالمقـاريض ممـا يـرون من ثواب أهل البلاء»**[3] هذا عـدا معيـة اللـه للصـابرين {**وَاصْـبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّابِرِينَ**...} [الأنفال: 46].

وعـدا وفـاء اللـه بوعـده لعبـاده الصـابرين {**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**} [الروم: 60، غافر: 55، 77].

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 995 (صحيح).
[2] (?) صحيح الجامع برقم 1625 (حسن).
[3] (?) صحيح الجامع برقم 5484 (حسن).

وكم يهـون عليـك الصـبر حين تتفكـر في جـرأة العبـاد على ربهم، ثم في كـرم اللـه معهم: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى: إنهم يجعلون لـه ندًّا، ويجعلـون لـه ولـدًا، وهـو مـع ذلـك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»[1].

كما يهون علينا الصبر حين نتذكر أن أعداءنا يألمون كما نألم، يقول سـيد قطب - رحمـه الله -:

(وإذا كان الباطل يصر ويصـبر ويمضـي في الطريـق، فمـا أجـدر الحـق أن يكـون أشـد إصــرارًا وأعظم صــبرًا على المضــي في الطريق)[2]، من أجل ذلـك كلـه: {**يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بْالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} [البقرة: 153].

ومن صـور الصـبر الـتي يمتحن اللـه بهـا عبـاده: الابتلاء في الصـحة، كمـا جـاء في الحـديث القدسـي: «**إذا ابتليت عبـدي بحبيبتَيْه فصبر، عوَّضته منهما الجنة**»[3]، كمـا قـد يبتلي المـرء بمحيـط يحسـده، ويعد عليه أنفاسه، ويستأثر عليه بكـل خـير،

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب المنافقين - باب 9 - الحديث 50/ 2804 (شرح النووي 9/152).

[2] (?) في ظلال القرآن 1/546. في ظلال الآية الأخيرة من سورة آل عمران.

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب المرضى - باب 7 - الحديث 5653 (فتح الباري 10/116).

وهذا متوقع من الضعف البشري، خاصة إذا انفتحت الدنيا على الناس وتنافسوا فيها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا..**» قال أنس: (فلم نصبر) [1].

ومن أعظم صور الصبر ما يكون في مواقف النزال والمواجهة والصراع، لذلك قال ﷺ: « **لا تمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا..**» [2]، وكان رسول الله ﷺ يأخذ عليهم العهد بألا يفروا، وذلك بأن يبايعهم على الصبر [3].

وقد ضرب لنا القرآن مثلًا عمليًّا في الصبر على طلب العلم؛ حيث اشترط العبد الصالحُ على موسى عليه السلام الصبرَ من البداية، وظن موسى أنه يستطيع أن يصبر: {**قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ...**} [الكهف: 69]، وفي كل مرة يُذكّره العبد الصالح {**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**} [الكهف: 75]، حتى فارقه بعد ثلاث مرات من تذكيره

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب فرض الخمس - باب 19 - الحديث 3147 (فتح الباري 6/251).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب 32 - الحديث 3025 (فتح الباري 6/156).

[3] (?) حديث البيعة على الصبر في صحيح البخاري - الجهاد - باب 110 - الحديث 2958.

إياه، وقد جاء في الحديث: **«.. ولو صبر لرأى العجب»** [1]، فالعلم لا يفتح كنوزه إلا للصابرين المثابرين.

والصبر ضروري في تربية الأولاد، وخاصة إن كن بنات، وبالصبر على التربية ينفتح للمربي باب من الأجر أو يكتب له ستر من النار كما في الحديث: **«مَن كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جِدَتِه كن له حجابًا من النار يوم القيامة»** [2].

وقال تعالى: {**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**} [طه: 132].

ولأن المؤمن إلف مألوف فلا بد أن يتزود بالصبر على أخطاء الناس؛ ليتمكن من مخالطتهم، ومن إصلاح أحوالهم، وفي ذلك قال ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»** [3]، ومن الثلاثة الذين يحبهم الله **«الرجل يكون له الجار**

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب 46 - الحديث 172/2380 (شرح النووي 8/153).

[2] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب الأدب - باب 3 - الحديث 2959 (صحيح).

[3] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب الفتن - باب 23 - الحديث 3257 (صحيح).

يؤذيه جواره فيصبر على أذاه؛ حتى يفرق بينهما موت أو ظعن...» [1].

والمجاهد الذي يسعى لاستئناف الحياة الإسلامية وإقامة المجتمع الإسلامي لا بدَّ له من الصبر على طول الطريق، وضعف الإخوة، وعناء المجاهدة، وعنت البلاء، بالإضافة إلى صبره على مدافعة الظلم والظالمين، وعندئذٍ يتذوق معاني الإيمان **«أفضل الإيمان الصبر والسماحة»**[2].

(والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة؛ الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصوُّرهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووسوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات

---

[1] (?) مسند أحمد 5/151، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 3074.

[2] (?) صحيح الجامع برقم 1097 (صحيح).

متنوعة من الألم والغيظ، والحنق والضيق، وضعف الثقة أحيانًا في الخير، وقلة الرجاء أحيانًا في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحيانًا والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلا الاعتداء!) [1].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- لا يستمر جهاد بلا صبر.
- أهل الباطل يصبرون على باطلهم، وأهل الحق أولى.
- الصبر يُكتسب بالتصبر.
- عاقبة الصبر خير.
- الصبر المحمود ليس فيه سخط ولا جزع ولا شكوى.
- الصبر المحمود بتمام التوكل وكمال اليقين.
- الصبر هو العز، وفي الثبات عليه يكون الفرج.
- يعين على الصبر الجميل.
- استحضار ما أعد الله للصابرين من الأجر.

---

[1](?) في ظلال القرآن 1/545 - 546.

- التأسي بسير الصابرين.
- تذكر أن البلاء على قدر صلابة الدين.
- استحضار ما يمحوه الصبر من الذنوب.
- تذكر صبر الله على عباده.

- من صور الصبر:

- الصبر على المرض وبلاء البدن.
- الصبر في مواقف النزال.
- الصبر في طلب العلم.
- الصبر في تربية الأبناء.
- الصبر على أخطاء الناس.
- الصــبر على طــول الطريــق وعنــاء المجاهدة.

الباب الثاني

من أخلاقنا في الدعوة

الفصل الأول: التحبب إلى الناس.
الفصل الثاني: الدفع بالأحسن.
الفصل الثالث: التبشير.
الفصل الرابع: الحكمة.
الفصل الخامس: الهمة.
الفصل السادس: التيسير.
الفصل السابع: تقديم النفع.

الفصل الأول

التحبب إلى الناس

«ادع الله أن يحببني.. إلى عباده المؤمنين».

لا شك أن مقصود المسلم رضا الله قبل رضا سواه، كما أنه لا شك بأننا حين نتَّسِم بالفظاظة وغلظة القلب نُنفِّر الناس منا وينفضُّون عنا، والجمع بين ما يحبه الله

والتحبب إلى الناس ليس بالأمر العسير؛ إن التزَمْنا الحكمة واشتغلنا بمقاصد الشرع.
ما نقصده بالتحبب إلى الناس: التخلق بمجموعة من الصفات الرفيقة والودودة، التي إن توفرت في شخصية المسلم تجعل الناس ينجذبون إليه، ويتعلقون به، ويقبَلون منه، وقد كان هذا شأنَ رسول الله فقد ورد في الأثر أنه: (من رآه بديهةً هابه ومَن خالطه معرفةً أحبه)[1]، فالحرص على التحبب إلى الناس إنما يقصد منه المسلم ضمان فتح القلوب لقَبول الدعوة، وبالوسائل والأساليب المؤثرة في طباع البشر عادة، ولقد كان أبو هريرة يطلب من رسول الله أن يدعو له بالحب والتحبب: (ادعُ الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا)، فاستجاب رسول الله ، ودعا: «**اللهم حبِّب عُبَيدك هذا - يعني أبا هريرة وأمه - إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين..**»[2].
ولم يكن من العيب أن يأتي رجل ليقول لرسول الله : دُلَّني على عمل إذا أنا

---

[1] (?) سنن الترمذي - المناقب - باب 38 - الحديث 3718، وقال الترمذي: (ليس إسناده بمتصل).

[2] (?) صحيح مسلم - فضائل الصحابة - باب 35 - الحديث 158/2491 (شرح النووي 8/284).

عملته أحبني الله وأحبني الناس، بل كان رسول الله ﷺ يدله على أسباب تحصيل هذه المحبة، كما في الحديث: **«ازهَد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبُّوك»** [(1)].

وواضح في هذا حرص الصحابة على أن تكون شخصياتهم مقبولة ومرضية لدى الناس؛ بالإضافة إلى حرصهم على أن يبلغوا رضا الله بغير تعارض بين الحرصين؛ لأن في كل منهما رضا الله، فآل الأمر في كليهما إلى شيء واحد.

وقد كان رسول الله ﷺ يتحبب إلى بعض ضعاف الإيمان بشيء من العطايا تأليفًا لقلوبهم واستنقاذًا لهم من النار، كما في قوله: **«إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يكُبَّه الله في النار»** [(2)].

وهل ترى حافزًا على التحبب إلى الناس أكثر من تحريض الأئمة والأمراء على التقرب إلى الرعية، ودفع الرعية إلى التحبب لأمرائهم الأتقياء؟!

---

[1](?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني كتاب الزهد - باب 1 - الحديث 3310/4102 (صحيح).

[2](?) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب 19 - الحديث 27 (فتح الباري 1/79).

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»[1].

ولا ريب أن خلق التحبب هذا إن لم يكن خالصًا لله فسينقلب إلى نوع من النفاق والمداهنة والتزلف، فالحب في الله هو الذي يجعلك تحرص على اكتساب حب الناس لك؛ لما تطمح من إيصال خير إليهم على يديك، فالواجب على المؤمن: «**أن يحب المرء لا يحبه إلا الله**»[2]، وإذا تمت المحبة بهذه الصورة دلت على كمال الإيمان: «**من أحب لله وأبغض لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[3].

وقد وردت نصوص كثيرة تربط بين الإيمان وخلق التحابب، ومنها قوله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى**

---

[1] (?) صحيح سنن الترمذي للألباني - كتاب الفتن - باب 63 - الحديث 1845/2376.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب 9 - الحديث 16 (فتح الباري 1/60).

[3] (?) صحيح سنن أبي داود للألباني كتاب السنة باب 16 الحديث 3915/4681 (صحيح).

تحـــابوا، أو لا أدلكم على شـــيء إذا فعلتمــوه تحــاببتم، أفشــوا السـلام بينكم»[1]، ولعظم شـــأن نشـــر المحبـــة واكتسابها اقتضى الأمر أن يـدل الرسـول أمته إلى وسائلها وأسبابها، كما اقتضى قبل ذلك أن يجعل كمال الإيمان مرتبطًا بها.

ومن الصـور الداعيـة إلى كسـب الأصـدقاء واسـتقطاب القلـوب: الهـدوء والسـكينة، والوقـار في المجـالس، يـروي أبـو مسـلم الخـولاني أنـه دخـل مسـجد حمص، فوجـد شـــابًّا بين ثلاثين كهلًا من الصـــحابة (فـــإذا امـــترى القـــوم في شـــيء أقبلـــوا عليـــه فسألوه، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قـال: معاذ بن جبل فوقع له في نفسي حب... ثم قلت: واللـه إني لأحبك، قـال: فيم تحبـني؟ قلت: في الله تبارك وتعالى، قال: أبشر إن كنت صادقًا، سـمعت رسـول اللـه يقـول: **«المتحـــابون في جلالي لهم منـــابر من نــــــــور يغبطهم النـــــــــبيون والشهداء..»** [2].

وكذلك فإن من المفـاتيح السـهلة للقلـوب: اللقيـا بـالترحيب، والاسـتقبال بالبشاشـة،

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الإيمـان - بـاب 22 - الحـديث 93/54 (شرح النووي 1/395).

[2] (?) مسـند أحمد 5/239، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 4312.

واستدامة التبسم، فقد جاء في وصف رسول الله قول الصحابي: (ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله)[1]، وربما كان من حكمة الأمر بإعلان من تحبه بحبك له لتتفجر معاني الحب وتقوي أواصره لدى الطرفين[2].

(وفي شمائل الرسول وجوانب سيرته صور دقيقة تدل على مزيد حرص رسول الله على التحبب إلى الناس، ومنها أنه: (كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم)[3]، ويلاطفهم ويمازحهم، وحاله مع أصحابه كذلك أنه: (كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه، فتناول يده ناوله إياها، فلم ينزع يده منها حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه)[4].

---

[1] (?) صحيح سنن الترمذي للألباني - المناقب - باب 41/22 - الحديث 2880/2903 (صحيح).

[2] (?) الإشارة بقوله : **«إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه إياه»** صحيح سنن الترمذي للألباني - كتاب الزهد - باب 42 - الحديث 1950/2515 (صحيح).

[3] (?) صحيح الجامع برقم 5014 (صحيح).

[4] (?) صحيح الجامع برقم 4780 (حسن).

وعُلم من تحبُّبه ﷺ حتى إلى ضعاف الناس أنه كانت تستوقفه الجارية في الطريق وتحدثه، فما ينصرف عنها حتى تكون هي التي تنصرف، و(كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم)[1].

و(كان لا يُدفع عنه الناس، ولا يُضربوا عنه)[2]، كما (كان لا يكاد يقول لشيء: لا، فإذا سُئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت)[3]، كما كان (يخدم نفسه)[4].

ومجموع هذه الصفات تجعل صاحبها مقبولًا عند الناس ومحببًا إليهم، ولذلك كان الرجل يأتي النبي ﷺ وهو لا يُطيقه، ثم يخرج من عنده ولا يؤثر عليه أحدًا، ومن ذلك ما حدث به عمرو بن العاص عن نفسه: (.. لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته..)، وبعد أن تعرض لتأثير تحببه ﷺ انقلب الحال، (وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو

[1] (?) صحيح الجامع برقم 4877 (صحيح).
[2] (?) صحيح الجامع برقم 4850 (صحيح).
[3] (?) صحيح الجامع برقم 4869 (صحيح).
[4] (?) صحيح الجامع برقم 4996 (صحيح).

سُـئلت أن أصـفه مـا أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه)[1].
وقـد يكـون التحبب أحيانًـا بصـور شخصـية بسـيطة، كـالتي أشـار إليهـا رسـول اللـه بقوله: «**الرؤيا الصالحة من اللـه فـإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب..»**[2]، وذلك كنوع من المشـاركة الوجدانيـة حـتى للهمـوم القلبيـة، وخـواطر العقـل البـاطن، وعـالم مـا وراء الشـعور، وتلـك أقصـى مسـتويات التحبب والتفاعـل الأخوي، ولذلك كان يحاول رسول الله أن يعايش هموم أصحابه في اليقظـة والمنـام، حين كـان ينصـرف من صـلاة الفجـر ويعـبر للناس رؤاهم، يقول ابن عباس: (كـان ممـا يقـول لأصـحابه: من رأى منكم رؤيـا فليقصها؛ أعبرها له..)[3]، واختيـار المـداخل إلى القلـوب يحتـاج إلى فطنـة، وترصـد للمواقف المناسبة، وأصل الأمر ومِلاكـه أن تكون محبوبًا من الله، فهـو بعدئذٍ يضـع لـك القبول في الأرض، فـاحرص على حب اللـه لك يفتح لك قلوب الناس، وتخلّق بما يـدعو

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب 54 - الحديث 192/121 (شرح النووي 1/496).
[2] (?) صـحيح مسـلم - كتـاب الرؤيا - الحـديث 4 (شـرح النـووي 8/24).
[3] (?) صحيح مسلم - كتـاب الرؤيا - بـاب 3 - الحـديث 17 (شـرح النووي 8/36).

إلى التحبب، فالداعيــة اللــبيب من يكــون قادرًا على فتح قلوب العباد؛ لتُفتح له البلاد.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الجمع بين مـا يحبـه اللـه والتحبب إلى الناس أمر شرعي.
- لا تعارض بين هيبـة النـاس لـك وحبهم إياك.
- كمـا حرَص الصـحابة على رضـا اللـه، فقد كـانوا يحرصـون على التحبب إلى الناس.
- بعض التحبب ضـروري لتـأليف قلـوب ضعاف الإيمان.
- حتى الأئمة والأمـراء مـدعوون للتحبب إلى الرعية.
- التحبب إن لم يكن خالصًـا للــه، كــان نفاقًا ومداهنة.
- هنالـــك ارتبـــاط بين الإيمـــان، وبين التحبب للمؤمنين.
- **من دواعي التحبب:**
  - التزام السكينة والوقار.
  - بسط الوجه وطيب المعشر.
  - التقرب إلى الضعاف والمساكين.
  - التواضع والذلة للمؤمنين.

- الاهتمـــام بالمشـــاركة الوجدانيـــة والتفاعل الأخرى.
- المحبوب عند الله يكتب له القبول في الأرض فيحبه الناس.

الفصل الثاني

الدفع بالأحسن

{**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ..**[1]}
كم سيكون مجتمعًا بغيضًا ذلك المجتمع الذي يتبارى الناس فيه بما يدبرونه من الكيد ردًا على إساءة؟!

[1](?) [المؤمنون 96].

وكم ستكون نفسًا خبيثة تلك النفس التي لا تطمئن حتى تكيل الصاع صاعين لمن أخطأ في حقها؟!

إن المبادرة بالإحسان إلى أي إنسان أسهل بكثــير من دوام الإحســان إلى مَن أســاء إليــك، واســتمرار الصــلة مــع من قطعــك، والتزام العفو عمن ظلمك، وذلك هو الــدفع بالأحسن.

إن المتشبِّع بـــروح التضـــحية، والمتســـنم لذروة سام الإسلام، والمتطلع إلى مقامات الشـهادة، لن يصـعب عليـه أن يقـوى على فورة لانفعال البشـري؛ ليعفـو ويصـفح، بـل يُنتظر منه أن يكسر شـوكة الهـوى، ونزعـة الضعف لديه ولدى المسـيء إليـه؛ بمقابلـة الإساءة بالإحسان.

وتبدأ تربيـة النفس على الإحسـان بـالخروج من طوق (الإمَّعـة) إلى التمـيز بالشخصـية: (لا تكونوا إمّعة؛ تقولـون إن أحسـن النـاس أحسـنا، وإن ظلمـوا ظلمنـا، ولكن وطِّنـوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسـنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا)[1]، كما جاء هذا المعـنى في قـول عثمـان : (فـإذا أحسـن النـاس

[1](?) سـنن الترمـذي-الـبر - بـاب 63 وحسـنه الأرنـاؤوط (جـامع الأصول 11/699 - الحديث 9349).

فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم)[1].

وبتوطين النفس على التميز تتحرر شخصية المجاهد من ردود الفعل الطائشة، ومن إسار التقليد الأعمى.

وحين تزل القدم، وينفلت الزمام، وتجد نفسك قد انحدرت إلى هاوية الإساءة، فبادر إلى إصلاح خطئك بخيرٍ تعمله؛ حتى تمسح آثار الذلة، وتعود إلى فطرة الخير الأصيلة في نفس المسلم، فإن ذلك يعين أخاك على الدفع بالتي هي أحسن، ويصبح مجال التنافس كله في ميدان الإحسان والدفع بالأحسن، وإن سحر الخلق الفاضل ليفوق في كثير من الأحيان قوة العضلات وسطوة الانتقام، فإذا بالخصم ينقلب خلقًا آخر، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: {**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**} [فصلت: 34] يقول ابن عباس في تفسير الآية: (ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك)[2]، ويُروى عنه أيضًا قوله: (أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل،

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب 56 - الحديث 695 (فتح الباري 2/188).

[2] (?) تفسير القرطبي 15/361.

والعفـو عنـد الإسـاءة، فـإذا فعلـوا ذلـك عصـمهم الله من الشـيطان، وخضـع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم)[1].

وحـال الـدافعين بالحسـنى المحافظـة على وقـارهم واتـزانهم، وعـدم الانجـراف مـع اسـتفزازات المحرشـين اللاغين، وقـد وصفهم الله عز وجل بقوله: {**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**} [المؤمنون: 3]. {**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...**} [القصص: 55]، {**... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**} [الفرقان: 63]، {**... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**} [الفرقان: 72]، ومما وجه الله إليه نبيه ﷺ في مجال الدفع بالأحسن قوله سبحانه: {**...وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...**} [النحل: 125]ـ {**وخُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**} [الأعراف: 199].

إن أدنى صور الـدفع بـالتي هي أحسـن: أن تمتص غضـبتك، وتكظم غيظـك، لتنفـذ من هـذا البـاب إلى الحُـور العِين الـتي تتطلـع إليهـا، فقـد جـاء في الحـديث: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه اللـه على رؤوس الخلائـق يـوم**

(?)[1] فتح القدير 4/517.

القيامة؛ حـتى يخيّـره في أي الحـور شاء» [1].

ومن أخطـر المنزلقـات إلى هاويـة الانتقـام للنفس، والأخـذ بالثـأر، أن يكـون المـرء ذا إمرة وسلطان، ولقد جاء رجـل إلى رسـول الله ﷺ يشـكو خادمـه: إن لي خادمًـا يسـيء ويظلم أفأضربه؟ قـال: «**تعفو عنـه كـل يوم سبعين مرة**» [2].

ومن آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ صحابته وهـو يوصـي بالأنصـار خـيرًا: «**فمن ولي شيئًا من أمة محمـد ﷺ، فاسـتطاع أن يضـر فيـه أحـدًا، أو ينفـع فيـه أحـدًا، فليُقبِـل من محسـنهم، ويتجـاوز عن مسيئهم**»[3].

وهذا ما وصـفت بـه السـيدة عائشـة رضـي الله عنها خلق رسول اللـه ﷺ: (.. ولا يجـزي بالسـيئة السـيئة، ولكن يعفـو ويصـفح)[4]،

---

[1](?) صحيح سـنن ابن ماجه للألبـاني - كتـاب الزهد - بـاب 18 - الحديث 3375 / 4186 (حسن).

[2](?) مسند أحمد 2/90، وصحح أحمد شاكر إسناده (8/28 برقم 5635).

[3](?) صحيح البخـاري - كتـاب الجمعة - بـاب 29 - الحـديث 927 (فتح الباري 2/404).

[4](?) صـحيح سـنن الترمـذي للألبـاني - كتـاب الـبر - بـاب 68 - الحديث 1640 / 2102 (صحيح).

وجاء وصفه في التوراة هكذا، كما في رواية البخاري[1].

ومن صور الدفع بالأحسن أن تقابل المسيء بالدعاء له، وبهذا فسر أنس قوله تعالى: {**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**}؛ حيث قال: (يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول له: إن كنت كاذبًا، فإني أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقًا فإني أسأل الله أن يغفر لي)[2]، حتى إن رسول الله ﷺ استنكر على مَن قال لفاعل كبيرة: (أخزاك الله)، رغم شناعة فعله، وقال: **«لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا رحمك الله»**[3].

ولو كان كل إنسان سيقابل أخاه بمثل شرِّه لتخلي الناس عن خصال الخير، وغدوا في غابة لا ضابط لها ولا رابط، خاصة وأن صور الإساءة قد تغري بالدفع بمثلها - على أقل الأحوال - وقد جاء صحابي يشكو: (يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفاكافئهم؟ قال: **«لا، إذًا**

[1] (?) صحيح البخاري - التفسير - سورة 48 - باب 3 - الحديث 3838 (فتح الباري 8/585).

[2] (?) تفسير المراغي 18/54، عند شرحه للآية 96 من (سورة المؤمنون).

[3] (?) مسند أحمد 2/300، ورواه البخاري في الحدود باب 5 - الحديث 6781 (الفتح 12/75).

تـتركون جميعًـا، ولكن خـذ بالفصـل وصلهم، فإنه لن يزال معك من اللـه ظهير ما كنت على ذلك»[1].

وسأل رجل رسول الله ﷺ: الرجل أمر به فلا يقريـني ولا يضـيفني، فيمـر بي، أفأجزيـه؟ قـــال: «**لا، أقرهْ**»[2]، وهـــذا من أعلى مقامـــات العفـــو، بـــأن تقابـــل الإســـاءة بالإحسان، وهنيئًا لمن قدر على ذلك {**وَمَـا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ**} [فصـلت: 35]، وبـذلك تحيـا معـاني الخـير في النفـوس، ويتبـارى النـاس في الإحسـان، وتُغلـق أبـواب الشـر على الشيطان، ولا يُتاح للإساءة أن تتفاقم، ويغمرها الإحسان، ويقضي على دوافعها.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- المبادرة بالإحسان أسـهل على النفس من دفع المسيء بالحسنى.
- الـدفع بالأحسـن يقتضـي قـدرة كبـيرة على المجاهدة.
- يعين على الدفع بالأحسن.
- توطين النفس ألا تكون إمَّعة.

---

[1] (?) مسـند أحمد 2/208، وقـال أحمد شـاكر 10/173 بـرقم 6700 : (إسناده صحيح).

[2] (?) صـحيح سـنن الترمـذي للألبـاني - كتـاب الـبر - بـاب 63 - الحديث 1632 / 2091 (صحيح).

- التنافس في ميدان الإحسان.
- البعد عن اللغو والاستفزازات.
- كظم الغيظ.
- **من صور الدفع بالأحسن:**
  - احتمال إساءة الأتباع.
  - الدعاء للمسيء.
- لو لم يدفع الناس بالأحسـن لغـدوا في غابة لا ضابط لها.
- دفــع المســيء بالحســنى من أعلى المقامات.

الفصل الثالث

التبشير

«يَسِّروا ولا تُعسِّروا وبَشِّروا ولا تُنفِّروا».

(التبشير) شعار أعلنه المنصِّرون، وتسموا به، وسلكوا طرقه وأساليبه، وكثيرًا ما كنا نرى أساليبهم يستبشر لها المتعاملون معهم، بينما كانت طريقة تعامل بعض

الدعاة ينفر منها المدعوُّون، أوليس الداعية أحقَّ باسم التبشير خُلقًا ووسيلة وغاية؟!
وأقصد بخلق (التبشـير): التخلـق بالصـفات التي تستدعي الاستئناس والارتياح والتحبب وبث الأمل في القلوب، والبعد عن أساليب (التنفــير) ودواعي الانقبــاض، حــتى في التخويف من الله والترهيب من النار.
لقد بُعث رسول الله بشيرًا لأتباعه، نـذيرًا لأعدائـه، بـل كـانت مهمـة الرسـل لا تعـدو هذين الوصفين: {**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّــرِينَ وَمُنــذِرِينَ...**} [الأنعــام: 48]، [الكهف: 56]، وقد أمر الله في كتابه بتبشـير المؤمـنين والصـابرين والمحسـنين والمخبتين، في آيات كثيرة.
وكان من أساليب تبشير رسـول اللـه أنـه يختـار الـوقت المناسـب والقـدر المناسـب لأداء الموعظـة والعلم كيلا ينفـر الصـحابة، وفي ذلك يقول : «**يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا**»[1].
وعلق عليه ابن حجر بقوله: (المـراد تـأليف من قرب إسلامه، وتركُ التشـديد عليـه في الابتداء، وكذلك الزجـر عن المعاصـي ينبغي أن يكـون بتلطـف ليقبـل، وكـذا تعليم العلم ينبغي أن يكــون بالتــدريج؛ لأن الشــيء إذا

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب 11 - الحـديث 69 (فتح الباري 1/163).

كان في ابتدائـه سـهلًا حبب إلى مَن يـدخل فيه، وتلقَّاه بانبسـاط، وكـانت عاقبتـه غالبًـا الازدياد..)[1].

ومن حكمته ﷺ أنه استعمل أساليب التبشـير في إيقـاظ الهمم والتنشـيط للطاعـة، ومن ذلك قوله: «**بشِّر المشائين في الظُّلَم إلى المسـاجد بـالنور التـامِّ يـوم القيامة**»[2]، وصلى العشاء مرة بأصـحابه، وقبـل أن ينصـرفوا قـال لهم: «**على رسـلكم، أبشـروا، إن من نعمـة اللـه عليكم أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم**»، قـال أبـو موسـى الأشعري: فرجعنـا ففرحنـا بمـا سـمعنا من رسول الله ﷺ[3].

ويحتاج الإنسان في حالات الاضـطراب إلى التبشير بما يزيـل عنـه دواعي الاضـطراب، فبعد نزول الوحي على رسـول اللـه ﷺ ذكـر لخديجـة رضـي اللـه عنهـا مـا جـرى لـه، وأخبرهـا بخوفـه على نفسـه من هـذه الظـاهرة الجديـدة، فبشَّـرته بـأن لـه من سابقة الخير ما يستبعد معها مكافأة الله له

---

[1] (?) فتح الباري 1/163.

[2] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني - كتاب المساجد - باب 14 - الحديث 633/781 (صحيح).

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب المواقيت - باب 22 - الحـديث 567 (فتح الباري 2/47).

بمكــروه، فقــالت: (كلا، أبشــر، فواللــه لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنـك لتَصِـل الـرحم، وتصـدق الحـديث، وتحمـل الكلَّ، وتَكسِـب المعــدوم، وتعين على نــوائب الحــق..)[1]، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ مع أمته ليزيل عنهــا دواعي القلــق على مســتقبل هــذا الــدين: **«بشــر هــذه الأمــة بالســناء والرفعــة والــدين والنصــر والتمكين في الأرض..»** [2].

وحتى في حالات الضـعف البشـري لم يكن رســول اللــه ﷺ ليعنِّــف أصـحابه بفظاظــة وغلظــة، وهم الــذين ســمعوا بقــدوم أبي عبيدة بجزية البحرين، فاجتمعوا على صـلاة الفجـر، وتبعـوا رسـول اللـه ﷺ بعـد الصـلام، ففهم مــاذا يريــدون، قــال: **«فأبشــروا وأملوا ما يســركم، فواللــه لا الفقــر أخشــــى عليكم، ولكن أخشــــى أن تبسط عليكم الدنيا..»**[3].

والمــؤمن محتــاجٌ في حــال البلاء إلى من يكشف همه، ويبشره بما يسره، إمـا بفـرج عاجل، أو بأجر آجل، ولقد وجد رسول اللــه

---

[1] (?) صحيح البخاري - التفسير - سورة العلق - باب 1 - الحديث 4953 (فتح الباري 8/715).

[2] (?) مسـند أحمد 5/134، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 2825.

[3] (?) صحيح البخـاري - كتـاب الجزية - بـاب 1 - الحـديث 3158 (فتح الباري 6/258).

 أم العلاء مريضة فقال لها: «**أبشـري يـا أم العلاء، فإن مرض المسـلم يُـذهب خطايـــاه، كمـــا تُـــذهب النـــار خبث الحديد**» [1].

والمؤمن بشير في مواقـف الأسـى يسـري عن الناس أحزانهم؛ بمـا يـدخل البهجـة إلى قلـوبهم، ويُبعـد الكآبـة عنهم، كتب زيـد بن أرقم إلى أنس بن مالك زمن الحـرة يعزِّيـه فيمن قُتل من ولده وقومه، فقـال: أبشـرك ببشرى من الله عز وجـل، سـمعت رسـول اللـه يقـول: «**اللهم اغفـر للأنصـار، ولأبنـــاء الأنصـــار، ولأبنـــاء أبنـــاء الأنصار...**» [2].

ولقد بشـر اللـه المبـايعين على الجهـاد بمـا ادخر الله لهم من الأجر إن وفُّوا بالبيعة: {**...فَاسْتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَـايَعْتُم بِهِ...**} [التوبة: 111]، وبشر رسول الله الموحِّدين بالجنـة جـزاءَ الـتزامهم بكلمـة التوحيـد قـولًا واعتقـادًا وعملًا - رحمـة منـه سـبحانه -: «**أبشـــروا. وبشـــروا من وراءكم؛ أنـه من شـهد أن لا إلـه إلا**

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 37 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 4/370، وفي إسناده عند أحمد رجل فيه كلام، ولكن رواه الشيخان من وجه آخر (انظر بلوغ الأماني 22/173 - 174).

الله صادقًا من قلبه، دخـل الجنـة» [1]
وقال جبريـل عليـه السـلام لرسـول اللـه ﷺ مبشرًا المؤمنين الحذرين من صور الشـرك كبيرهـا وصـغيرها: «**بشر أمتـك أنـه من مـات لا يشـرك باللـه شـيئًا، دخـل الجنة..»** [2].
وفي توبة كعب بن مالك صـورة عمليـة من صور التعـاطف الاجتمـاعي والتهنئـة بقبـول التوبة، حيث ذهب إليه عدد من المبشـرين، فناداه أحدهم قبل أن يصـل إليـه: (يـا كعبُ بنَ مالكٍ، أبشـــر، يقـــول كعب: فخـــررت ساجدًا، وعرفت أن قـد جـاء فـرج)، وتلقـاه الناس فوجًا فوجًا يهنئونـه بالتوبـة ويقولـون له: (لتهنك توبة الله عليك)، ولما سلم على رسـول اللـه قـال ﷺ، وهـو يـبرق وجهـه من السـرور: «**أبشر بخـير يـوم مـر عليـك منذ ولدتك أمك..»** [3].
ومن لطيف مـا ورد في هـذه القصـة روايـة نقلهـا صـاحب الفتح، تـبين مـدى حـرص المجتمـع الإسـلامي على تبـادل البشـريات، يقـول كعب: (فـأنزل اللـه توبتنـا على نبيـه

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 35 (صحيح).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - بـاب 13 - الحـديث 6443 (فتح الباري 11/261).

[3] (?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 79 - الحديث 4418 (فتح الباري 8/116).

حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بأمري، فقال: «**يا أم سلمة! تِيب على كعب**»، قالت: أفلا أُرسِل إليه فأبشره؟ قال: «**إذًا يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة**» [1].

فقد كانت أم سلمة حريصة على ألا تنتظر الصباح وألا تدخر البُشرى لرجل مسلم.

وقد وعد الله الذين آمنوا وكانوا يتقون بأن {**لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...**} [يونس: 64]، ومن البشرى العاجلة في الحياة الدنيا: أن يلقى المسلم قبولًا حسنًا من إخوانه، وأن تشكره على إحسانه، فذلك من التبشير، وقد روي مسلم في باب: (إذا أُثنِي على الصالح فهي بشرى ولا تضره) حديثًا جاء فيه: (قيل لرسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟)، قال: «**تلك عاجل بُشرى المؤمن**» [2].

وحالُه مع أصحابه التبشير، كما في قوله: «**إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد**

---

[1] (?) عن فتح الباري 8/121 - 122.

[2] (?) صحيح مسلم - كتاب البر - باب 51 - الحديث 166/2642 (شرح النووي 8/428).

إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا.»[1].

قال في الفتح: (وأبشروا: أي بالثواب على العمل الدائم - وإن قل - والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المبشَّر به تعظيمًا له وتفخيمًا)[2].

ومبنى هذا الخلق وأساسه أن يكون المسلم مصدرًا للفأل الحسن، والأمل الواسع، والعاقبة الخيرة، وألا يرى أخوه منه ما يكره.

أفبعد كل هذه الإشارات يقبل أحدنا لنفسه أن يكون مصدر شؤم، ومظنة تخذيل، أو إحباط، أو تنفير، أو قتل للقدرات؟ أم نشيع البشرى، وننشر التفاؤل، ونحيي النفوس، ونحرض على الخير، ونُعِين على المعروف، ونستنهض الهمم؟ إلى أن يكون كل منا بشيرًا لإخوانه يحيي فيهم الأمل ويدفعهم إلى مزيد من العمل.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- خلق التبشير يُعطي الأنس ويبعد عن التنفير.

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب 29 - الحديث 39 (فتح الباري 1/93).

[2] (?) فتح الباري 1/95.

- رسول الله بُعث مبشرًا.

- من أساليب التبشير:

- أداء الموعظــة المناســبة قــدرًا وتوقيتًا.
- من المواقـــف الـــتي تقتضـــي التبشير:
  - تنشيط الهمم للطاعة.
  - إزالة دواعي الاضطراب.
  - تهدئة الضعف البشري.
  - إزالة هم المكروب.
  - تحـــــــريض المقبلين على الشهادة.

- قصة توبة كعب بن مالك وما فيهـا من التبشير.
- يبشر الله عباده في الحياة الدنيا.
- مــا يلقــاه المــؤمن من شــكر على إحسانه من عاجل بشراه.
- حال رسول الله مع صحابته التبشير.
- صاحب خلق التبشير ذو فأل حسن.

الفصل الرابع

الحكمة

{**وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** }

إن صاحب النية الخالصة والعبـادة الصـادقة يبقى صـلاحه قاصـرًا عليـه ولا يتعـداه إلى غـيره، إن لم يـرزق الحكمـة في التعامـل، والإصــابة في الاختيــار، كمــا أن صــاحب الحكمــة تغــدو حكمتــه نوعًــا من النفــاق

الاجتماعي، والسياسة المقيتة، إن لم تشفع لهـا روحانيـة عاليـة، واسـتقامة على نهج الكتاب والسنة.

كثير من التفاسير تفسر الحكمة أحيانًا بأنها القـرآن، وأحيانًـا تفسـرها بأنهـا السـنة أو النبـوة، ولـذلك وردت أحـاديث في دعـوة رسول الله لحبر الأمة - ابن عبـاس - بـأن يعلمـه اللـه التأويـل والكتـاب والفقـه في الدين، وأجملهـا في روايـة للبخـاري بقولـه: **«اللهم علّمه الحكمة»** [1].

والمراد بذلك فهم القرآن والسـنة، والعمـل بهمـا، كمـا صـرح بـذلك كثـير من التـابعين، وأكده ابن تيمية بقوله: (.. وأما الحكمة في القرآن فهي معرفة الحق، وقولـه، والعمـل بـه..) [2].

وإذا عدنا إلى اللغة وجدنا الحكمـة: (الإصـابة في القول والعمل، وأصلها وضع الشـيء في موضعه.. قال في اللسان: أحكم الأمر أتقنه. ويقـال للرجـل إذا كـان حكيمًـا: قـد أحكمتـه التجارب. والحكيم المتقن)[3].

وبتعريف الداعيـة المجـرب، المسـتوحي من الحركـــــة لهـــــذا الـــــدين،

---

[1] (?) صـحيح البخـاري - فضـائل الصـحاب - بـاب 24 - الحـديث 3756 (فتح الباري 7/100).

[2] (?) مجموع فتاوي ابن تيمية 15/45.

[3] (?) عن صفوة التفاسير 2/490.

يُعرِّف صاحب الظلال الحكمة بقوله: (توخي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها، في تبصر وروية وإدراك)[1].

وللحكمة جذور فطرية، وأخرى مكتسبة، ومن أسباب اكتساب الحكمة التفقه في الدين، وهو من الخير الكثير الذي أشارت إليه الآية: {**... وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**} [البقرة: 269] وأكدته السنة وبينت سبيل اكتساب الحكمة: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**[2].

وأشار صاحب الظلال إلى أنها ثمرة التربية القرآنية: (والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب، وهي مَلَكة يتأتّى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأمور والتوجيهات..)[3].

بينما اعتبرها لقمان الحكيم مما يُكتسب بمجالسة الصالحين الذين يُقتدى بهم، كما في وصيته لابنه: (يا بني، جالس العلماء،

---

[1] (?) في ظلال القرآن 1/306.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب 13 - الحديث 71 (فتح الباري 1/164).

[3] (?) في ظلال القرآن 1/133.

وزاحمهم بركبتيك، فـإن اللـه يحيي القلـوب بنور الحكمة؛ كمـا يحيي اللـه الأرض الميتـة بوابل السماء) [(1)].

وترجم البخاري في كتـاب العلم لبـاب في: (الاغتبـاط في العلم والحكمـة)، باعتبـار أن العلم وسـيلة، وأن الحكمـة نتيجـة طبيعيـة، ولذلك نقل في الترجمة قول عمر: (تفقَّهوا قبـل أن تسـودوا)، لمـا تحتاجـه الإمـرة من حكمـة العلم وتجربـة العلمـاء، ولمـا قـد تشتغل الإمرة المبكرة في سن الصـبا، ولم يُـرِد البخـاري أن يُفهم من قـول عمـر أن السـيادة والإمـرة تمنـع من التواضـع للعلم والعلمـــاء، فعقَّب البخـــاري: (وبعـــد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النـبي في كـبر سنهم) [(2)].

ثم إن من مشـارب الحكمـة الاسـتفادة من العمـر والتجـارب، بالاعتبـار وأخـذ الحيطـة لأمر الدين والدنيا، ففي الحديث: **«لا يُلدَغ المؤمن من جُحر واحد مرتين»** [(3)].

وكـثرة التجـارب هي الـتي تكسـب صـاحبها الحلم والحكمـة، وهـذا مـا يُفهم من حـديث

[1] (?) موطأ مالك 2/1002 - كتـاب العلم - بـاب 1 - الحـديث 1 (وهو من بلاغات مالك).

[2] (?) صـحيح البخـاري - العلم - من ترجمة بـاب 15 الاغتبـاط في العلم والحكمة (الفتح 1/165).

[3] (?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 83 - الحـديث 6133 (فتح الباري 10/529).

رسـول اللـه ﷺ: **«لا حليم إلا ذو عـثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»**[1]، وعلّـق عليـه ابن الأثـير: (معنـاه: لا يحصـل الحلم حـتى يرتكب الأمور، ويعثر فيها، فيعتبر، ويسـتبين مواضع الخطأ، ويجتنبها..)[2].

وربما لا يصل الحكيم إلى ما وصـل إليـه إلا بعـد التعلم من الأخطـاء والـزلات والسقطات؛ التي وقع فيهـا بنفسـه، أو بـأن يتشرب نتائج خبرة من يفوقه عمرًا أو علمًا أو تجربة، والمغفـل من لا تنفعـه التجـارب، ولا تعلمـه الأيـام، ولـذلك فصـل الخطـابي فقال: (ليكن المؤمن حازمًا حـذرًا، لا يـؤتى من ناحية الغفلـة فيُخـدع مـرة بعـد أخـرى، وقد يكون ذلك في أمـر الـدين، كمـا يكـون في أمر الدنيا، وهو أولاهما بالحذر) [3].

فـالواجب على الحكيم أن يـتروَّى ويتعقَّل، ولا يعـرض نفسـه للـزلات، فقـد ورد أن صـحابيًّا أتى رسـول اللـه ﷺ فقـال: (.. يـا رسول الله، علِّمـني وأوجـز)، فأجابـه: **«إذا قمت في صلاتك فصلِّ صـلاة مـودِّع، ولا تكلَّمْ بكلام تعتـذر منـه، وأجمع**

---

[1](?) نقله ابن حجر في فتح البـاري 10/529 وقـال: (أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان).

[2](?) عن فتح الباري 1/530.

[3](?) عن فتح الباري 1/530.

اليأسَ عما في أيدي الناس»[1]، فجعل الاحتياط في إطلاق الكلمات، وإبعاد النفس عن الوقوع في الحرج، من ثمرات الحكمـة التي توجز تجارب الرجال.

ومن شُكر صاحب الحكمة لله على مـا آتـاه: أن يعلم الناس ثمرة حكمتـه، وخلاصـة فقهـه وتجاربـــــــه، وعندئـــــــذٍ يكـــــــون حريًّـــــــا بـــــــأن يغبِطـــــــه النـــــــاس، ويتمنَّـوا الوصـول إلى مثـل مقامـه، كمـا جـاء في الحديث: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجـل آتـــــــاه اللـــــــه مـــــــالاً فسُـــــــلِط على هلكته في الحق، ورجـل آتـاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**[2].

ويفسـر ابن حجـر الحكمـة تفسـيرًا جامعًا، فيقـول: (المـراد بالحكمـة: كـل مـا منـع من الجهل، وزجر عن القبيح)[3].

---

[1] (?) صحيح سـنن ابن ماجه للألبـاني - كتـاب الزهد - بـاب 15 - الحديث 3363/4171 (حسن).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الأحكـام - بـاب 3 - الحـديث 7141 (فتح الباري 13/120).

[3] (?) فتح الباري 1/166، عند شرحه للحديث 73.

والغرض من الوصـول إلى أعلى درجـة من الحكمـة الحـرص على الإصـابة في القـول والعمل، واستعمال هذه الحكمة في الدعوة إلى اللـــــه: {**ادْعُ إِلَى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَــةِ وَالْمَوْعِظَــةِ الحَسَــنَةِ....**} [النحــل: 125] ويقــول ابن القيم (أطلــق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلهـا حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي)[1].

ولذلك فإن المعايشين للدعاة ذوي الفطانة والحكمة يتذوقون لذة التأدب على أيـديهم، ويستقبلون توجيهاتهم بارتياح ورضا وحسـن قبـول، كمـا جـاء في روح المعـاني عن صاحب البحر: (أنهـا الكلام الصـواب الواقـع م النفس أجمل موقع[2]، وكلما كان الداعية أكـثر فقهًـا، وأرجح عقلًا، وأصـوب بصـيرة، كان أكثر حكمـة، وقـد جـاء في فتح القـدير أن الحكمة التي أوتيهـا لقمـان هي: (الفقـه والعقل والإصابة)، ووافقه القرطبي[3].

ومن صـور الـدعوة بالحكمـة: (النظـر في أحوال المخاطَبين وظروفهم، والقـدر الـذي يُبيِّنه لهم في كل مرة؛ حتى لا يثقـل عليهم، ولا يشق بالتكـاليف قبـل اسـتعداد النفـوس

---

[1] (?) مدارج السالكين 1/445.

[2] (?) روح المعاني جـ14/254 عند شـرحه للآية 125 من سـورة النحل.

[3] (?) فتح القدير للشوكاني 4/237.

لها، والطريقة التي يخـاطبهم بهـا، والتنويـع في هـذه الطريقـة حسـب مقتضـياتها؛ فلا تسـتبدُّ بـه الحماسـة والانـدفاع والغـيرة؛ فيتجاوز الحكمـة في هـذا كلـه وفي سـواه)[1].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الحكمة بغير الاستقامة نفاق اجتماعي.

- من معاني الحكمة:

- فهم القرآن، ومعرفة الحق والعمل به.
- وضع الشيء في موضعه.
- تـوخِّي القصـد ومحاولـة إدراك العلـل، ووضع الأمور في نصابها.
- من أسباب اكتساب الحكمة:
- التفقه في الدين.
- الاستفادة من تجارب العمر.
- التعلم من الأخطاء.
- الاحتياط من الوقوع في الخطأ.
- من شكر الله على نعمة الحكمة، تعليمها للناس.
- الخرص على الوصـول إلى الصـواب من أسمى الحكمة.
- من الحكمة في الـدعوة مراعـاة أحـوال المخاطبين وظروفهم.

---

[1](?) في ظلال القرآن 4/2202.

الفصل الخامس
الهمة

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل».

لقد كان جيل الصحابة - رضـي اللـه عنهم - على درجةٍ عاليـــة من الهمـــة والنشـــاط، اقتضت من رسـول اللـه أن يـدعوَهم في كثـــير من المواقـــف إلى الحـــد من هـــذا

النشاط الزائد، وإلى العودة إلى مستوى القصد والاعتدال والتوازن قائلًا لهم: **«اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون»**[1]، ويقول الواحد منهم: (يا رسول الله! إني أُطيق أكثر من ذلك)[2].

وحين خارت القوى، وضعفت العزائم، وفترت الهمم، صار الواحد من الناس حين يُطالب بأداء بعض الواجبات يكون جوابه: لا أطيق ذلك. وأصبحنا بحاجة كبيرة للاستعاذة بالله من هذا الحال: **«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»**[3].

إن دينًا يخاطب أتباعه بقول الله عز وجل: {**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**}[آل عمران: 133]

{**سَابِقُوا**} [الحديد: 21]ـ {**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**} [الشرح: 7]ـ {**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...**} [مريم: 12].

إن دينًا هذا شأنه لا يقبل من أتباعه الكسل والخمول، والعجز والسكون، والفتور والتواني، والاسترخاء وضعف الهمة.

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب 18 - الحديث 6465 (فتح الباري 11/294).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب 59 - الحديث 1979 (فتح الباري 4/224).

[3] (?) صحيح البخاري - الجهاد - باب 25 - الحديث 2823 (الفتح 6/36) حيث قال: (والفرق بين العجز والكسل: أن الكسل ترك الشيء مع القدرة على الأخذ في عمله، والعجز عدم القدرة).

ومن الإشارات الطيبة ما جاء في قوله ﷺ: **«أحب الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمام..»** [1].

حيث يصدق على المرء من واقع حاله في هذه الحياة أن يصيبه الهم لأمر، فتثور فيه الهمة إليه، فيسعى ويحرث ويكتسب، وكلا الاسمين يدلان على الكدح وتجديد الإرادة ومواصلة العمل.

إن الرسول ﷺ خُوطب من بدايات الدعوة بقوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**} [المدثر: 1، 2] {**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا**} [المزمل: 1 ـ 2]، وحين كان يُدعى بعدها إلى النوم يقول لسان حاله: مضى عهد النوم، ويقول صاحب الظلال في ذلك: (علم رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك نوم، وأن هناك تكليفًا ثقيلًا، وجهادًا طويلًا، وأنه الصحو والكد والجهد.. قيل لرسول الله ﷺ: قم فقام وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا.. إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، ولكنه يعيش صغيرًا، ويموت صغيرًا، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء فما له والنوم؟ وما

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود للألباني - كتاب الأدب - باب 69 - الحديث 4140/ 4950 (صحيح).

لـه والراحـة؟ ومـا لـه والفـراش الـدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح؟)[1].

إذا كـان قـوم موسـى حين دُعـوا للجهـاد ولدخول لأرض المقدسة التي كتب الله لهم قعدت بهم الهمم، فقـالوا: {**فَـاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلا إِنَّا هَاهُنَـا قَاعِـدُونَ**} [المائدة: 24]، فإن أمة محمد أبت همَّتُهـا إلا أن تقول: «اذهب أنت وربـك فقـاتلا إننـا معكما مقاتلون»[2].

لقـد كـان ضـعف الهمـة صـفة ممـيزة للمنـافقين والمتخلفين الـذين فرحـوا بمقعدهم خلاف رسول الله، وقالوا: {**لَا تَنفِرُوا فِي الحَرِّ**} [التوبة: 81].

وصدق سـيد قطب حيث قـال: (.. والصـف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد؛ لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة) [3].

فلذلك لا بدَّ أن تكون الهمة صفة أصيلة في أخلاق أبنـاء هـذا الـدين؛ لكي يكونـوا أقـدر على الثبات والاحتمال والصمود.

إن العـرب في الجاهليـة كـان عنـدهم من الهمة في تحمل المسؤولية مـا نحن بحاجـة

---

[1] (?) في ظلال القرآن 6/3742 - 3744.

[2] (?) السيرة النبوية لابن هشـام 2/266. رُوي حـديث بيعة العقبة الثانية بإسـناد صـحيح وله شـواهد كثـيرة (انظر السـيرة النبوية الصحيحة 2/359).

[3] (?) في ظلال القرآن 3/1683.

إلى إحيائــه واستنهاضــه، ففي قصــة بيعــة العقبة الثانيـة حين اشـترط رسـول اللـه : «**تبايعوني على السمع والطاعة في النشــاط والكســل..**»[1]، فبــايعوه على جميع شروط البيعة، فقـام أسـعد بن زرارة وهــو من أصـغرهم، يريــد أن يســتوثق من همتهم، وأن يَلفِت نظــرهم إلى التضــحيات التي تنتظرهم، فقال: (رويدًا يا أهل يــثرب! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسـول اللـه ، وأن إخراجـه اليـوم مفارقـة العـرب كافـة، وقتـل خيـاركم، وأن تَعَضَّـكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلـك وأجركم على الله، وإمـا أنتم قـوم تخـافون من أنفسكم جبينة، فـبيِّنوا ذلـك، فهـو عـذر لكم عنـد اللـه، قـالوا: أمطِ عنّـا يـا أسـعد! فوالله لا نترك هذه البيعة أبدًا..) [2].

وإن السعي في أبواب الخير ليقتضـي همـة ونشـاطًا وانـدفاعًا، وعـبر عن ذلـك رسـول الله بقوله: «**..وتسعى بشدة سـاقيك إلى اللهفـــان المســـتغيث، وترفـــع بشدة ذراعَيْك مع الضعيف، كـل ذلـك**

[1] (?) مسند أحمد 3/322، صحح الحاكم إسناده، وأقـره الـذهبي، وجودّه ابن كثير على شرط مسلم. (انظر بلوغ الأماي 20/270).
[2] (?) مسند أحمد 3/322 (راجع الحاشية السابقة).

من أبـــواب الصـــدقة منـــك على نفسك..» [1].

وصــاحب الهمــة حــريصٌ على أن ينصــب ويتعب في إنجاز ما كلف به، حـتى إذا فـرغ منه قام بواجب آخـر من الواجبـات الكثـيرة التي لا تجد لها حملة، فقد قام زيد بن ثابت حين رشَّحه أبو بكر لجمع القـرآن بـأداء مـا طُلب منه، مع أنه قـال: (فواللـه لـو كلفـني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي ممـا أمرني به من جمـع القـرآن)[2]، وأدى الـذي عليه رضى الله عنه.

وحين كلف رسول الله زيدَ بن ثابت بتعلم لغة اليهـود، تـدفقت فيـه الهمـة، فكـان من ثمارها ما عبر عنه بقوله: (فتعلمت كتـابهم، ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقتُه، وكنت أقرأ لـه كتبهم إذا كتبـوا إليـه، وأجيب عنه إذا كتب)[3]، وفي رواية أخرى أنه كُلِّف بتعلم السـريانية، فتعلمهـا في سـبعة عشـر

---

[1] (?) مسند أحمد 5/168 - 169، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجامع برقم 4038.

[2] (?) صـحيح البخـاري - كتـاب التفسـير - سـورة 9 - بـاب 20 - الحديث 4679 (الفتح 8/344).

[3] (?) مسـند أحمد 5/186، أخرجه البخـاري في صـحيحه تعليقًـا، وقـال الترمـذي: حسن صـحيح (انظر بلـوغ الأمـاني 22/242)، وحديث تعلم السريانية عند أحمد 5/182، وذكر الرواتيتين (تعلم اليهودية والسريانية) في صـحيح سـنن الترمـذي للألبـاني - كتـاب العلم - باب 22 - الحديث 2183/2870 (حسن صحيح).

يومًا، ومثل هذه الطاقة لا تتوفر إلا إذا كـان وراءها همة قوية ونشاط عال.

ومن صـــور الهمـــة: الثبـــات على الخـــير، والاستمرار فيه، والدوام عليـه، وهـذا شـأن رجال القدوة في كل زمان، سـئلت عائشـة رضـي اللـه عنهـا عن عمـل رسـول اللـه فقالت: (كان عمله ديمة، ويكم يستطيع مـا كان النبي يستطيع؟)[1].

والتأخير والتسويف صورة من صور الضعف البشـري الـتي قـد تعـتري صـاحب الهمـة، فيفوته خير كثير، وهذا ما أحـرق قلبَ كعب بن مالك إذ فاته الغزو مع رسول الله في غــزوة تبــوك، وهــو مطمئن بأنــه مســتعد ومتجهز ولديه عدته، ثم وهـو يحـدث نفسـه بأنه يمكن أن يلحق به ويدركـه، ثم كـان أن قــال: (وتفــارط الغــزو - أي فــات وقتــه - وهممت أن أرتحل فأدركهم - ليتني فعلت - فلم يُقدَّر لي ذلك..) [2].

وعـــاش بعـــدها كعب فـــترة من العـــذاب النفســـي حينمـــا رجـــع رســـول اللـــه ، ثم خمسـين يومًـا من الهجـران، إلى أن نـزلت

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - بـاب 18 - الحـديث 6466 (فتح الباري 11/294).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 79 - الحديث 4418 (فتح الباري 8/113).

توبته، عاش كل ذلـك الضـيق نتيجـة تبـاطؤ وقع فيه، أو تسويف انزلق إليه.
وصــاحب الهمــة ســباق إلى الخــيرات في أغلب الأوقات، وكذلك كان أصحاب رســول الله ، وكلمـا ضـعف الإيمـان ضـعفت معـه الهمــة إلى الطاعــات، ومن تصــوير ســيد قطب لنفسـية المنـافقين الكسـالى قولـه: (إن هـــؤلاء لهم نمـــوذج لضـــعف الهمـــة، وطــــراوة الإرادة، وكثـــــيرون هم الـــــذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويـــؤثرون الراحـــة الرخيصـــة على الكـــدح الكــريم، ويفضــلون الســلامة الذليلــة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء خلـف الصفوف الجادة الزاحفة..)[1].
ويحدو المسلم ويجدد همته تـذكر مـا أعـده الله له من الأجر والرضـا والنعيم، وهـذا مـا عبَّر عنــه ابن القيم بقولــه: (كلمــا ســكنت نفســـه من كلال الســـير ومواصـــلة الشـــد والرحيل، وعدها قرب التلاقي، وبرد العيش عنــد الوصــول، فيحــدث لهــا ذلــك نشــاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقـول: يـا نفس، أبشـري فقـــد قـــرب المـــنزل، ودنـــا التلاقي، فلا

[1](?) في ظلال القرآن 3/1682.

تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة..) [1].

ولابد لصاحب الهمة من أن يكون معلق القلب بالله، مخلصًا له، فنفوس الأشقياء {عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} [الغاشية: 3، 4] وتكون النار بعد كل السعي والجهد المشوب بالرياء أو الشرك حرقة بعد حرقة. وأما في الدنيا فإن أهل الهمة يجدون أنفسهم مدفوعين من داخل قلوبهم إلى أمرٍ ملك عليهم أفئدتهم، وأمثال هؤلاء غالبًا يظفرون بما سعَوا إليه، ويحققون ما حرَصوا عليه، ويعبر عن ذلك ابن القيم بقوله: (فتلك هي الهمة العالية التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره.. ولا يلتفت عنها.. وصاحب هذه الهمة سريع وصوله، وظفره بمطلوبه) [2].

والداعية الحريص على سرعة الوصول والظفر بالمطلوب بابه الهمة، فنعوذ بالله من العجز والكسل، ونسأله سبحانه النشاط لما يرضيه.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- لفرط همة الصحابة كان رسول الله ﷺ يردهم إلى ما يطيقون.

---

[1] (?) طريق الهجرتين لابن القيم ص333.

[2] (?) تهذيب مدارج السالكين - منزل الهمة ص 507.

- استعاذته رسول الله من العجز والكسل.
- نصوص كثيرة تدعو إلى المسابقة والمسارعة وهذا لا يكون بغير همة.
- من أصدق الأسماء عند الله: حارث، همام.
- من بداية الدعوى كانت التكليفات تقتضي همة عالية.
- ضعف الهمة كان صفة مميزة للمنافقين.
- كان لدى عرب الجاهلية من الهمة ما أهلهم لحمل الرسالة.
- أعمال البر لا تنجز إلا بالهمة، والهمة تولد القدرة.

- من صور الهمة:

- الدوام على عمل الخير.
- عدم التسويف والتأخير.
- عدم إيثاب الراحة والسلامة.
- معرفة ما أعد الله من الأجر، يشحذ الهمة للعمل.
- الهمة بغير إخلاص شقاء ونصب في الدنيا والآخرة.

الفصل السادس

التيسير

«يسروا ولا تعسروا».

بمـا أن الداعيـة لا بـدَّ أن يختلـط بالنـاس، فلابـــد أن يصـــبر على أذاهم، وأن يجنبهم أذاه، فلا يعسـر عليهم حيث يمكن التيسـير، ولا يشق عليهم حيث يمكن التخفيف.

خلق التيسير يعني: قابلية الشخص للتنـازل والأخذ بالأيسر، طالمًا أن التيسير ممكن ولا حرج منه شرعًا، وإن الأمة التي تعد أبناءهـا ليكونـوا مجاهـدين، تعـدهم أيضًـا ليكونـوا ميســرين، لا يتعنتــون في طـــريقهم إلى

الجهاد بما يفسد عليهم قلوبهم، أو يعكر صفو علاقاتهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، ويَاسَر الشريك، واجتَنَب الفساد، فإن نومه ونُبْهَه أجر كله، وأما من غزا فخرًا ورياءً وسمعةً، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف»** [1].

يقول الخطابي في شرح الحديث: (ياسر الشريك: معناه الأخذ باليسر في الأمر، والسهولة فيه مع الشريك والصاحب والمعاونة لهما)[2]، فالمياسرة إحدى الأخلاق التي تجعل كل الأعمال المباحة للمجاهد مأجورة. ولفظ المياسرة يوحي بأن قابلية التيسير قائمة في كلا الطرفين المتصاحبين.

ولِمَا لشخصية الداعية الميسِّر من كبير الأثر في المدعوين، فقد حمل رسول الله ﷺ هذه الوصية للصحابيين - أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما - قبل إرسالهما

---

[1] (?) مسند أحمد 5/234، وفي صحيح سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب 25 - الحديث 2195 / 2515 (حسن).

[2] (?) معالم السنن للخطابي 3/30.

إلى اليمن: «**بشـرا ويسـرا وعلّمـا ولا تُنفِّرا - وأراه قال - وتطاوعا**» [1].

وفي ترجمة بـاب عنـد البخـاري أن النـبي (كان يحب التخفيف والتسري على النـاس) [2].

ولم يكن صلوات اللـه وسـلامه عليـه يقبـل من أصـحابه أي نـوع من الغلظـة والجفـاء والإحـراج، وإنمـا يقـول لهم كمـا جـاء في حـديث الأعـرابي الـذي بـال في المسـجد، فثـاروا عليـه، وكـادوا يعقـون بـه: (دعوه، وأهريقـوا على بولـه ذَنُوبًـا من مـاء؛ فإنمـا بعثُتم ميسـرين، ولم تبعثـوا معسـرين)[3]، والرسـول كـان أكـبر مثلٍ في التعامـل باليسر وعدم الأخذ بالشدة، وهذا ما وصفته به السيدة عائشة رضـي اللـه عنهـا بقولهـا: (مـا خُيِّـر رسـول اللـه بين أمـرين إلا أخـذ أيسرهما؛ ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كـان أبعـد النـاس منـه..) [4] وقـال عن نفسـه صلوات الله وسلامه عليه: «**.. إن اللـه لم**

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب 7 - الحديث 70 (شرح النووي 7/181).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الأدب - من ترجمة الباب 80 - (فتح الباري 10/524).

[3] (?) صـحيح البخـاري - كتـاب الأدب - بـاب 80 الحـديث 6128 (فتح الباري 10/525).

[4] (?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 80 - الحـديث 6126 (فتح الباري 10/524 - 525).

يبعثني مُعنِّتًا ولا مُتعنِّتًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا» [1].

ولقد كان رسول الله وهو في صلاته يحسب حساب من يأتمون به؛ ألا يشق عليهم، وإذا توقع الحرج ولو لواحدٍ ممن خلفه اختصر تيسيرًا ورفعا للحرج، ومن ذلك قوله: «**إني لأقومُ إلى الصلاة وأنا أريد أن أطولَ فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوزَ كراهيةَ أن أشقَّ على أمه»**[2]، وكان يغضب ممن يطيل بالناس في الصلاة، ويعتبرهم منفرين، أو فتانين.. وذلك ليتشرَّبوا منه خُلق التيسير، وهو من أهم ما يتحلى به الداعية المسلم.

وقدوتنا برسول الله تقتضي منا أن نختار الأيسر للناس، ونقبل به، وإن كان فيه تنازل عن حق من حقوقنا، فتلك المياسرة في الدنيا طريق لتحصيل التيسير والمغفرة

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الطلاق - باب 4- الحديث 29/1478.

[2] (?) صحيح سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب 127 - الحديث 708 / 789 (صحيح).

من اللــه في الآخــرة، كمــا في الحــديث: **«يُـؤتَى برجـل يـوم القيامـة فيقـول الله: انظروا في عمله، فيقـول: رب ما كنت أعمل خيرًا، غير أنه كـان لي مال، وكنت أخالط الناس؛ فمن كـان موسرًا يســـرت عليـــه، ومن كـــان معسرًا أنظرته إلى ميسرة، قال الله عز وجل: أنا أحق مَن يسَّر فغفر له.. »** [1]، لم يعمل من الخير إلا أنه كان مياسرًا للناس، مخففًـا عليهم، سـمحًا معهم، فنـال بذلك المغفـرة، والتيسـير حـبيب إلى اللـه، حبيب إلى خلق الله.

وقد ورد في شمائله أنـه: «كـان يحب مـا خف على الناس»[2]، «إن كان رسول الله ليدع العمل وهو يحب أن يعمـل بـه؛ خشـية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم»[3].

ويقول البخاري: (.. وكانت الأئمة بعد النـبي يستشــيرون الأمنــاء من أهــل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فـإذا وضـح

---

[1] (?) مسـند أحمد 5/407. وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 2079، والقصة مروية في الصحيحين.

[2] (?) مســند أحمد 6/161، ورواه الترمــذي والــبيهقي وحســنه البخاري (انظر بلوغ الأماني 15/23).

[3] (?) صـحيح البخـاري - كتـاب التهجد - بـاب 5 - الحـديث 1128 (فتح الباري 3/10).

الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداءً بالنبي ﷺ [1].

ومن الـتزم التيسـير على النـاس، ورفـع الحرج عنهم، فقد تكفل الله له بالوقاية من النـار، وبغفـران الـذنوب، كمـا في قولـه ﷺ: «**حُرِّم على النار كلُّ هيِّن ليِّن سـهل قـريب من النـاس»[2]، و«غفـر اللـه لرجلٍ كـان من قبلكم سـهلًا إذا بـاع، سـهلًا إذا اشـترى، سـهلًا إذا قضـى، سهلًا إذا اقتضى»** [3].

سـر هـذه المغفـرة أن السـهولة واليسـر طبعت تصـرفاته كلها، وطبيعـة هـذا الـدين التيسير، ومن قواعده الشرعية رفع الحرج، فما كان أيسر كان أرضى لله، يقول الإمـام الشـعبي: (إذا اختلـف عليـك أمـران فـإن أيسرهما أقربهما إلى الحق)؛ لقوله تعـالى: {**.. يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ...**} [البقـرة: 185] [4]، ولأن ديننـا

---

[1] (?) صـحيح البخـاري - كتـاب الاعتصـام - من ترجمة البـاب 28 (فتح الباري 13/339).

[2] (?) مسـند أحمد 1/415، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 3135.

[3] (?) مسـند أحمد 3/340، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 4165.

[4] (?) عن محاسن التأويل للقاسمي 3/427.

قـــائم على رفـــع العنت: **«إن الـــدين يسر»**[1].

ومن يُسر الداعية مع الناس أن يأمرهم بما يُطيقون، مثلما كان حال النبي ﷺ، ومن يُسر المفتي مع النـاس ألا يقصـد إيقـاعهم فيمـا يشـق عليهم من خلال التنقيب والمسـاءلة، وفي ذلــك يقــول ابن العــربي في أحكــام القـــرآن: (إذا جـــاء الســـائل عن مســـألة فوجـدتم لـه مخلصًـا فيهـا فلا تسـألوه عن شـــيء، وإن لم تجـــدوا لـــه مخلصًـــا فحينئذ اسـألوه عن تصـرف أحوالـه وأقوالـه ونيتـه عسى أن يكون له مخلص)[2].

وقــد وصــف ابن مســعود ﷺ جيلَ الصــحابة بأنهم تميزوا بالبعد عن التكلف، والعمل بما تيســر (.. أفضـل هـذه الأمـة: أبرهـا قلوبًـا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا)[3].

والتيسير خـير، وثمـارُه بركـة، ولـذلك أخـبر النبي ﷺ أن الخيرية والبركة في المرأة الـتي اتصــفت بـ **تيســير خطبتهــا وتيســير صداقها»**[4]، وفي روايــة: **«خـير النكـاح**

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب 29 - الحديث 39 (فتح الباري 1/93).

[2] (?) أحكام القرآن للقرطبي 4/163.

[3] (?) إغاثة اللهفان 1/159.

[4] (?) مسند أحمد 6/77 وطرفه: "إن من يمن المرأة.."، وحسـنه الألباني في صحيح الجامع/2235.

أيســــره» [1]، لكي يميــــل النــــاس إلى البســـاطة، وعـــدم المبالغـــة في المهـــور والأفـراح؛ بمـا يُرهِـق الراغـبين في العفّـة، ويســـد أبـــواب التحصـــين، ويفتح أبـــواب الانحراف.

وبعض الناس قـد يشـق على نفسـه بالأخـذ بالعزيمة؛ حيث تُباح له الرخصة، وبالمبالغـة في نوافل الطاعـات، ثم قـد ينفـرط حبلـه، وتمـلُّ نفسـه، وتفـتر همّتـه، ولا يـدوم على عملـه هـذا، ولـذلك قـال رسـول اللـه ﷺ: **«إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبـة، وخـير دينكم اليسـرة»**[2]، وفي روايـة: **«إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»** [3]، فليس خير الدين ما كـان فيـه التنطع أو الغلو أو التعنيت، وإنما هو اليســر والسهولة والسماحة.

ومن الصـور العمليـة الـتي تـبين أثـر تربيـة رسول الله ﷺ لصـحابته على خلـق التيسـير: أن ابن عبـاس ﷺ حين رأى المطـر متواصـلًا وغزيـرًا يـوم الجمعـة، خشـي على النـاس التخبط في الطين، أو الانزلاق بسببه، فقال

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود - كتـاب النكـاح - بـاب 32 - الحـديث 1859/2117 (صحيح).

[2] (?) عن فتح البـــاري 1/94 وبعضه عند أحمد 4/337 وحســـنه الألباني في صحيح الجامع/2311.

[3] (?) مسند أحمد 5/479، وقـال الهيثمي: رجاله رجـال الصـحيح (انظر بلوغ الأماني 19/15).

للمـــؤذن أن يقـــول بـــدلًا من (حي على الصلاة): (صلُّوا في بيتـوكم)، فكـأن النـاس استنكروا ذلك، واعترضـوا عليـه، فقـال ابن عباس: (فعله مَن هو خير مني، إن الجمعـة عَزْمةٌ، وإني كرهتُ أن أحـرِّجكم في الطين والدَّحض) [1]، وهذا شأن العلم والعلماء، ولا تجـد التشـديد - غالبًـا - إلا مـع الجهـل والجهال.

ولذلك قـال مَعْمَـر وسـفيان الثـوري: (إنمـا العلم أن تسـمع بالرخصـة من ثقـة، فأمَّـا التشديد فيحسنه كل أحد) [2].

والقصـــد إلى التشـــديد ليس من شـــأن النفـوس السـوية، ولا يكـون من مطـالب الشـرع ولا من مقاصـده، ولـذلك يقـول الشـاطبي: (المشـقة: ليس للمكلـف أن يقصدها.. وله أن يقصد العمـل الـذي يعظُم أجـره لعظم مشـقته من حيث هـو عمـل.. فإذا كان قصد المكلف إيقـاع المشـقة فقـد خالف قصد الشارع، من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشـقة، وكـل قصـد يخـالف قصـد الشـارع باطـل..) [3]، ونفس المعنى عبر عنه - بصورة أخـرى - العـز بن

---

[1] (?) صحيح البخـاري - كتـاب الجمعة - بـاب 14 - الحـديث 901 (فتح الباري 2/384).

[2] (?) جامع بيان العلم وفضله ص 285.

[3] (?) الموافقات2/128 - 129.

عبد السلام فقال: (لا يصح التقرب بالمشاق؛ لأن القُرب كلها تعظيم للرب سبحانه وتعالى، وليس عين المشاق تعظيمًا ولا توقيرًا) [1].

وبذلك نرى أن اختلاق القيود للناس، وافتعال العُقد، وإلزام الآخرين بالعزائم، والإثقال بالمواعظ، والإكثار من التكاليف.. فيه مجانبة لطبيعة الحنيفية السمحة، ومناقضة لما دعا إليه ديننا من التيسير، ومخالفة لما تميّزت به الشريعة الإسلامية من رفع الحرج[2]، وإنه لمن عوامل نجاح الداعية أن يجنح إلى التيسير فيما يأخذ به الناس، ثم ليأخذ نفسه بما يطيق أن يداوم عليه.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- التيسير: تنازل إلى ما هو أيسر على الناس، فيما يرضي الله.
- **من صور التيسير:**
  - مياسرة الشريك في الجهاد.
  - التيسير على المدعوين.

---

[1] (?) قواعد الأحكام 1/26.

[2] (?) من البحوث النافعة في هذا الموضوع كتاب (رفع الحرج في الشريعة الإسلامية - ضوابطه وتطبيقاته) للدكتور (صالح بن عبد الله بن حميد) من جامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. وقد استفدنا من هذا البحث كثيرًا في إعداد خُلق التيسير، فجزى الله مؤلفه خيرًا.

- التيسير على الجاهل حتى يتعلم.
- التيســـير على المـــؤتم بعـــدم التطويل.
- التنازل عن حق شخصي للتيسير.

- اللــه يحب التيســير، ورســوله كــذلك، والخلفاء من بعده.
- التيســير وقايــة من النــار، وغفــران للذنوب.
- التيســير أقــرب إلى الحــق؛ لأن اللــه يريده.
- من تيسير الداعية يســره في الفتــوى، وتكليف الناس بما يطيقون.
- من بركة المرأة يسر نكاحها وصداقها.
- التيسير وقايـة من الغلـو (وخـير دينكم اليسرة).
- تجد التعسير حيث وجد الجهل.
- تعمّد المشقة خلاف قصـد الشـرع؛ فلا يصح التقرب بالمشاق.
- تميزت الشـريعة برفـع الحـرج فلمـاذا نميل إلى التعنت.

الفصل السابع

تقديم النفع

«أَحبُّ الناس إلى الله أنفعُهم» [1]

نرى كثيرًا من الطاقات المدفونة بين جـوانح أصـحابها، ونلمس جـوانب من الخـير كامنـة في نفوس أربابهـا، ولكنهـا غـير متعديـة إلى الآخرين لا بنفع ولا إفادة. وكم تكون الصورة محزنة حين تجد فقيهًا بصحبة جاهل لم يُفِدْه

[1](?) صحيح الجامع برقم 176 (حسن).

من فقهـــه، وقارئًا برفقـــة أُميٍّ لم ينفعـــه بحسن تلاوته، وعابدًا بجوار فاسق ولم يتعــدَّ إليه شيء من صلاحه.

الدعوة نفسها نفع عـام، فحين دخـل أبـو ذر في الإسـلام كـان من حـديث رسـول الله ﷺ معـــه أن قـــال لـــه: **«فهـــل أنت مُبلّ ِغ عني قومك؛ لعل الله عـز وجـل أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم»**[1]، وكـانت التربية الأولى لحديث الـدخول في الإسـلام تربيـة على الـدعوة، والحـرص على تعـدِّي نفعه إلى الآخرين.

وكـان خـالٌ لجـابر بن عبـد اللـه يَـرقِي من العقرب، فقال: (يـا رسـول الله، إنـك نهيت عن الرقي، وإني أرقي من العقرب)، وكأنه يستأذن في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«من اسـتطاع أن ينفـع أخـاه فليفعل»**[2]، ومـع التشـديد الـوارد بشـأن السـحر، فقـد أفـتى سـعيد بن المسـيب بجـواز الاسـتعانة بسـاحر في حـل السـحر عن المصـاب بـه، وقال في ذلك: (لا بأس به، إنما يريدون بـه

---

[1] (?) صـحيح مسـلم - كتـاب الفضـائل - بـاب 28 - الحـديث 132/2473 (شرح النووي 8/260).

[2] (?) مسند أحمد 3/302، ورواه مسلم في كتـاب السـلام بـرقم 62/2199 (شرح النووي 7/436).

الإصـلاح، فأمـا مـا ينفـع فلم يُنهَ عنـه) [1]، فالأصل في المسلم أنه يسعى لنفع النـاس لا أنه يمنع النفع عنهم[2].

وتجد بعض النفوس أحيانًا تمتنع عن الإقدام على أعمـال لا تضـرها، مـع أن فيهـا نفعًـا لغيرهـا، اقتصـارًا على مصـالحها الشخصـية في حدود ذواتها واهتماماتِها، وليس هذا من شـأن المسـلم، ولـذلك عنّـف عمـر بن الخطـاب محمـد بن مَسْـلَمة لمـا منـع الضحَّاك بن خليفـة من حفـر سـاقية مـاء تصـل إلى أرضـه مـارّة بـأرض محمـد بن مسـلمة، فقـال عمـر: (لِمَ تمنـع أخـاك مـا ينفعه، وهو لك نـافع، تسـقي بـه أولاً وآخرًا، وهو لا يضـرك.. واللـه ليَمُـرَّنَّ بـه ولـو على بطنك) [3].

إن الأصل في المسلم أنه يسعى إلى تقديم الخدمـــة لمن يحتاجهـــا، والنصـــيحة لمن يجعلهـا، والمنفعـة إلى مَن هـو أهـل لهـا، بمبادرة منه وحرص من طرفـه، ورسـولُنا

---

[1] (?) صـــحيح البخـــاري - الطب - من ترجمة البـــاب 49 (الفتح 10/233).

[2] (?) هـذا الكلام في حل السـحر على إطلاقه فيه نظـر، وانظر الضـوابط في ذلك في كتـاب: (النـذير العريـان لتحـذير المرضى والمعـالجين بـالرقي والقـرآن) لفتحي بن فتحي الجنـدي وهو من منشــورت دار طيبــة. وانظر أيضًــا : (فتح المجيد شــرح كتــاب التوحيد) في باب النشرة.

[3] (?) موطأ مالك - كتاب الأقضية - باب 26 - الحديث 33.

كان يسعى إلى العباس ليقول له: "يـا عم! ألا أحبــوك؟ ألا أنفعــك؟ ألا أصــلك؟.."[1]، وعلّمه صلاة التسـبيح، وهكـذا كـان يعـرض نفسه للنفع، ويعلم الناس النفـع، وكـان من وصية رسـول اللـه لأبي بـرزة حين جـاءه يقول: يا رسول الله، علّمـني شـيئًا ينفعـني الله تبارك وتعالى به، قال لـه: **«انظر مـا يـــؤذي النــــاس فأعزلــــه عن طريقهم»**[2]، ومثـل هـذه الخـدمات تُنمِّي في نفس الداعيــة التواضــع، وتعمــق في نفسـه معـاني الخـير، وتجعـل المجتمـع من حولـه يـرى فيـه حرصًـا عمليًّا على كـل مـا يعود عليهم بنفع، أو يدافع عنهم ضررًا.

وإذا مــا تــذكّر المــؤمن نعمــة اللــه عليــه بالهداية، وذاق حلاوة الإيمان ونعيم الطاعة، فلن يبخــل بالكلمــة الطيبــة؛ ليســتنفذ بهــا أناسًـــا مـــازالوا محـــرومين ممـــا ذاق، ومحجوبين عمّا عرَف، ولـذلك ضـرب مثلًا بـالأرض الطيبـة الـتي قبلت الغيث فـأنبتت، فقال: **«فذلك مثـل من فقـه في دين الله عز وجل، ونفعـه اللـه عـز وجـل بمـــا بعثـــني بـــه، ونفـــع بـــه فعلم**

---

[1] (?) صـحيح سـنن ابن ماجه - الصـلاة - بـاب 190 - الحـديث 1138/1386 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 4/423، ورواه مسلم بلفظ مقـارب في كتـاب البر برقم 132/1914.

وعلّم..» [1]، والداعية الحـريص هـو الأرض الطيبة التي تشرَّبت الخير وجادت به.

ولم يكن رسول الله ﷺ ليتركَ فرصة ركــوب غلام - كـابن عبـاس - خلفـه دون أن يزيـده انتفاعًا بما يربِّيه ويملأ وقت الطريق، فقـال لـه: «**ألا أعلمـك كلمـات ينفعـك اللـه بهن، احفــظ اللــه يحفظــك.. »** [2]، واصـطبغ الصـحابة رضـي اللـه عنهم بهـذا الخُلُق، وكان هذا شأن أبي هريرة مـع أنس بن حكيم حيث قال له: (يا فـتى، ألا أحـدثك حديثًا لعل الله أن ينفعـك بـه؟.. إن أول مـا يُحاسب الناس به يوم القيامة من أعمـالهم الصلاة.."[3].

ونفعُ الأقربين أكثر وجوبًا وأعظم أجرًا.

قال أبو قلابـة: (وأي رجـل أعظم أجـرًا من رجــل ينفــق على عيــال صــغار؛ يُعفُّهم أو ينفعهم الله به، ويعينهم اللـه بـه ويغـنيهم!) [4]، وهذا الاهتمام بالأقارب كسبٌ لقلــوبهم، وصــلةُ رحمٍ، ورمــز وفــاء، وعنــوان محبــة،

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب 20 - الحـديث 79 (فتح الباري 1/175).

[2] (?) مسـند أحمد 1/307، وصـححه الألبـاني في صـحيح الجـامع برقم 7957.

[3] (?) مسند أحمد 2/425، واللفظ المرفـوع في صـحيح أبي داود للألباني برقم 770/864 (صحيح).

[4] (?) صحيح مسلم - كتاب الزكاة - بـاب 12 - الحـديث 38/994 (شرح النووي 4/85).

ودليــل رحمــة، خاصــة حين يكــون فيهم أطفـال صـغار، يفتقـدون الرعايـة والحنـان وأهم الحاجات البشرية.

إن أبواب النفع كثيرة، أجمَلَها رسول اللــه بقولــه: «**على كــل مســلم صــدقة**»، وضـرب لهـا بعض الأمثلـة بحسـب القـدرة: «**فيعمـــل بيديـــه، فينفـــع نفســـه ويتصـــــدق.. فيعين ذا الحاجـــــة الملهوف..** »، وإن لم يفعل المسلم شيئًا من ذلك: «**فليُمسك عن الشر فإنه لـه صدقة**»[1]، وهذه أدنى مراتب النفع التي لا ينبغي لمؤمن أن ينزل عنها، ولا يليق بداعية أن يقف عندها.

والجهاد أعلى مراتب النفع، والعزلة أدناهـا، سـأل أعـرابي: يـا رسـول اللـه! أي النـاس خير؟ قال: «**رجل جاهد بنفسه ومالـه، ورجل في شِعْب من الشِّـعاب، يعبـد ربه، ويدع الناس من شره**» [2]، فالـذي جاهد نفع النـاس بتضـحيته بروحـه، وجـوده بماله، لحمايتهم ولإرهاب عدوهم، وهذا أكبر الخير، والناس يتفـاوتون في الخـير مـا بين

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 33 - الحـديث 6022 (فتح الباري 10/447).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - بـاب 34 - الحـديث 6494 (فتح الباري 11/330).

منزلـة المجاهـد ومنزلـة المعـتزل الكـافّ لشره عن الناس.

وتعظم المسـؤولية ويثقـل العبء على من تولى أمر بضـعة من المسـلمين؛ لأنـه أقـدر على دفع الضر أو جلب النفـع بمـا أوتي من سـلطان إمـرة وحـق الطاعـة، وفي ذلـك يقول رسول الله ﷺ: **«.. فمَن ولي شـيئًا من أمـة محمـد ﷺ فاسـتطاع أن يضـرّ فيه أحدًا، أو ينفع فيه أحدًا، فليقبَـل من محسنِهم، ويتجـــــــــاوز عن مسيئهم»** [1]، بحيث يبقى أمـره يـدور بين تكريم محسـنهم، والعفـو عن مسـيئهم، أي بين تقديم نفع، أو دفع أذى؛ لأن أهل الإمرة كثيرًا ما يجورون وهم لا يشـعرون، فـإذا مـا وضـعوا نُصـب أعينهم مهمـة جلب المنفعـة ودَرْء الأذى عصموا أنفسهم من الزلل بإذن الله.

ومن الصور العملية لخلق النفع ألا تسـتبقي أرضـًا تملكهـا دون خدمـة ولا زراعـة، مـع وجود أخٍ لك عاطل عن العمـل يسـتطيع أن يسـتخرج خـير الأرض، وأن ينتفـع بهـا، وفي ذلك يقول رسـول اللـه ﷺ: **«مَن كانت لـه أرض فليزرعهـا، فـإن لم يزرعهـا**

---

[1] (?) صحيح البخـاري - كتـاب الجمعة - بـاب 29 - الحـديث 927 (فتح الباري 2/404).

فليُزرِعها أخاه» [1]، وكم لدى المسـلمين من قــدرات معطَّلــة، وثــروات مكنــوزة، وطاقـات مهـدورة، ولا نلتفت إلى التفكـير في اســتغلالها؛ فيمــا يعــود بــالنفع على المسلمين!

أفلا تجـود بعلمـك، وتتصـدق بعرقـك، وتعين بسعيك؛ لتكون دائمًا ممن جعله الله مفتاحًا للخير، مِغلاقًا للشر، وعندئذٍ بُشـراك الجنّـة كما في الحديث: **«.. فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخـير على يديـه، وويـل لمن جعـل اللـه مفـاتيح الشـر على يديه»** [2].

ولــدوام النفــع بأمثــال هــؤلاء لا بــدَّ من تعزيــزهم بالمــال والســلطان، وقــد ذكــر النســائي - عقب حــديث في كتــاب قســم الفيء - طريقــة قســمة ســهم النــبي من الغنائم بعـد وفاتـه، فقـال: (وسـهم النـبي إلى الإمام: يشتري الكراع منهم، والســلاح، ويُعطي منــه مَن رأى، ممن رأى فيــه غنــاءً ومنفعـة لأهـل الإسـلام، ومن أهـل الحـديث والعلم والفقه والقرآن) [3].

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب البيوع - باب 17 - الحديث 88 (شـرح النووي 5/454).

[2] (?) صــحيح ســنن ابن ماجه للألبــاني - المقدمة - بــاب 19 - الحديث 194/237 (حسن).

[3] (?) صـحيح سـنن النسـائي للألبـاني، من تعقيب النسـائي على الحديث 3866 من كتاب قسم الفيء.

وقـد جعـل النـبيُّ ﷺ المـؤمنَ مثلًا في دوام النفع بـه، وشبَّه النخلـة بـه لـدوام خضـرتها وإمكانية الانتفاع بكل ما فيها، فقال: «**إني لأعلم شـــجرة يُنتفـــع بهـــا مثـــل المؤمن**»[1]، والمؤمن يحرص على تقـديم خـــيره إلى النـــاس لوجـــه اللـــه، وابتغـــاء مرضاته، ولا تتحكم به مشاعر شخصــية، أو مواقف عارضة، وقد عاتب ربُّنا عز وجل أبا بكر ؓ حين حلـف ألا يُنفِـق على مِسْطَح بن أُثاثة لمشاركته في حديث الإفك (فحلف أبو بكر ألا ينفع مِسطحًا بنافعة أبدًا)، فلما نـزل قولـه تعـالى: {**وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَـاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**} [النور: 18] قـال أبـو بكر: (بلى والله، إنا لنُحب أن يغفـر لنـا)[2]، وأعاد النفقة على مسطح.

إذا كنت تحب أن يغفــر اللــه لــك، فهيَّا إلى مزيد من الدعوة والنصـح والإفـادة والنفـع، واستغلال الأوقت والطاقات.. فإنه كما قال رسـول اللـه ﷺ: «**خــيرُ النــاس أنفعهم للناس**»[3].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

---

[1] (?) مسند أحمد 2/115. كما رواه البخاري في العلم - باب 5 - الحديث 62 (الفتح 1/147).

[2] (?) مسند أحمد 6/59 - 61، وروى البخاري في صحيحه قصة حادثة الإفك برقم 4750.

[3] (?) صحيح الجامع برقم 3289 (حسن).

_ إذا لم يَقُمِ المؤمن بتقـديم النفـع لم يتعد خيره إلى غيره.

- «**مَن اســتطاع أن ينفــع أخــاه فليفعل».**

- المبادرة بتقديم النفع قبل طلبه.

- اغتنام كل الأوقات في توصيل الخير.

- أوجب النفع ما كان للأقربين.

- من لم يقدر أن ينفع، فليحرص ألا يضر.

- أعلى النفع الجهاد، وأدناه العزلة.

- يعظم النفع بعظم المسـؤولية، والضـرر كذلك.

- في النفــع اغتنــام للطاقــات المهــدرة لمصلحة مَن يحتاجها.

- يعظم النفع بتأييده بالمال والسلطان.

- من مزايـا المـؤمن: دوام خـيره وكـثرة نفعه.

- النافع خير الناس.

الباب الثالث

من أخلاقنا في الأخوة

الفصل الأول: الحب والتآخي.
الفصل الثاني: التكافل.
الفصل الثالث: الصراحة
الفصل الرابع: الألفة
الفصل الخامس: التنافس الشريف.
الفصل السادس: التعاون.

الفصل الأول

الحب والتآخي

«وكونوا عباد الله إخوانًا».

العَلاقـة بين الحب والتـآخي عَلاقـة وثيقـة، لحمتها العقيـدة، فكـل من عقـد اللـه بينـك وبينـه عقـد الأخـوة {**إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْوَةٌ....**}[الحجـرات: 10]، يسـتحق منـك مبادلتـه بلـوازم الحب في الله، وكـل من

يعاملك بالمحبة الإيمانية، يستوجب عليك حقوق الأخوَّة الإسلامية.

في مقام النهي عن بعض صور الإساءة إلى المسلم، أو الأمر ببعض صور التكافل والتعاون والتراحم، كان رسول الله يشفع توجيهاته تلك بقوله: **«.. وكونوا عباد الله إخوانًا»** [1]، ويُبيِّن القرطبي معنى الأخوة المقصود في الحديث بقوله: (اكتسبوا ما تصيرون به كإخوان النسب؛ في الشفقة والرحمة، والمواساة والمعاونة والنصيحة)[2].

والميزان الضابط لمفهوم الأخوَّة، والذي لا يتم الإيمان إلا به، ما بينه رسول الله بقوله: **«والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»** [3]، ويعلق الكرماني بقوله: (ومن الإيمان أيضًا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره؛ لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء)[4].

---

[1](?) رواه البخاري وأبو داود والترمذي ومالك (جامع الأصول 6/523 الحديث 4731).

[2](?) نقلًا عن حاشية الموطأ بتعليق فؤاد عبد الباقي ص 908 كتاب حسن الخلق الحديث 15.

[3](?) صحيح الجامع برقم 7085 (صحيح).

[4](?) فتح الباري 1/58 عند شرح الحديث 13 من كتاب الإيمان - باب 7.

ويُعرّف النووي المحبة بأنها: (الميل إلى ما يوافق المحب)[1].

ويزيد ابن حجر: (والمراد بالميل هنا الاختياري دون الطبيعي والقسري.. والمحبة إرادة ما يعتقده خيرًا)[2].

ومن القديم كان الناس يحرصون على أخوة صادق في المحبة؛ ليُؤثِروه على أنفسهم، ومما أدرجه رسول الله من العبارات المتداولة في عصره: «**اللهم أبغني حبيبًا هو أحب إلي من نفسي**»[3].

وكان الحرص على المحبة والتآخي، يدفع رجلًا مثل أبي هريرة ؛ لطلب الدعاء من رسول الله ، لنفسه ولأمة، بالمحبة المتبادلة مع المؤمنين، فدعا له رسول الله : «**اللهم حبِّب عُبَيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبِّب إليهم المؤمنين..** »[4].

والأصل في الحب أو البغض أن يكون لكل ما يحبه الله، أو يبغضه، فالله عز وجل

---

[1](?) فتح الباري 1/58.

[2](?) فتح الباري 1/58.

[3](?) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب 45 الحديث 132.

[4](?) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب 35 - الحديث 158.

يحب التوَّابين والمتطهِّرين، والمحسنين والمتقين، والصابرين والمتوكلين، والمقسطين، والمقاتلين في سبيله صفًّا، ولا يحب الظالمين والمعتدين، والمسرفين والمفسدين، والخائنين والمستكبرين.

كما أن الأصل في الحب أن يكون عامًّا لجميع المؤمنين، ويتفاوت تبعًا لصلاحهم، فلا نستطيع أن نناصب العداء لمن وقع في معاصٍ تاب منها، أو حُدّ فيها، ومازال رغم معاصيه في دائرة الإسلام، فقد نهى رسول الله عن لعن صحابي أقيم عليه حدّ الخمر - مرارًا - فقال: **«لا تلعنوه، فوالله، ما علمت أنه يحب الله ورسوله»** [1]، واستنبط منه ابن حجر (أن لا تنافي بين ارتكاب المنهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية، لا تنزع منه محبة الله ورسوله) [2].

وفي حديث آخر دعا بعض الصحابة على رجل سكران أن يخزيه الله، فكانت لفتنة النبي المفعمة بالحب والأخوة أن: **«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»** [3]، ليَلفِت أنظارهم للدعوة له بالمغفرة،

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب 5 - الحديث 6780.
[2] (?) فتح الباري 12/78 عند شرح الحديث 6780.
[3] (?) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب 5 - الحديث 6781.

والتوجُّه إليه بالنصح، بدل الدعوة عليه فيما يُفرح الشيطان، ويقوِّيه عليه.
وفي الأثر: أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبُّونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قَليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبُّوا أخاكم، واحمَدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تُبغِضه؟ قال: إنما أُبغِض عمله، فإذا تركه فهو أخي[1]، وكم من أواصر الأخوة قطعت! وكم حقنت القلوب بالعداوة والغيظ لاجتهاد خاطئ! مع أن في الأمر سَعَة للحفاظ على مودة وأخوة من وقع في المعصية، فكيف بأخوة مَن زلَّ في رأي أو انزلق في اجتهاد؟! ذلك لأن مصدر الأخوَّة ومنبع الحب مازال قائمًا فيه؛ ألا وهو إكرام عقيدة الإيمان التي يحملها، وكلمة التوحيد التي يدعو إليها، وقد جاء في الحديث: **«ما أحب عبدٌ عبدًا لله إلا أكرم ربه»** [2].
إن الله عز وجل جعل الحب في الله والبغض في الله أوثقَ عرى الإسلام، وفي رواية: **«أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب**

---

[1](?) عن حياة الصحابة 3/413.
[2](?) صحيح الجامع برقم 5516 (حسن).

في اللـــه، والبغض في اللـــه عـــز وجل»[1].

إن الإيمان لا يكمل إلا بصدق هذه العاطفة، وإخلاص هـذه الرابطـة: **«مَن أحب للـه، وأبغض لله، وأعطى للـه، ومنـع للـه، فقد استكمل الإيمـان»**[2]، ومن أراد أن يشـعر بلـذة مجاهـدة الشـيطان، وحلاوة التجرد من الأهـواء، وعظمـة معـاني الـولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، فهذا هو الطريـق: **«ثلاثٌ مَن كُنَّ فيـــه وجــــد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسـوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المـرء لا يحبه إلا لله، وأن يكـره أن يعـود في الكفر - بعد إذ أنقـذه للـه منـه - كمـا يكره أن يُلقى في النار»**[3]، وقد جعـل رســول اللـــه ﷺ المفاضـــلة بين الأخـــوين المتحابِّين، بمدى حب كل منهما لأخيه: **«ما تحابَّ اثنان في اللـه تعـالى، إلا كـان أفضـلهما أشـدهما حبًـا لصـاحبه»** [4]، وإن دخل لشـيطان بينهمـا يومًـا من الأيـام، فليراجع كل منهما قلبَه، وليحاسـب نفسـَه،

---

[1](?) صحيح الجامع برقم 2539 (صحيح).

[2](?) صحيح الجامع برقم 5965 (صحيح).

[3](?) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي (جـامع الأصـول 1/237 برقم 20).

[4](?) صحيح الجامع برقم 5594 (صحيح).

لقولـه «**مـا تـوادَّ اثنـان في اللـه فيفـرق بينهمـا إلا بـذنب يُحدِثـه أحدهما**» [1].

ومن المداخل التي يحاول الشيطان أن يلج منهـا؛ للقطيعـة بين الأخـوين: أن يوسـوس لأحدهما، بإثارة أحاسيس الغَيرة من العَلاقة مع شخص آخر، وتأويـل هـذه العَلاقـة بأنهـا لمزيد محبة تفوق ما بينهما، وقد تكـون من نوع ما ضرب له رسـول اللـه مثلًا بقولـه: «**إني لأعطي الرجـل، وغـيرُه أحب إليَّ منـه، خشـيةَ أن يُكَبَّ في النـار على وجهه**» [2]، فتألُّف قلب حـديث عهـدٍ بالهداية، قـد يحتـاج عنايـة خاصـة، ينبغي ألا تستثير الآخرين.

وقـد يعتب الأخ على أخيـه لم لا يسـتعمله، ولا يثق بقدراته ولا يؤمره ولا يكلفه؟ ويظن ذلـك من ضـعفِ محبتـه لـه مـع أن ذلـك لا علاقة لخ بجب أو بغض، وبصـراحة المـؤمن قـال رسـولِ اللـه لأبي ذر: «**يـا أبـا ذر، أراك ضعيفًا، وإني أحب لـك مـا أحب لنفسـي، لا تـأمرَّن على اثـنين، ولا توَّلين مال يتيم**» [3].

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 5603 (صحيح).

[2] (?) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي؛ (جامع الأصـول 2/684 برقم 1183).

[3] (?) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب 4 - الحديث 17.

وللـترغيب في الحب في اللـه بشـر اللـه المتحـابين بـإكرامِهم عنـد هـول الموقـف والحسـاب، بـأن يظلهم في ظـل العـرش، ومن الأصـناف السـبعة المخصـومة بهـذه المزية - كمـا في الحـديث -: «**.. ورجلان تحابَّا في اللـه، فاجتمعـا على ذلـك، وافترقا عليه.. »** [1].

ويقـول اللـه فيهم - كمـا في الحـديث القدسـي -: «**حُقَّت محبـتي للمتحـابين فيَّ، وحُقَّت محبتي للمتواصلين فيَّ، وحقت محبـتي للمتناصـحين فيَّ، وحقت محبـتي للمـتزاورين فيَّ، وحقت محبـتي للمتبـاذلين فيَّ، المتحـابون فيَّ على منـابر من نـور، يغبطهم بمكـانهم النـبيون والصديقون والشهداء»** [2].

هـذا بالإضـافة إلى البُشـرى لمن أحب الصالحين أنه سيحظى بالحشـر معهم، كمـا في الحـديث الصـحيح: «**المـرء مـع من أحب»** [3].

---

[1](?) أخرجه البخاري ومسلم والترمـذي والنسـائي ومالك (جـامع الأصول 9/564 برقم 7317).

[2](?) صحيح الجامع برقم 4321 (صحيح).

[3](?) أخرجه البخـاري ومسـلم (جـامع الأصـول 6/558 بـرقم 4787).

ولكي يكون مجتمع المسلمين متعاونًـا على الـبر، وغارسًـا لمعـاني الخـير، فقـد وردت أحـاديث كثـيرة، تحث على إعلام الأخ الـذي له في نفسك منزلة خاصة، ومحبـة متمـيزة فوق الأخوَّة العامة لجميع المؤمـنين - بأنـك تحبه، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إذا أحب أحدكم صـاحبه فليأتـه في منزلـه، فليخـبره أنه يحبه لله**»[1]، وزاد في روايـة «**فإنـه أبقى في الألفة، وأثبت في المودة**»[2].

ومن علامـات صـدق الأخوَّة وصـفاء الحب: أن تحسـب حسـاب أخيـك فيمـا تجـره إلى نفسك من نفع، أو ترغب بدفعه عن نفسـك من مكروه، وفي وصية رسـول اللـه ﷺ لأبي هريرة: «**وأحب للمسلمين والمؤمنين ما تحب لنفسك وأهـل بيتـك، وأكـره لهم مـا تكـره لنفسـك وأهـل بيتـك، تكن مؤمنًــا..** »[3]، وعندئذٍ ينطبــق على الإخــوة قــول رســول اللــه ﷺ: «**مثــل المؤمــنين في تــوادهم وتــراحمهم وتعاطفهم مثـل الجسـد، إذا اشـتكى**

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 281 (صحيح).

[2] (?) صحيح الجامع برقم 280 (حسن). عن مجاهد مرسلًا.

[3] (?) صحيح الجامع - الحديث 7833 (حسن).

منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1].

ومن الصور المفجرة لمعاني الحب تبادل العَلاقات الأخوية، والإكثار من الصلات الودية، من نوع ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**تصاحفوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»** [2]، وكم تذيب الهدية من رواسب الحقد، وكم يمحو البَدْء بالسلام من وحر الصدور؛ حيث لا تكون المصافحة مجرد تلامس للأكف، ولا إلقاء السلام مجرد ألفاظ تتحرك بها الشفاه، وإنما حيث يكون السلام بمعناه الأوسع والأعم، الذي يؤهلنا لدخول الجنة، ويحقق المحبة بيننا، وذلك ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»** [3].

ومما يعبر عن صدق الأخوة وحقيقة الألفة: ما تقدمه لأخيك من دعوات صالحات، حيث

---

[1] (?) أخرجه البخاري ومسلم (جامع الأصول 6/547 برقم 4771).

[2] (?) موطأ مالك 2/908 كتاب حسن الخلق - باب 4 - الحديث 16. قال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها.

[3] (?) صحيح الجامع برقم 7081 (صحيح).

لا يسمعك ولا يراك، وحيث لا شبهة للرياء أو المداهنة، كما في قوله ﷺ: **«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»** [1].

يقول النووي: (وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها)[2].

وللأخوة حقوقها في الدنيا: من تشميت العاطس، وعيادة المريض، وإجابة الدعوة، وإلقاء التحية، واتباع الجنازة.

كما حرَّم الشرع الهجران بين الأخوين أكثر من ثلاث، ولا يُرفع عملهما حتى يصطلحا، ولم يجعل الله للمؤمنين عقد أخوة غير أخوة الإسلام، وقد أشار النبي ﷺ إلى أنه لو اتخذ لنفسه خليلًا لكان أبا بكر ؓ ولكنه آثر أخوة الإسلام.

فقال، **«ولكن أخوة الإسلام أفضل»** [3]، فهل نؤثر عصبيات جاهلية على أخوة الإسلام؟!

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الذكر - باب 23 - الحديث 88.

[2] (?) شرح أحادث حق المسلم برواية البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي (جامع الأصول 6/527 برقم 4733).

[3] (?) من روايات عديدة للبخاري (جامع الأصول 8/589 برقم 6408).

ويستمر عقد الأخوة هـذا إلى الآخـرة؛ حيث لا يرى بعض أهل الجنة إخوانهم الذين كانوا معهم في الـدنيا، فيسـألون ربهم عـز وجـل عنهم، وقـد صـوّر النـبي ﷺ، ذلـك الموقـف بقولـه: «**فما مجادلـة أحـدكم لصـاحبه في الحق يكـون لـه في الـدنيا، أشـد مجادلــة من المؤمــنين لــربهم في إخـوانهم الـذين أدلخـوا النـار، قـال: يقولون: ربنا! إخواننـا كـانوا يصـلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا، فــأدخلتهم النــار، فيقــول: اذهبــوا فـــــأخرجوا مَن عرَفتم منهم...** »[1]، فيخرجــونهم، ثم يــأذن لهم فيخرجــون مَن كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

إن أخوة لها هذا المقام عند الله، وإن محبة لها ذلك الفضل في الـدنيا والآخـرة، لحريـة بـــالحرص عليهــا، والوفــاء بحقوقهــا، والاســتزادة منهــا: {**...رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**} [الحشر: 10].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- عقــد الأخــوة مبــني على الإيمــان، ويستوجب حقوقًا للمسلم.

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني: المقدمة - باب 9 - الحـديث 51 (صحيح).

- أخــوة الإيمــان ينبغي أن تفــوق أخــوة النسب.
- ضابط الأخوة أن تحب لأخيك الخير كمــا تحبه لنفسك.

- الأصل في الحب:

- النظر فيما يحب الله.
- عمومه لجميع المؤمنين.
- حب المؤمن وكراهية معصيته.
- المحبــة في اللــه أوثــق عــرى الإيمــان، ومصدر حلاوته.
- أفضل المتحـابين عنـد اللـه أشـدهما حبًّا لصاحبه.

- من مداخل الشيطان للتفريق بين المتحابين:

- ذنب يحدثه أحدهما.
- تدخل مشاعر الغيرة.
- الوجدُ لعدم تكليفه.

- من فضل الحب في الله:

- اســتحقاق محبتــه، والأمن في ظــل عرشه.
- ممــا يقــوي مشــاعر المحبــة الإعلام بالحب.
- المصافحة والتهادي، والـدعاء بظهـر الغيب، تقوّي الحب وتذهب الشحناء.

- ليس فـوق عقـد الأخـوة من فضـل لأي انتماء.

الفصل الثاني

التكافل

«خذ هذه، فأد بها ما عليك»

التكافل صفة شاملة لصور كثيرة من التعاون والتآزر والمشاركة في سد الثغرات، تتمثل بتقديم العون والحماية والنصرة والمواساة، إلى أن تُقضَى حاجة المضطر، ويزول هم الحزين، ويندمل جُرح المصاب.

ولا ينعـدم خلـق التكافـل إلا حينمـا تسـود الأنانية، وتفتر المشاعر الأخويـة، ويسـتغرق النـاس في همـومهم الفرديـة ومشـاغلهم الشخصية.

وقد تآزر بنو هاشـم - مسـلمهم وكـافرهم - مع رسول الله ﷺ؛ لئلا تقتله قريش، وانحازوا به إلى شِعْب أبي طالب وقاطعَتْهم العــرب وحاصـروهم في الشِّـعب وكتبـوا صـحيفة المقاطعــة وعلقوهــا في الكعبــة، إلى أن اندفع بعض رجال قريش لاسـتنكار الحصـار المضروب على بـني هاشـم في شِعْب أبي طالب بدافع خُلق التكافـل - رغم جـاهليتهم - ولم يطمئنــوا حــتى نقضــوا الصــحيفة الظالمة التي قضت بهذه المقاطعة[1].

وفي واقعنــا كثــيرٌ من صــور تكافــل أهــل الباطـل فيمـا بينهم، وبعض صـور تعـاطفهم

---

[1](?) قصة حصار بني هاشم في شعب أبي طـالب رواها أصـحاب السير والمغازي (انظر السيرة النبوية الصحيحة 1/181 - 183).

مع المسلمين، بدوافع إنسانية أو قومية أو سياسية، فهل يكون ذلك حافزًا إضافيًّا للتكافل مع أخيك المسلم وأنت به أولى؟

كما أن السيدة خديجة رضي الله عنها لما أرادت أن تُخفِّف عن النبي تخوُّفه من نزول الوحي اتخذت من صفة التكافل التي اشتهر بها قبل النبوة دليلًا عقليًّا على أن الله لا يخزيه فقالت: (كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعِين على نوائب الحق) [1].

والمهاجر من أحوج الناس إلى أنصار يتكافلون معه، لغربته وفقره وانقطاعه، وقد ضرب أنصار رسول الله أكبرَ الأمثلة في التكافل مع إخوانهم المهاجرين، وكان منها أن أشاروا على رسول الله بأن يقسم النخل، بينهم وبين المهاجرين، فقال: لا، فقال الأنصار: (تكفونا المؤونة، ونشرككم في الثمرة)[2]، وبذلك عمل بعض المهاجرين في بساتين الأنصار، وقاسموهم الثمار، وحُلّت مشكلة البطالة والفقر، وكان

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - باب 3 - الحديث 3 - (الفتح 1/22).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الشروط - باب 5 - الحديث 2719 (الفتح 5/322).

من صـور تكـافلهم أن المهـاجر كـان يـرث أخاه الأنصاري دون ذوي رحمه)[1].

للأخوة التي آخى رسول الله بينهما، وكـانت مرحلة استصفت النفـوس، وأخلصـتها للـه، ثم نُسخ ذلك. وهذا التكافل لا يـبرز بأسـمى صـوره، إلا كلمـا تعمقت معـاني الأخـوة والإيثار، واندثرت جذور الأنانية والاستئثار.

ومما يمكن أن يتميز بـه مجتمـع المسـلمين من صور التكافـل: إعانـة المَـدِين (الغـارم) بسداد دَيْنه، حتى إن رسول اللـه لمـا فتح اللـه عليـه الفتـوح، واسـتغنى بيت مـال المسلمين، قـال: «**أنا أولى بـالمؤمنين من أنفسـهم، فمن تُـوفِّي من المؤمـنين، فـترك دَينًـا، فعليَّ قضـاؤه.**» [2]، ومسـاعدة الرقيـق في تحصيل حريتـه، ومن ذلـك أن بَريـرة رضـي الله عنها جاءت تستعين بعائشة رضي اللـه عنها، في التحرُّر من رقِّها، فكان من تكافل عائشة معها أن قالت لها: (إن شاء مواليـك صببت لهم ثمنك صـبة واحـدة، وأعتقتـك..) [3].

---

[1] (?) صـحيح البخـاري - كتـاب التفسـير - سـورة 4 - بـاب 7 - الحديث 4580/عن ابن عباس (الفتح 8/247).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب النفقات - باب 15 - الحديث 5371 (الفتح 9/515).

[3] (?) مسند أحمد 6/135 - كما رواه البخاري في كتاب الشروط - باب 3 - الحديث 2717.

ومن صـور التكافـل الشـرعية التكافـل مـع القاتل في دفـع دِيَـة المقتـول، حيث تكلـف عصــبته وعشــريته الأقربــون الموســرون بتحمل دِيَة المقتول، مواساة وإعانة للقاتـل خطأً، الـذي قـد تـأتي الديـة على كـل مالـه فترهقه، ولو عجزت عصـبته، أو لم يكن لـه عصبة، دُفعت الدية من بيت المال[1].

ومن أشد الصور: استنقاذ الأخ الأسـير بكـل غالٍ وثمين، وقد روي أن سـلمة بن الأكـوع غزاً (هوازن) مع أبي بكر، فنفلـه جاريـة من بني فزارة من أجمل العرب، فلقيه النـبي في المدينة، فقال له: «**لله أبـوك، هبهـا لي**» فوهبهـا لـه، ففـادى بهـا أسـارى من أسـارى المسـلمين كـانوا بمكـة)[2]، لا شـك أنها من أرقى صور الإيثار والتجرد.

ويروي أبو هريرة أنه أتى خَيْبر مع رهط من قومه، وقد فُتِحت خَيْبر على النبي ، (فكلَّم رسـول اللـه المسـلمين، فأشـركونا في سهامهم)[3].

1(?) يراجع تفصـيل ذلك في بـاب العاقلة من كتـاب الـديات في كتب الفقه.

2(?) صحيح سنن ابن ماجه - كتاب الجهـاد - بـاب 32 - الحـديث 2297 (حسن).

3(?) مسند أحمد 2/345 - وسنده جيد (بلوغ الأماني 22/126).

إذا لم تكن النفـــوس تطيب بمثـــل هـــذا، فســـوف تفتقـــدها في ميـــادين التضـــحية، وسوف لا تجدها عند الهَيْعة ومظانِّ الموت. ونُقِل عن عمر أيضًا قوله في الأسرى: (لأن أستنقذ رجلًا من المسلمين من أيدي الكفار أحبُّ إليَّ من جزيرة العرب) [1].

وحين يفرز الجهاد أرامل وأيتامًـا ومُعـوَّقين، فليس من الوفـاء تغـافلهم، بعـد أن قـدم أولياؤهم الروح في سبيل الله، ولذلك اعتبر رسول اللـه ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**» [2]، بل وعد رسول الله ﷺ كافـل اليـتيم بـأن يكـون رفيقـه في الجنة[3]، وكـذلك التكافـل مع مَن أوذي في الله، أو أصـيب في سـبيل الله، وإن الواقع العملي لمجتمع المسـلمين الأول، ليمثـل أسـمى صـور التكافـل، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل عليه رجـل أصيب في وجهـه في غـزوة فـأمر بإعطائـه ألـف درهم، وكـل سـاعة يزيـده ألفًـا، حـتى استحيا الرجل فخرج، فقال عمر: (أما والله

[1] (?) حيـاة الصـحابة 2/408 حيث عـزاه إلى ابن أبي شـيبة - كما في الكنز-.

[2] (?) صحيح البخـاري - كتـاب النفقـات - بـاب 1- الحـديث 5353 (الفتح 9/497).

[3] (?) إشارة إلى حديث البخاري - في كتـاب الطلاق - بـاب 25 - الحديث 5304 (الفتح 9/439).

لو أنه مكث، مازلت أعطيه - ما بقي من المال درهم - رجل ضُرب ضربة في سبيل الله، خضَّرت وجهه)[1]، وهكذا يكون الوفاء لذوي سابقة الخير.

ولا ننسى أن نشير إلى التكافل النفسي فإن رسول الله عبر عنه بالإجمال فقال: **«مَن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»** [2].

وقد بلغ من تكافل النبي ؛ أنه كان يتفقد صحابته الذين لا يراهم، ويسأل عن مشاكلهم، وأمثلة ذلك في السنة كثيرة، أختار منها ما ورد في قصة إسلام سلمان الفارسي ، وفي آخرها أنه جاءت النبي من بعض المغازي مثل بيضة الدجاجة من ذهب، فتذكر سلمان، وأنه بقي عليه مال ليُعتق نفسه، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فأرسل إليه واستدعاه، فلما جاء قال له: (خذ هذه. فأدّ بها ما عليك يا سلمان) [3]، قال سلمان: (فأوفيتهم حقهم

---

[1] (?) حياة الصحابة 2/222 حيث عزاه إلى أبي نعيم في الحلية 3/355.

[2] (?) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي (جامع الأصول 6/562 - الحديث 4793).

[3] (?) مسند أحمد 5/441 - 444. قال الحافظ في الإصابة: رويت قصة سلمان من طرق كثيرة أصحها ما أخرجه أحمد... (بلوغ الأماني 22/265 - 266).

وعُتقت فشهدت مع رسول الله الخندق ثم لم يَفُتْني معه مشهد)، وكم يكتسب الداعية قلوب المدعُوِّين حين يرون أنه يفكر بهم، ويسعى في أمرهم، ويهيئ الخير لهم!

ومن التكافل الشعوري: تفقُّد حال الأخ، والاطمئنان على ظروفه، وتطييب خاطره، فقد ورد أن ثابت بن قيس بن الشماس لَمَّا نزلت الآية: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**} [الحجرات: 2]. قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ، حبِط عملي وأنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينًا، فتفقده رسول الله ، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقدك رسول الله ، مالك؟ وأخبروه أن رسول الله قال: لا، بل هو من أهل الجنة)[1]، وهكذا يشعر كل فرد بقيمته وكل مدعوٍّ بمنزلته في نفس مربِّيه.

ومن أسمى الأخلاق: أن يُقابَل التكافل بعفَّة نفس المحتاج؛ كما فعل عبدالرحمن بن عوف؛ حين رفض تقاسم المال والزوجتين

---

[1](?) مسند أحمد 3/137. والآية من سورة الحجرات/2.

مع الأنصاري، وقال له: (بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟)[1]، وطلب أن يدُلَّه على السوق ليعمل بيديه، ويعتمد على نفسه، بل كانت ظاهرة عامَّة بعد خيبر، لما استغنى المهاجرون؛ إذ ردُّوا إلى الأنصار ما كانوا أكرموهم به، فقد ورد أنه: (لما فرغ من قتال أهل خيبر، فانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من ثمارهم..) [2].

وإن مجتمعًا يشيع فيه التكافل، لهو المجتمع المتماسك الذي يستطيع أن يجاهد في سبيل الله صفًّا، كأنه بنيان مرصوص، بينما تجد مجتمع الأنانية والبخل متصدعًا من الداخل، تأكله العداوات والأحقاد قبل حراب الأعداء، فأي المجتمعين نختار لأنفسنا؟ وبأي الأخلاق نتحلَّى؟

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- لا ينعدم التكافل إلا حين تسُود الأنانية.
- غير المسلمين يتكافلون فيما بينهم، وأحيانًا يتكافلون مع المسلمين!

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب مناقب الأنصار - باب 3 - الحديثان 3780/3781 (الفتح 7/112).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الهبة - باب 35 - الحديث 2630 (الفتح 5/242).

- المشـهود لـه بالتكافـل مـع النـاس لا يخزيه الله.
- من أنصـع صـور التكافـل مـا كـان بين المهاجرين والأنصار.
- **من الصور الـتي تقتضـي مزيـدًا من التكافل:**
  - إعانة الغارم.
  - تحرير الرقيق.
  - دية المقتول.
  - استنقاذ الأسير.
  - إعانة الأرامل والأيتام والمعوقين.
  - الوقوف مع من أصيب في الله.
- **من التكافل النفسي:**
  - تفقـــد حـــال الإخـــوة لقضـــاء حوائجهم.
  - مراعـــاة مشـــاعرهم وإزالـــة أحزانهم.
- التكافل عظيم، وأعظم منه التعفف.
- مجتمع التكافل مرصوص.

الفصل الثالث

الصراحة

«لا خير فيكم إذا لم تقولوها».

هل من لوازم الصراحة سوء الأدب، وإثـارة الفتن، والتشـهير بـالعيوب، والتطـاول، أم هي النصـيحة الصـادقة، والنقـد البنـاء، والجرأة الأدبية؟

(الصراحة): في اللغـة: الوضـوح والخلـوص من الالتواء، ويُعرّفها صاحب كتـاب (الخلـق الكامل) اصطلاحًا بأنها: (إظهار الشخص ما تنطـوي عليـه نفسـه، من غـير تحريف ولا مواربة؛ بحيث تكون أفكـاره واضـحة جليـة، وبحيث توافق أفعاله أقواله) [1].

وكثيرًا ما يستنكر النـاس صـراحةَ الصـريح، داعين إلى المـداراة، الـتي سـاقت كثـيرين من الناس إلى المداهنة، ولَمَّا أفرط النـاس في المـداراة، كـان لا بـدَّ من تـذكيرهم بالصـراحة، وبحقيقـة المـداراة، ومواطنهـا الشرعية.

جاء في الفتح في شرح (باب المـداراة مـع النـاس): (قـال ابن بطـال: المـداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلـك من أقـوى أسـباب الألفة، والمداهنـة محرمـة، وفسـرها العلمـاء بأنهـا معاشـرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه، من غير

---

[1](?) الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى 3/464.

إنكار عليه، والمـداراة هي الرفـق بالجاهـل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألفه)[1].

تـرون أن المـداراة بهـذا المعـنى: صـراحة برفق حيث ينبغي الرفق.

ومـا رُوي عن رسـول اللـه ﷺ أنـه دارى، إلا الفاسق ذا الفحش الـذي يُخشـى شـرُّه، أو حديث العهد بالإسلام ضعيف الإيمان، وفيما عـدا ذلـك كـان يصـرح بلسـانه، ويُعرَف الاسـتنكار في وجهـه، وتلكم هي صـراحة المـؤمن مـع من يـرى أنهم إخـوة لـه في الإيمان، مهما تكن منزلته.

لما ظهر للصـحابة أن رسـول اللـه ﷺ نسـي فصلى ركعتين بـدل أربع، قـال ذو اليـدين - بكل أدب -: يا نبي الله أنسيت أم قُصـرت؟ فقـال ﷺ: **«لم أنسَ ولم تُقصر»**، عندئذ أجاب الصحابة - بكل صراحة - «بل نسـيت يا رسول الله» [2] ولم يُعنِّفهم، ولم يغضـب لصـراحتهم، ولم يـداور عليهم، وتعلمـوا سجود السهو، كما تعلموا احتمال الصراحة.

ومن صراحة الصحابة رضي اللـه عنهم: مـا ورد في حديث الصلاة على عبد الله بن أبي

---

[1] (?) فتح الباري 10/528.

[2] (?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 45 - الحـديث 6051 (الفتح 10/468).

كبـير المنـافقين، وكـان من أبرزهـا موقـف عمر ، حين استنكر على رسول اللـه أن يصـــلي على رأس المنـــافقين، يقـــول: (تحوَّلت، حـتى قمت في صـدره، فقلت: يـا رسول الله! أعلى عدو الله؟! ورسول اللـه يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه، قال: «**أخِّـر عـني يـا عمر**»)، وذلـك قبـل نهيـه عن الصلاة على المنافقين، ولرجائـه بـأن يغفـر اللـه لهم إن اسـتغفر لهم فـوق السـبعين - ويقول عمر في آخر الحديث: (فعجبت بعـدُ من جرأتي على رسول الله) [1].

وكــل مــا في نفوســهم من إجلال وهيبــة لرسـول اللـه ، لم يمنعهم من المصـارحة، وكل ما لرسول الله من منزلة عند ربـه، لم يدفعه إلى منـع الاعـتراض، أو التسـاؤل، أو الاستفسار الناشئ عن صراحة وصدق.

فلا يحــزننَّ أصـحاب الوجاهــة من صــراحة أتبـاعهم، ولا يسـتاءنَّ المـؤمن الداعيـة من وضوح إخوانه، فإن رسول الله على رفعة قدره، ووجوب طاعته، كان يقابل الصــرحاء بالتبسم، وبالكلمة الطيبة.

وفي قصــة بيعــة العقبــة أن أبــا الهيثم بن التَّيِّهـــان ، أراد أن يســـتوثق ويتثبت من مستقبل هذه البيعة، فقال - بصراحة -: (يـا

---

[1] (?) مسـند أحمد 1/16 - واللفظ له - وهو عند البخـاري بـرقم 4671 (الفتح 8/333).

رسول اللـه.، إن بيننـا وبين الرجـال حبـالاً - يعني اليهود - وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنـا ذلـك، ثم أظهـرك اللـه، أن ترجـع إلى قومك، وتدعنا؟)، لم ينفعل رسول اللــه ولم يغضــب ولم يقـل كمـا يقـول الكثـيرون: ألا تثقون بنا؟ أين الجندية؟ أين الثقة بالقيادة؟!

بل (تبسم رسول الله ثم قال: «**بل الدَّم الدَّم، والهدم الهـدم، أنـا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[1]، بهـذه التربيـة تعلَّم الصـحابة أن ينطقــوا بالصــراحة، وأن يقبلوهــا ممن يصارحهم.

وحين قــام رجــل يــأمر عمــر بــالتقوى، اعــترض بعض الحاضــرين، فقــال عمــر: (دعوه فليقلها، لا خير فيكم إذا لم تقولوهـا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها)[2].

إن الصــراحة تــدعو صــاحبها للاعــتراف بضـعفه، والـتراجع عن خطئه، ومن الأمثلـة المعاصــرة مــا ذكــره الــدكتور مصــطفى السباعي رحمه الله -: (لقد مرَّت بنا فترات كانت فيها أعصاب الشباب تدفعنا إلى اتهام خصومنا في الرأي، فاللّهم نشهدك أنا رأينـا بأعيننا خطأ ما فعلنا ولمسنا بأيدينا نتيجة ما

---

[1] (?) مسند أحمد 3/462 وذكره ابن إسحاق - ورجاله كلهم ثقات - (بلوغ الأماني 20/274)

[2] (?) عن كتاب (أخلاقنا الاجتماعية) ص53.

أفرطنا)[1]، وتلك الصراحة ترفع صاحبها في نظر الناس وتزيدهم ثقة به.

ويجب أن نكــون عونًــا للنــاس على أن يصارحوا، فلا نشدد النكير عليهم إن أظهروا من أنفسهم ضعفًا، ففي قصة المـرأة الـتي جاءت تصارح رسول اللـه ، طالبـة الطلاق من زوجها - مدعية عدم قدرته على القيـام بحقها - قائلة: (مـا معـه يـا رسـول اللـه إلا مثل هذه الهُدْبة - لهُدْبة أخذتها من جلبابها - ومـا يزيـد رسـول اللـه على التبسـم)[2]، فاحترم صراحتها، وقضـى قضـاءه بصـراحة أيضًا.

ومن صور الصراحة الصادقة: موقف بشــير بن الخصاصـية ، حين جـاء يعاهـد رسـول الله على أعمال من الإسلام، فوافق على كـل شـيء إلا الزكـاة والجهـاد، وكـان من قوله: (أما الجهاد: فإني رجل جبان، وأخاف إن حضر القتـال، أن أخشـع بنفسـي فـأفر، فأبوء بغضـب من اللـه)، فلمـا قـال رسـول الله : **«يـا بشـير، لا صـدقة ولا جهـاد فبم إذًا تـدخل الجنـة؟»** [3]، بايعـه على

---

[1](?) أخلاقنا الاجتماعية - ص65.

[2](?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 68 - الحـديث 6084 (الفتح 10/502).

[3](?) عن حيـاة الصـحابة 1/240 - 241: وأخرجه أحمد 5/224، ورجاله موثقون - كما قال الهيثمي-.

كـل شـيء، ولم يُعلِّـق رسـول اللـه على صراحته تلـك، ووصـفه نفسـه بـالجبن، بمـا يجرحه أو يؤذيه.

كم تخســر من الأصــحاب بســبب عــدم الوضوح والصراحة!

يقول علي : (لا تقطـع أخـاك عن ارتيـاب، ولا تهجره دون استعتاب)[1]؛ إذ ربما تقطعه بلا مصارحة بسبب الريبـة، فتحسـب الـوهم حقيقــة، وقــد تهجــره بلا عتــاب، فتتصــور الوساوس أمرًا واقعًا.

والصحابة بايعوا على قـول الحـق وإن كـان مُرًّا، وعلى ألا تأخـذهم في اللـه لومـة لائم، وأن يقولوا بالحق حيثما كانوا؟ وعلى النصح لكل مسلم، ومع كـل ذلـك فلمـاذا لا نرتـاح للصراحة؟!

ألا يتوقع الذين يكرهون الصراحة أن النـاس يمكنهم أن يداروهم في الظاهر، ويمقتـوهم في البـاطن، كمـا قـال أبـو الـدرداء: (إنـا لنَكْشــِرُ في وجــوه أقــوام، وإن قلوبنــا لتلعنهم)[2]، وعندئذٍ أيهما أحب إلى العاقـل، صديق صـادق صـريح، أم منـافق في كيـل المديح فصيح؟

---

[1] (?) الخلق الكامل 4/248.

[2] (?) من معلقـات البخـاري في ترجمة بـاب 82 من كتـاب الأدب (الفتح 10/527).

من تربيـــة القـــرآن على الصـــراحة، وعلى حسن قبولهـا، أدب الاسـتئذان الـذي علمنـا اللــه إيــاه، بقولــه: {**...وَإِن قِيــلَ لَكُمُ ارْجِعُـوا فَـارْجِعُوا هُـوَ أَزْكَى لَكُمْ...**} [النور: 28]، الرجوع أزكى للمزور لئلا يؤخذ بالحياء وهو كـارهٌ، وأزكى للزائـر لئلا يكـون ثقيـل الظـل على الآخـرين. فـإن عـدمت الصـــراحة، وغلبت المجـــاملات، فقـــدت الزيارات غايتها، وحُرمت القلوب تزكيتها.

وقـد كـانت (الصـراحة بالنصـيحة) مطلبًـا يسـعى إليـه الأمـراء، وذكـرى يبـادر إليهـا العلمــاء، روي أن عمــر ، ذكــرت عنــده امرأة حامل - قد غاب زوجها - بسوء، وأنــه كــان يــدخل عليهــا الرجــال، فبعث إليهــا فقالت: (يا ويلها، ما لها ولعمر)، فبينمـا هي في الطريق ضربها الطلق لخوفها من عمـر فـألقت ولدًا، فصـاح الصـبي صـيحتين، ثم مـات، فاستشــار عمــر أصــحاب النــبي ، فأشار بعضـهم أن ليس عليـك شـيء، إنمـا أنت والٍ ومؤدِّب، وصَمَت عليٌّ، فأقبل عليه عمر، فقال: ما تقول يا أبا الحسـن؟ فقـال: إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطـأ رأيهم، وإن كانوا قالوا في هواك، فلم ينصـحوا لـك، إن

دِيَتَـه عليـك؛ لأنـك أفزعتَهـا فألقته، وضـمن عمر دية الجنين[1].

بهـذه الصـراحة كـانت الحقـوق لا تُغمـط، وكان أصحاب الحقـوق لا يتَتَعْتَعُّون في نيـل حقوقهم.

والمؤمن صريح، لا يعرف النفاق والتحايـل، لذلك فإنـه يتعامـل بوجـه واحـد، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ في المذبذَبين والمتملقين: **«تجد من شرار النـاس يـوم القيامـة عنـد اللـه ذا الـوجهين، الـذي يـأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»** [2].

وفي بيان ذي الوجهين قال في الفتح: (قال النـووي: هـو الـذي يـأتي كـل طائفـة بمـا يرضـيها، فيظهـر لهـا أنـه منهـا، ومخـالف لضدها، وصنيعه نفاق، ومحض كذب وخداع، وتحيُّل على الاطِّلاع على أسرار الطائفتين، وهي مداهنة محرمة، قـال: فأمَّا مَن يقصـد بذلك الإصلاح بين الطـائفتين فهـو محمـود، وقال غيره: المحمود أن يـأتي لكـل طائفـة بكلام فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة

---

[1] (?) عن المغني 12/35، 101 ط القاهرة 1990 - والقصة في مصنف عبد الرازق (كتاب العقول - باب من أفزعه السلطان).

[2] (?) صحيح البخاري - كتـاب الأدب - بـاب 52 - الحـديث 6058 (الفتح 10/474).

عن الأخــرى، وينقــل إليــه مــا أمكنــه من الجميل، ويستر القبيح) [1].

ولعلم الإنسان بضعف نفسه، فإن كثيرًا من المواقف تقتضي منه الصراحة، تجنبًا لسـوء تصرف قد يصدر منه، أو من غـيره، ولـذلك قال الصحابي الجليل عبد الله بن عبـد اللـه بن أُبَيٍّ: (يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريـد قتل عبد الله بن أبيٍّ فيما بلغـك عنـه، فـإن كنت فاعلًا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقـد علمت الخزرج مـا كـان لهـا من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تـأمر به غـيري فيقتلـه، فلا تـدعني نفسـي أنظـر إلى قاتــل عبــد اللــه بن أبي يمشــي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًـا بكـافر فأدخـل النــار)، بهــذه الصــراحة، وبهــذا الوضــوح، احتاط لنفسه، فكان جـواب رسـول اللـه ﷺ: **«بل نـترفق بـه ونحسـن صـحبته مـا بقي معنا»** [2]. وهكذا نرى أن التربية على الولاء للحق وحده، تُنشِئ رجـالًا صـرحاء، لا يعرفـون الـتزييف والالتـواء، ويبقى سـؤال: همـوم أمـة الإسـلام وآمالهـا، هـل يحملهـا

---

[1] (?) فتح الباري 10/475.

[2] (?) سـيرة ابن هشـام 3/305 - وقد وردت بعض تفاصـيل هـذا الموقف في روايـات بعضـها بسـند رجاله ثقـات، وأخـرى بسـند رجاله رجال الصـحيح - وأصـله في الصـحيحين - (السـيرة النبوية الصحيحة 2/410).

ويـؤدي حقهـا الخـراف الوديعـة، أم الأسـود الجريئة؟ فلنكن صرحاء.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- إفـراط النـاس في المـداراة انقلب إلى المداهنة.

- الفرق الدقيق بين المداراة والمداهنة.

- من صـراحة الصـحابة مـع رسـول الله ﷺ:

- أقصرت الصلاة أم نسيت؟

- يا رسول الله أَعَلَى عدو الله.

- حسبنا كتاب الله.

- تربية الصـحابة على الصـراحة جعلتهم لا يرون خيرًا فيمن لا يصارح.

- الصراحة في الاعتراف بالخطأ ترفـع من قدر الصريح.

- لكي نعين الناس على الصراحة فلنقابـل صراحتهم بالرفق.

- الصراحة عند البيعة ضرورية لمـا يـترتب عليها من مسؤولية.

- الصـــراحة بين الإخـــوة تقطـــع دواعي الهجران.

- الصراحة أزكى لكلا الطرفين.
- الصيحة الصادقة لا تصدر إلا عن صريح.
- ذو الوجهين يفر من الصـراحة فيقـع في النفاق.
- الصراحة وضوح مع النفس ومع الناس.

الفصل الرابع

الألفة

«.. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

أن تكون متَّصِفًا بخلق الألفة أمرٌ يقتضي منك من سَعَة الصدر ما تحب به الناس، ومن حسن الخلق ما يجعل الناس يحبُّونك، فتكون بذلك سببًا من أسباب اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، وترابط القلوب، وعندئذٍ تكون بحق أليفًا ومألوفًا.

ربط رسول الله خلق (الألفة) بالإيمان، فقال: (المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمَن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس) [1]، ولذلك فإن عدم الألفة من صفات المنافقين كما جاء في الحديث: (إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلَفون) [2].

إن الاجتماع على الحب في الله، وائتلاف القلوب على الطاعة، وخلوصها من نوازع الجاهلية، لنعمة كبيرة تستحق لفت الأنظار إليها؛ للمحافظة عليها، وعدم التفريط فيها، فقد قال تعالى: {**...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ**

---

[1] (?) سلسلة الأحاديث الصحيحة - الحديث 426 (حسن).

[2] (?) مسند أحمد 2/293 - في سنده عبد الملك بن قدامة الجحي: وثقه ابن معين وغيره، وضعفه الدارقطني وغيره (حاشية جمع الفوائد 2/403).

قُلُــوبِكُمْ فَأَصْــبَحْتُم بِنِعْمَتِــهِ...} [آل عمران: 103].
ويشير القرطبي إلى لفتةٍ طيبة حول مطلع الآية: {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...**} [آل عمــران: 103]، فيقــول: (وليس فيه دليـل على تحـريمِ الاختلاف في الفروع، فإن ذلـك ليس اختلافًا؛ إذ الاختلاف مـا يتعـذر معــه الائتلاف والجمع، ومـازالت الصحابة يختلفون في أحكام الحــوادث وهم مــع ذلــك متــآلفون)[1]، فلا يظن أحــدنا أن الإصــرار على إثبــات قــول راجح أولى من الحرص على دوام الألفة، ويُؤكِّد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليـه قلـوبكم فـإذا اختلفتم فيه فقوموا**»[2]، سواء كان الاختلاف في فهم معنــاه أو طريقــة أدائه، فالقيــام من مجلس الخلاف هو اللائق بالمؤمنين.
ولقد كان من أكبر نعم الله في بعثة رسول اللــه ﷺ: أن ألَّــف بــه بين قــوم قَـويت بينهم العصــبيات، ولــذلك قــال في خطبتــه في الأنصار بعد حـنين: «**يا معشـر الأنصـار، ألم أجـدكم ضُلاَّلًا فهـداكم اللـه بي،**

---

[1] (?) الجامع لأحكام القرآن 4/159.
[2] (?) أخرجه البخاري ومسلم (جـامع الأصـول 2/470 - الحـديث 932).

وعالةً فأغنـاكم اللـه بي، ومتفرِّقين فألّفكم الله بي» [1].
وهكذا شأن المسـلم يؤلـف بين المتفـرقين ويأتلف حوله المحبون.
قد تستطيع أن تجمع النـاس حولـك بعَـرَضٍ من الـدنيا، ولكنـك لا تسـتطيع أن تجعلهم لُحمةً واحـدة وجسـدًا متماسـكًا إلا بتوفيـق من الله يسكب الألفة في القلوب فيجمعهـا على هـدف واحد، {**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ لَـوْ أَنفَقْتَ مَـا فِي الأَرْضِ جَمِيعًـا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُـــوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ...**} [الأنفال: 63].
ويـرى صـاحب الظلال صـورةً من الإعجـاز في التأليف بين قلوب الجيـل الأول: (ولقـد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليهـا إلا اللـه، والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة، فاستحالت هذه القلوب النافرة وهذه الطباع الشموس إلى هذه الكتلة المتراصة المتآخيـة، الذَّلول بعضـــها لبعض، المحب بعضـــها لبعض، المتـآلف بعضـها مـع بعض، بهـذا المسـتوى الذي لم يعرفه التاريخ) [2].
وصاحب الألفة بما يناله من رضا اللـه وحب ملائكته، «**يوضـــع لـــه القبـــول في**

---
[1] (?) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب 56 - الحديث 4330 (الفتح 8/47).
[2] (?) في ظلال القرآن 3/1548.

الأرض» [1]، وقد قيـل في شـرح الحـديث: (المراد بالقبول الحب في قلوب أهل الدين والخير له، والرضا به، واسـتطابة ذكـره في حال غيبته كما أجرى اللـه عادتـه بـذلك في حـــق الصـــالحين من ســـلف هـــذه الأمـــة ومشاهير الأئمة) [2].

ولا تعــــارض بين تــــألف النــــاس وبين المحافظة على الهيبة والاحترام، إذا أحسن المســـلم التصــرف ووازن بين المواقـــف؛ ولـذلك نجـد في وصـف رسـول اللـه ﷺ (مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطـه معرفـة أحبـه) [3].

وخيـار النـاس في نظـر الشـرع هم الـذين يألفون ويؤلفون، وخاصـة حين يكونـون في منصـب أو مسـؤولية؛ إذ قـد يَنْزَلقـون إلى صـــور من الغلظـــة والجفـــوة حين يكونـــون مطلوبين لا طالبين.

ولـذلك يقـول ﷺ: **«خيـار أئمتكم الـذين تحبونهم ويحبـونكم، وتُصلُّون عليهم ويُصلُّون عليكم، وشــــــرار أئمتكم الــــذين تُبغِضــــونهم ويُبغِضــــونكم،**

---

[1] (?) صحيح البخاري: كتاب بـدء الخلق - بـاب6، صـحيح مسـلم: كتاب البر 157.

[2] (?) دليل الفالحين 2/269.

[3] (?) رواه الترمذي في المناقب برقم 3641 و3642 وهو حديث حسن (جامع الأصول 11/225 برقم 8784).

وتلعَنونهم ويلعنـونكم» (1)، وفي روايــة لأحمد: «**خياركم وخيـار أئمتكم الـذين تحبونهم ويحبونكم.. »** (2).

وللألفــة أســباب تقويهــا، وصــفات تنميهــا، ومنها حسن التعارف بالخلطـة والمعاشـرة، كما أن مشاعر الانقباض وعدم الارتيـاح قـد تنشأ من الانكماش عن النـاس والفتـور في معالمتهم، وربما كان هـذا مـا أراده رسـول الله بقوله: «**الأرواح جنود مجندة فما تعــارف ائتلــف، ومــا تنــاكر منهــا اختلف»** (3).

كما أن إشاعة البسمة وإفشـاء السـلام من عوامل قوة الألفـة وزيـادة المحبـة كمـا في الحـــديث: «**أَوَلا أدلكم على شـــيء إذا فعلتمــوه تحــاببتم، أفشــوا السـلام بينكم»** (4).

وفي التعفُّف عمـا في أيـدي النـاس كسـب لقلوبهم وضمان لخلــوص محبتهم «**وأزهد فيما أيدي الناس يحبك الناس»** (5).

---

[1] (?) رواه مسـلم في الإمـارة بـاب خيـار الأئمة وشـرارهم بـرقم 1855 (جامع الأصول 4/66 برقم 2048).

[2] (?) مسند أحمد 6/28.

[3] (?) صـحيح البخـاري - الأنبيـاء بـاب 2 - الحـديث 4330 (فتح الباري 8/47) ورواه مسلم برقم 1061.

[4] (?) صحيح مسلم - الإيمان باب 22 - الحديث 54.

[5] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني برقم 3310/4102 (صحيح).

إن الإحسان إلى غير المسلمين من (المؤلَّفة قلوبهم) إنما شرع لتحبيبهم في الإسلام وجذبهم إليه، واستنقاذهم من دائرة الشرك، والإحسانُ إلى أخيك وتأليفُ قلبه أولى وأجدر لتحافظ على مَن دخلوا في الإسلام ألا ينفروا منه ويرتدوا على أدبارهم، وقد تحاول أن تتألفه بعد نفوره فلا يستجيب فتبوء بإثمك وإثمه، وقد ترجَم البخاري لباب (الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم)[1].

وكلما ازدادت الألفة ارتفعت الكُلْفة، وقويت الرابطة بين أبناء الجسد الواحد وأمة البنيان المرصوص، ونكون عندئذٍ أقدر على دفع الأهواء، ونَبْذ الخلافات، وصد مكائد الكائدين.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الألفة حب للناس وتحبب إليهم.
- المنافقون لا يألفون ولا يؤلفون.
- الخلافات الفقهية لا تنقضُ الألفة.
- الداعية يؤلف بين المتفرقين ويأتلف حوله المحبون.
- إن لم تكن الألفة بالله ولله فلن تدوم.

---

[1](?) صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب 100 (فتح الباري 6/107).

- لا تعارض بين تألف الناس والمحافظـة على الهيبة.
- خير الأمراء مَن يحب رعيته وتحبه.
- تــأليف القلــوب مطلــوب مــع غــير المسلمين.
- بازدياد الألفة ترتفع الكلفة.

الفصل الخامس

التنافس الشريف

«وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».
ليس عجيبًا أن يفوق امرؤ أخـاه في علمٍ أو خبرة، أو في أي مجال من مجالات الحيـاة، كمـا أنـه ليس من المسـتهجَن أن يسـعى الأدنى للحـاق بـالأعلى، وأن يبـذل جهدَه للتفوق عليـه، في حـدود ابتغـاء رضـا اللـه، والسلامة من آفات الكـبر والعُجْب والريـاء، وبقيـد طهـارة المشـاعر القلبيـة، ونقـاء العلايات الأخوية، وبضابط الإنصاف، والعدل في التقويم، للنفس وللآخرين، بحيث يـؤدي ذلـك كلـه في النتيجـة إلى تحقيـق مصـلحة إسـلامية عليـا، بعيـدًا عن هـوى النفس وتقديس الذات.
حين تتفشـى المنافسـة الشـريفة تكـون وقـودًا للهمم، ومحرضًـا على البـذل المتواصـل، وسـبيلًا لتوجيـه الأبصـار إلى أعمـال الخـير، الـتي يُفَجِّرُ التنـافس فيهـا مزيـدًا من الخـير للفـرد والمجتمـع، حـتى يصبح الفرد من هذه الأمة يتطلع دائمًـا إلى الأسمى، وكيف يرضى بالدون؟! وهو الـذي يطمح أن يجعلـه اللـه للمتقين إمامًـا، وهـو الـذي يتطلَّع إلى الفـردوس الأعلى وصـحبة النبـيين والشـهداء والصـالحين، وهـو الـذي يرجـو أن يكـون من السـابقين بـالخيرات: {**أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْـرَاتِ وَهُمْ**

لَهَـــا سَــــابِقُونَ}[المؤمنـــــون: 61]، {**...فَاسْـتَبِقُوا الخَيْـرَاتِ...**} [البقــرة: 148].ـــ {**خِتَامُــهُ مِسْــكٌ وَفِي ذَلِــكَ فَلْيَتَنَـافَسِ المُتَنَافِسُـونَ**} [المطففين: 26].

ومن ذلـك التنـافس الشـريف مـا جـاء في الحديث الشريف عن القـائم والمنفـق: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه اللــه القرآن، فهو يتلوه آنـاء الليـل وآنـاء النهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتني أوتِيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه اللـه مـالًا، فهـو يُهلِكه في الحق، فقال رجـل: ليتـني أوتيت مثــل مـــا أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل**» [1].

يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسـمعه جـار لـه، فقـال: «**ليتني أوتيت مثلمـا أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمـل، ورجـل آتاه الله مالًا، فهو يُهلِكـه في الحـق، فقـال رجـل: ليتـني أوتيت مثـل مـا أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل**»[2].

---

[1](?) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - بـاب 20 - الحـديث 5026 (فتح الباري 9/73).

[2](?) صحيح البخاري- كتاب فضائل القرآن- باب 20- الحديث 5026 (فتح الباري- 9/ 73).

يقول ابن حجر: (وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازًا، وهي أن يتمنَّى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة فإن كان في الطاعة فهو محمود)[1].

ومن صور ذلك التنافس الشريف المسابقة إلى صور من العبادة، قد لا يصبر على المداومة عليها إلا السابقون، وذلك كالأذان والصف الأول والتبكير إلى الصلوات، والحرص على جماعتي العشاء والفجر، قال ﷺ: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأَتَوْهما ولو حبوًا»**[2].

ومن الصور العملية لذلك التنافس الشريف ما يكون بين الأنداد من التسابق في الخير، كالذي كان من المسابقة في البِرِّ بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومن ذلك أنهما سمعا ثناء رسول الله ﷺ على قراءة ابن مسعود، بقوله: **«مَن**

---

[1] (?) فتح الباري 1/ 167- من شرح باب 15 من كتاب العلم.

[2] (?) صحيح البخاري- كتاب الأذان- باب 9- الحديث 615 (فتح البراري 2/ 96).

سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل فليقرأه من ابن أم عبدٍ» [1]، فبادر عمر ليلًا لينقل البشرى لابن مسعود، فقال ابن مسعود: (ما جاء بك هذه الساعة؟ قال عمر: جئت لأبشرك بما قال رسول الله ، قال ابن مسعود: قد سبقك أبو بكر قال عمر: إن يفعل فإنه سباق بالخيرات، ما استبقنا خيرًا قط إلا سبقنا أبو بكر)[2].

ومثل هذه الصورة تكرَّرت عندما طلب رسول الله من صحابته أن يتصدَّقوا، يقول عمر: ووافق ذلك عندي مالًا فقلت: اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يومًا - فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله : **«ما أبقيت لأهلك؟»**، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: **«يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، عندئذٍ قال عمر: لا أسبقه إلى شيء أبدًا»**[3].

هكذا يكون التنافس بين الأنداد بحب واحترام، وليس بالحقد والامتهان، أما التنافس غير الشريف، فيبدأ فيما بيّنه

---

[1] (?) صحيح ابن ماجه للألباني- المقدمة- باب 11- الحديث 114/ 138 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 1/ 38 عن عمر بن الخطاب، وصحح أحمد شاكر إسناده في تعليقه على المسند (265).

[3] (?) صحيح سنن الترمذي- كتاب المناقب- باب 41- الحديث 2902/ 3939 (حسن).

النووي في شرح مسلم: (قال العلماء: التنافس إلى الشيء المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه وهو أول درجات الحسد، وأما الحسد فهو تمني زوال النعمة)[1].

ومثل ذلك ما بيَّنه ابن حجر: (... والتنافس من المنافسة: وهي الرغبة في الشيء، ومحبة الانفراد به، والمغالبة عليه)[2].

وفي موضع آخر قال عن الحسد: (الحسد تمني الشخص زوال النعمة عن مستحق لها - أعم من أن يسعى في ذلك أولًا - فإن سعى كان باغيًا، وإن لم يسعَ في ذلك، ولا أظهره، ولا تسبب في تأكيد أسباب الكراهة التي نُهيَ المسلم عنها في حق المسلم، نُظر: فإن كان المانع له من ذلك العجز؛ بحيث لو تمكن لفعل، فهذا مأزور، وإن كان المانع له من ذلك التقوى، فقد يعذر؛ لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسانية، فيكفيه في مجاهدتها ألا يعمل بها، ولا يعزم على العمل بها)[3].

وأحيانًا تصيب المرء مشاعر لا يملك مدافعتها، فأقل ما يعمله إيقافها عند حد الأمان كما في الحديث: «**ثلاث لا يسلم**

---

[1](?) شرح صحيح مسلم 18/ 308 من شرح الحديث (7) من كتاب الزهد.
[2](?) فتح الباري 11/ 245- من شرح الباب 7 من كتاب الرقاق.
[3](?) فتح الباري 10/ 482.

منها أحد: الطيرة والظن والحسد، قيل: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ»(1).

وعن الحسن البصري قال: (ما من آدمي إلا وفيه الحسد، فمَن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم، لم يتبعه من شيء)(2).

ويوضح القرطبي الحسد المذموم بقوله: (فالمذموم أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا.. وإنما كان مذمومًا؛ لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق!)(3).

وهذا التنافس الذي قد يؤول إلى الحسد، هو الذي توقعه رسول الله إذا فتحت على المسلمين فارس والروم فقال: **«... تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون ثم تتباغضون...»**(4)، وهو المنهي عنه في قوله : **«ولا تحسَّسوا**

---

(1) (?) أدرجه ابن حجر في الفتح 10/ 482 ولم يعقب عليه، وفي ضعيف الجامع بألفاظ مقاربة عن الحسن مرسلًا برقم 2526.

(2) (?) فتح الباري 10/ 482 من شرح الحديث 6064 من باب 57 من كتاب الأدب.

(3) (?) الجامع لأحكام القرآن 2/ 71 من تفسير الآية {**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...**} [البقرة: 109].

(4) (?) صحيح مسلم- كتاب الزهد- باب 7- الحديث 2962 (شرح النووي 9/ 308).

ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1].

وأخشى ما يخافه المرء على نفسه، أن ينزلق إلى التنافس في المعاصي، أو التنافس على الدنيا وزينتها، وقد حذر رسول الله أمته من هذا المنزلق فقال: **«إني فرطكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»**[2].

ولما رأى رسول الله مسارعة الناس عندما علموا بقدوم أبي عبيدة بأموال من اليمن قال لهم: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألْهَتهم»**[3].

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب 57- الحديث 6064 (فتح الباري 10/ 481).

[2](?) صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب 7 الحديث 6426 (فتح الباري 11/ 243).

[3](?) صحيح البخاري- كتاب الرقاق- باب 7- الحديث 6425 (فتح الباري 11/ 243).

إن مجتمعًا شأنه التنافس الشريف، يتسابق فيه الأطفال ليشاركوا في القتال، وتتسابق فيه النسوة لخدمة المجاهدين، ويتبارى فيه الناس فيما يحفظون من كتاب الله، وفيما يعملون به من سنة رسول الله ﷺ، وحين يُفقد مثل هذا الجو النظيف، يكون التنافس في الاستكثار من المتاع، وفي التهافت على كل جديد، حتى يصيب أحدَهم انتفاشةٌ جوفاء، إن هو حاز على شيء من الدنيا، لم يسبقه إليه غيره.

والأخطر من هذا كله تنافس الكسالى والبليدين، الذين ينتظرون أن تُصب نعم الله عليهم صبًا، رغم بَلادتِهم وضعف هممهم، وإن لم تغمرهم هذه النِّعم وهم قاعدون، حرَّكتهم همة الشر للكيد لمن يعملون، والتشفي بمن يفوقهم، والحسد لمن سبقهم، والحقد على من أنعم الله عليه مما لم يُنعم عليهم، وقد حذَّر رسول الله ﷺ بقوله: «**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تُؤمِنوا حتى تحابوا، أفلا أُنبِّئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا**

السلام بينكم»[1]، والسلام الحقيقي هو الارتياح القلبي المتبادل، وما التحية إلا مظهرًا من مظاهره.

وحين يشيع مجال التنافس في الخيرات، لا يتطلَّع المرء إلا للَّحاق بمن يفوقُه ورعًا وعبادةً، ودعوةً وجهادًا، والذي يمدُّون أعينهم إلى ما متَّع الله به بعض خلقِه، فتحدثهم أنفسهم أن يسابقوهم في الاشتغال بالتكاثر من النِّعم، أو بالنظر إليهم نظرة الحسد المقيت، يردهم قول رسول الله ﷺ: **«انظُروا إلى مَن أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»**[2].

ومن أقوال العلماء التي استشهد بها النووي في فهم الحديث: «قال ابنُ جَرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى مَن فُضِّل عليه في الدنيا، طلبت نفسُه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى، وحرص على الازدياد، ليلحق بذلك أو يُقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها، ظهرت له

---

[1](?) مسند أحمد 1/ 165 وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 2038/ 2641 وحسنه الأرناؤوط (جامع الأصول 3/ 626).

[2](?) صحيح مسلم- كتاب الزهد- الحديث 9/ 2963 (شرح النووي 9/ 309).

نعمة الله تعالى عليه، فشكرها وتواضع، وفعل فيه الخير»[1].

وهذا الصنف من الناس أشار إليه رسول الله حينما سئل: أي الناس أفضل؟ قال: **«كل مخموم القلب، صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد»**[2].

ولا يكتمل الإيمان في قلب من انجرف به التنافس غير الشريف إلى الحسد كما في قوله : **«.. ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمانُ والحسدُ»**[3].

وللحسد عواقب وَخِيمة على الحاسد قبل غيره، وفي بيان بعض عواقب الحسد يقول القرطبي: (والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات، وقال الحسن: ما رأيتُ ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ نَفَسٌ دائم، وحزن لازم، وعَبرة لا تنفد.

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعادُوا نعم الله، قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال:

---

[1](?) شرح النووي لصحيح مسلم 9/ 308- 309 من شرح الحديث 9 من كتاب الزهد.

[2](?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني- كتاب الزهد- باب 24- الحديث 3397/ 4216 (صحيح).

[3](?) صحيح سنن النسائي للألباني- كتاب الجهاد- باب 8- الحديث 2912 (حسن).

الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله...)[1].

وما شُرِعت الاستعاذة من {**شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**}[2]، إلا لما يدفعه إليه تنافسه غير الشريف: من كيد، ومكر، وحيلة، ووقيعة، وما ذنب المحسود إلا الله فضّله ببعض نعمه، أو وفّقه لاغتنام وقته وقدراته، إلى أن حاز قدم السبق، وصار محطّ الأنظار.

يقول الشوكاني: (ومعنى إذا حسد: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود)[3].

وقد تتكرَّر قصة ابني آدم: {**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ**} [المائدة: 27]، والسعيد من ثبَّته الله على ألا يقابل الإساءة بالإساءة كما فعل ابن آدم الأول حين قال: {**لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**} [المائدة: 28]، وتتكرَّر القصة في أبناء آدم

---

[1] (?) هذه الأقوال منقولة من الجامع لأحكام القرآن 5/ 251 من تفسير الآية 55 من سورة النساء.

[2] (?) من الآية (5) من سورة الفلق.

[3] (?) فتح القدير الشوكاني 5/ 521 عند تفسير سورة الفلق.

حسدًا على دنيا، أو غيرة من صلاح وهمة أو غير ذلك.

ومن أقبح الحسد: ما يكون من المنعّمين والسبّاقين في كثير من مجالات الحياة، وكأنما يريدون احتكارها لأنفسهم.

يقول صاحب الظلال: (إنه لمن آلام الحسد: أن يحسد ذو النِّعمة الموهوب، لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة، أما أن يحسد المغمور بالنعمة فهذا هو الشر الأصيل العميق..)[1].

ومن أبواب السقوط في التنافس غير الشريف: ما يكون بين الأنداد والمتشابهين من علماء الفن الواحد، أو المهنة الواحدة، أو المنزلة الاجتماعية، أو المرتبة الإدارية؛ حيث يتتبَّع كل واحد سقطات الآخر، بدلًا من أن يُعمل الفكر والجهد لتقديم الأنفع والأصلح والأبدع.

ويشخِّص ابن قدامة المقدسي هذا المرض، فيقول: (تعلم أن النفس قد جُبِلت على حبِّ الرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليه شق عليها، وكرِهَته، وأحبَّت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يُدرِكوه، فإنه لا

---

[1] (?) في ظلال القرآن 2/ 683 من ظلال الآية 55 من سورة النساء.

يأثم بذلك، لإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم؛ ليزيد حظه عند ربه)[1].

والأمر خطير يحتاج إلى ضبط المشاعر، وتنقية القلب، وإخلاص القصد لئلا يخرج هذا التنافس عن الحدّ المحمود إلى الحسد والتباغض.

ومن بشرى رسول الله لأصحاب التنافسِ الشريف، والبراءةِ من التحاسد: أن أول زمرة يدخلون الجنة «**قلوبهم على قلب رجل واحد؛ لا تباغض بينهم ولا تحاسد**»[2].

ولا يمكن أن يتماسك مجتمع الساعين لاستئناف المجتمع الإسلامي الكبير، ما لم يتطهر مجتمعهم الصغير الناشئ من الكيد والتحاسد، وما لم يستنزف جهودَهم التنافسُ في الخيرات.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- التفاوت بين الناس أمر قدري وطبيعي.
- المنافسة الشريفة تُحرِّك الهمم إلى الخيرات.

---

[1](?) مختصر منهاج القاصدين ص202.

[2](?) صحيح البخاري- كتاب بدء الخلق- باب 8- الحديث 3254 (فتح الباري 6/ 320).

- أكثر ما يكون التنافس في الطاعات البدنية والمالية.
- قدّم الصحابة رضي الله عنهم أطهر صور التنافس بين الأنداد.
- الخطورة أن ينقلب التنافس إلى التحاسد.
- أكثر ما يكون التحاسد بعد انفتاح الدنيا على الناس.
- المجتمع النظيف يعم فيه التنافس الشريف.
- الإيمان والحسد لا يجتمعان في قلب عبد.
- شر الحاسد ما يدفعه إليه حسده من كيدٍ ومكر.
- **من أقبح الحسد:**
  - ما يكون من حسد المنعّم لمن دونه.
  - ما يكون بين الأنداد في العلم والمنزلة.
- أول زمرة يدخلون الجنة، لا تباغض بينهم ولا تحاسد.

****

الفصل السادس

التعاون

{**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**}
الأصل في مجتمع المسلمين أنه مجتمعُ تعاونٍ وتكاتف وتعاضد، ولكن باتجاه الخير والبر والتقوى، وبعيدًا عن الشر والإثم والعدوان.

وطالما يعيش الإنسان في المجتمعات البشرية، فإنه مدفوع لا محالة إلى صور من التعاون تعبر عن ولائه لأبناء مجتمعه، ومحتاج لا محالة إلى صور من التعاون تعبر عن ضعفه وعجزه، وعدم استغنائه بنفسه عن معونة من يعيشون حوله.

من الصدقات التي يزكي بها المسلم يومَه ويتصدَّق بها على نفسه أنه «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»[1]، «**ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه**»[2]، وإذا ما وجدت عظمًا في طريق الناس كان «**رفعك العظم عن الطريق صدقة، وهدايتك الطريق صدقة، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة، وبيانك عن الأرتم صدقة**»[3].إن مجتمعًا يفشو فيه التعاون لا

(?)[1] صحيح البخاري- كتاب الزكاة- باب 30- الحديث 1445 (الفتح 3/ 307).
(?)[2] صحيح البخاري- كتاب الجهاد- باب 128- الحديث 2989 (الفتح 6/ 132).
(?)[3] مسند أحمد 5/ 154.

يضيع فيه أحد ولا يشتكي مخلوق، لأن كل واحد منهم عندئذٍ مقضي الحاجة، مُعانٌ على الشدة، ويكون فيه **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[1].

قال ابن بطال: «المعاونة في أمور الآخرة، وكذا في الأمور المباحة من الدنيا مندوب إليها»[2].

وإن الذي يمنع عونه عن إخوانه قد يتخلى الله عنه حيث يحتاج إلى العون، ولذلك فقد جاء في الحديث أن من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: **«.. ورجل منع فضل مائِه، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»**[3].

وإن من رحمة الله بمَن يتولَّى أمرًا من أمور المسلمين أن يرزقه الله مَن يُعِينه على أمره ويساعده على القيام بواجبه وهو واجب من واجبات البطانة ندر من يقوم به في هذا الزمان. وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: **«إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق؛ إن نسي ذكَّره، وإن ذكَّر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له**

---

[1] (?) صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب 36- الحديث 6026.
[2] (?) فتح الباري 10/ 450.
[3] (?) صحيح البخاري- كتاب المساقاة- باب 10- الحديث 2369 (الفتح 5/ 43).

وزير سوء؛ إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يُعِنه»[1].

إن مجرد دخول الإنسان في دائرة الإسلام يجعله مصونًا محفوظًا محمي الذمار مُقال العثرة.

يذكر بلال عن نفقة رسول الله كيف كانت، فكان فيما قاله: (.. وكان إذا أتاه الإنسان مسلمًا فرآه عاريًا؛ يأمرني فأنطلق فأستقرض، فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه..)[2].

ويدور الزمان ليغدو المسلم حربًا على أخيه ذي الشيبة في الإسلام، وبدلًا من أن يسد خلته، ويرد فاقته، يحاربه في رزقه ويكون عونًا للشيطان عليه! فهل هكذا يكون البنيان الذي يشد بعضه بعضًا؟!

إن من فوائد التعاون رفع الظلم عمن أريد به الشر، وقد جاء رجل إلى النبي فقال له: **«الرجل يأتيني فيريد مالي؟ - يعني ماذا أفعل معه - قال: ذكِّره بالله، ولأن الرجل يعلم أن بعض النفوس لا يكفيها مجرد التذكير بالله قال: فإن لم يذكر؟ قال: فاستعِن عليه مَن حولك من**

---

[1](?) صحيح سننن أبي داود- كتاب الإمارة- باب 4- الحديث 2544/ 2932 (صحيح).

[2](?) صحيح سنن أبي داودـ كتاب الإمارة- باب 35- الحديث 2628/ 3055 (صحيح الإسناد).

المسلمين، قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟ قال: فاستعن عليه بالسلطان، قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: قاتِلْ دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك»[1].

فالأصل أن يحال دون وقوع الظلم على الضعيف بعون المسلمين له من حوله وبعون السلطان والقضاء له لكيلا يضطر للمقاتلة بنفسه؛ حيث لا يجد معينًا، وإذا تُرك الناس ولم يُعانوا كثرت الخصومات وعظمت الثارات؛ لأنه لم يعُدِ المؤمن للمؤمن كالبنيان.

وإذا كان الله - عز وجل - يتعهَّد ويتكفَّل بعون أصناف من عباده أفلا نتشرف بأن نكون سببًا لهذا العون وستارًا لقدر الله في قضاء حوائج الناس؟ ومن ذلك ما جاء في الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»[2]، وكلها عون على حق بشري أن يعيش المرء حرًّا، فيُعان المجاهد على التحرر من طغيان الطغاة والبغاة، كما يعان المكاتب

---

[1](?) صحيح سنن النسائي- كتاب تحريم الدم- باب 21- الحديث 3803 (حسن صحيح).

[2](?) صحيح سنن الترمذي- كتاب فضائل الجهاد- باب 20- الحديث 1352/ 1722 (حسن).

على التحرر من ذل الرق، ويعان الشاب على التحرر من رق الشهوة، ويُحصَّن المسلم من كل صور الاستعباد والذل بتقديم العون له.

وفي التعامل مع الخدم والرقيق وجه رسول الله إلى معاونة أحدهم على ما يقوم به من أمر الخدمة: «**إخوانكم فأحسِنوا إليهم أو فأصلحوا إليهم، واستعينوهم على ما غلبكم، وأعينوهم على ما غلبهم**»[1].

وفي قصة تحرر سلمان برزت أسمى صور التعاون؛ حيث وجَّه رسول الله سلمان للمكاتبة وقال للصحابة: «**أعينوا أخاكم**»، وكان سيده قد طلب منه ثلاثمائة نخلة يزرعها ومالًا يؤديه ليحرره، فتطوع كل منهم بثلاثين نخلة وبخمس عشرة نخلة وبعشر حتى سدَّدوا عنه ثلاثمائة نخلة، وأعانه الصحابة في الحفر لها، وأعانه رسول الله في زراعتها، ولما أُتي رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من ذهب في بعض المغازي دعا سلمان وقال له: «**خذ هذه فأدِّ بها ما عليك..**»[2]، وبذلك أعتق سلمان .

---

[1](?) مسند أحمد 5/ 58.
[2](?) مسند أحمد 5/ 443.

وكل ما يخطر على البال من صور التعاون بين المؤمنين يعمُّه قول رسول الله ﷺ: «**مَن نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَن يسَّر على مُعسِر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»[1].

ولقد كانت النسوة تقدم خدماتها في ميادين الجهاد، ومن ذلك موقف نساء من بني غِفارٍ، أردن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فقلن له: «**يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: على بركة الله**»[2]، فإذا كان هذا شأن النساء في التعاون فهل يحجم الرجال؟!

وأصحاب الأهداف العظيمة لا يصلون إلى أهدافهم بالجهود المتضادة المتنافرة، ولنا في ذي القرنين أسوةٌ حين قال لقومه: {**مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي**

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود- كتاب الأدب- باب 68- الحديث 4137/ 4946 (صحيح).

[2] (?) مسند أحمد 6/ 380.

بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: 95]، فنتعاون بقوة للخير وعلى الخير، ولنخرج من دائرة الأنانية والاهتمامات الفردية، ولنعش مشاعر الأمة ذات الجسد الواحد.

خلاصة هذا الفصل وعناصر:

- الإنسان لا يستغنى عن التعاون مع أفراد مجتمعه.
- كثير من صدقات المرء على نفسه إنما هي من صور التعاون.
- من أبرك صور التعاون، التعاون مع الأمير الصالح.
- حديثُ الدخول في الإسلام تقدم إليه خدمات تعاونية.
- **من أعظم التعاون:**
  - التعاون في دفع الظلم.
  - في تجهيز الغازي.
  - في تزويج العزّاب.
  - في معاونة الخدم.
  - في تحرير الرقيق.
- أثر التعاون في الدنيا يلاقيه صاحبه في الآخرة تنفيسًا وتيسيرًا.
- المجتمع المتعاون يشترك جميع أفراده.

* * *

الباب الرابع

من أخلاقنا في الإمرة

الفصل الأول: حُسْن الأسوة.
الفصل الثاني: العدل.
الفصل الثالث: التثبت.
الفصل الرابع: أدب المطاوعة.
الفصل الخامس: اصطفاء البطانة.

****

الفصل الأول

حُسْن الأسوة

{**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**}

يتطلع الناس إلى مَثَلٍ أعلى يقتدون به، ويقتَفون أثره، ويحذون حذوَه، وتربية الإسلام تنشئ في نفوس أتباعه السعي إلى معالي الأمور، والترفُّع عن سفسافها،

والصعود نحو ذورة سنام الإسلام، ولذلك كان من دعاء عباد الرحمن: {**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**} [الفرقان: 74].

وفي تفسير هذه الآية يوضح (مجاهد) المقصود بالإمامة هنا فيقول: (أئمة في التقوى؛ حتى نأتم بمن كان قبلنا، ويأتمَّ بنا مَن بعدنا)[1]، ومعنى ذلك أن صاحب الأسوة الحسنة متتبِّع لخطى الذين سبقوه في الخير، وقدوة لمن يلونه، فهو يرأس الناس في فعل الخير، ويقتدي الناس به، كما يتحرّى أن يقتدي بالصّالحين من سلف الأمة، وهذا ما يكون سبب الثقة به، وإتباعه، والتأسِّي به.

وقد أكّدت هذا المعنى تفاسير عديدة، ونقل ابن حجر عدة أقوال تؤيّد هذا المعنى، وقد كان هذا حال سيد المجاهدين؛ إذ جعله الله أسوة لمن بعده، كما أمره الله أن يقتدي بمن سبقه من الأنبياء: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**} [الأنعام: 90].

وإن لم يكن الدعاةُ والهداة على هذا المستوى من الأسوة، حُرِموا الاستخلاف في الأرض، وهذا خليل الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لَمّا جعله إمامًا للناس

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب الاعتصام- من ترجمة باب 2 (فتح الباري 13/ 248).

يُقتدى به قال: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، أخبره الله تعالى أن فيهم عاصيًا وظالمًا لا يستحق الإمامة فقال: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: 124][1]، فإذا أردنا أن يعيننا الله في إقامة الإمامة الكبرى، فلنستعِن بالله على أنفسنا؛ لنستأهل إمامة القدوة والتأسِّي.

ورأس الأمر في إمامة الأسوة: أن ندعو الناس بأفعالنا قبل أقوالنا. يقول عبد الواحد بن زياد: «ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ؛ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم عنه»[2]، ولما نبذ رسول الله خاتَمَه الذهبي، نبذ الناس خواتمهم (فدل ذلك على أن الفعل أبلغ من القول)[3].

إن صاحب الأسوة الحسنة يترك كثيرًا من المباح، احتياطًا لأمر دينه، وبعدًا عن الشبهات[4]، ويبتعد عن مواطن سوء الظنِّ؛ لأنها تُنفِّر الناس من الاقتداء به (وهذا متأكد في حق العلماء، ومن يُقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب سوء الظنِّ بهم،

---

[1](?) عن تفسير القرطبي 2/ 107 عند تفسير قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة: 124].

[2](?) نقلًا عن ممرات الحق 2/ 91، والمنطلق ص255.

[3](?) فتح الباري 13/ 275 من شرح الحديث 7298 من كتاب الاعتصام- باب 4.

[4](?) في مدارج السالكين 2/ 26: (فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاء على صيانته).

وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم)[1]، كما قال ابن حجر.

وإن الرجل القدوة لأشدٌّ على أعداء الله من كل عُدّة، ولذلك لَمّا تمنّى الناس (ذهبًا ينفقونه في سبيل الله) كانت قولة عمر : (ولكني أتمنّى رجلًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله)[2].

ولن يثق الناس بك، ولن يتأثّروا بحديثك، وأنت ترتعُ في نعيم لا يجدونه، ولذلك كان سيدنا علي عنه يحتاط لنفسه ولأعين الناس، فيلبس المرقع من الثياب، فلما اعترض بعضهم على لباس علي ، أجابهم: (ما لكم وللّباس، هو أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي بي المسلم)[3]، وفي رواية قال: (يخشع به القلب، ويقتدي به المؤمن)[4].

وإن الذي ينحدر للتّسابق في الملذّات؛ لن يرقى في سلّم الطاعات؛ لأن القدوة تسابق في الخيرات، ومجاهدة للنفس إلى أن تحيا بنا دعوتنا؛ إذ (لا حياة لفكرة لم تتقمّص روح إنسان، ولم تصبح كائنًا حيًّا،

---

[1] (?) فتح الباري 4/ 280 عند شرحه لحديث (إنما هي صفية..).

[2] (?) نقلًا عن ممرات الحق (4/ 87).

[3] (?) مسند أحمد 1/ 91.

[4] (?) عن حياة الصحابة 2/ 709.

دب على وجه الأرض في صورة بشر)[1]، فلا ينسين الداعية أن الناس ينظرون إليه على أنه مثلهم الأعلى، الذي يرون في سلوكه مصداق ما يدعو إليه، فإن زلَّ زلوا معه، وإن عاد إلى الصواب بعد ذلك قد لا يعودون.

إن من أبرز صفات الساعي لأن يكون للمتقين إمامًا: الحذر من سوء التصرف الذي قد يفتن بهم العامة، وقد يُلبِّس على مَن يحسنون الظن بهم، ولو كان الفعل في حدود ما تحتمله الاجتهادات الفرعية والرخص. ولذلك لمّا رأى ابن عباس أخاه عبيد الله صائمًا يوم عرفة حذّره بقوله: (إنكم أئمة يُقتدى بكم)[2]، ولما نهى عمر عنه عبدالرحمن بن عوف عن لبس الخفَّين في الحج - أخذًا بالرخصة في ذلك - لخشية عمر أن يتوسع الناس في ذلك، قال له: (عزمت عليك إلا نزعتَها، فإني أخاف أن ينظر الناس إليك، فيقتدون بك)[3]، ومثل هذا الموقف تكرر في استنكار عمر على طلحة حين رآه يلبس ثوبًا مصبوغًا وهو مُحرِم، فقال له: (إنكم - أيها الرهط - أئمة يقتدي بكم الناس)[4].

---

[1](?) أفراح الروح لسيد قطب 25- 26.
[2](?) مسند أحمد 1/ 346.
[3](?) مسند أحمد 1/ 192.
[4](?) موطأ مالك (1/ 326) الحديث 10 من كتاب الحج باب 4.

إن أبا سفيان وهو على كفره حين سأله هرقل عن رسول الله خشي أن يكذب وهو كبير قومه فيتناقلها الناس، فقال: (فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه)[1]، أفليس عباد الرحمن أجدر بتلك الرجولة وذلك الحياء.

صاحب الإمامة وحسن الأسوة، لا يستأثر بدنيا على إخوانه، فإن للإمرة ضريبتَها، وللرجولة ثمنها، ولا تُنال الرفعة في الدين إلا بالمجاهدة، ولذلك حين جاءت فاطمة بنت رسول الله تشكو من تشقق يديها من الطحن بالرحى، وتطلب خادمًا فلم تُعطَ[2]، وكان يجوع حتى يضع الحجارة على بطنه؛ لتخفف من جوعه، وينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه[3]، وهكذا كان حال الصالحين الذين يعدُّون الإمارة مغرمًا لا مغنمًا.

وكما تكون الإمامة والأسوة في الخير، فهنالك (أئمة يدعون إلى النّار) أي قدوة للضلال[4]، وكلا الطريقين متاح، فهل تكون أسوة هدى، أم قدوة ضلال؟

---

[1] (?) صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- باب 6- الحديث 7 (فتح الباري 1/ 31).

[2] (?) صحيح البخاري- كتاب فضائل الصحابة- باب 9- الحديث 3705 (الفتح 7/ 71).

[3] (?) صحيح البخاري- كتاب المظالم- باب 25- الحديث 2468 (الفتح 5/ 116).

[4] (?) كما في تفسير الألوسي 2/ 83 سورة القصص- الآية 41.

لقد كان الحرص على حسن الأسوة، والحذر من الميل عمّا كان عليه حال رسول الله ، يدفع رجلًا مثل أبي بكر ليقول: (إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ)[1]، وإن من سار في طريق المجاهدة لا يرتضي لنفسه أن يكون من الخلوف، الذين وصفهم رسول الله بأنهم: **«يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون»**[2]، وإنما يحرص على أن يكون من أتباع النبي الذين وُصفوا بأنهم: (يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)[3]، وكما يقول مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلّت موعظته عن القلوب؛ كما يزلُّ القطر عن الصخرة الصماء»[4].

ولا يليق بصاحب خلق (حسن الأسوة) أن يكون إمّعة يسيء مع المسيئين، فقد روي عن ابن مسعود قوله:)وطّنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإذا أساؤوا أن تتجنبوا إساءتهم(5)، وكذلك وطنوا أنفسكم ألا يفتتن بكم إمعة من الرعاع، وألا يتخذكم غيركم رأسًا في الضلال، يقول ابن العربي

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب فرض الخمس- باب 1 الحديث 3093 (فتح الباري 6/ 197).
[2](?) أخرجه مسلم (جامع الأصول 1/ 326) الحديث 108.
[3](?) نفس المرجع السابق.
[4](?) عن ممرات الحق (2/ 300).
[5](?) مشكاة المصابيح 3/ 1418 صححه الألباني موقوفًا على ابن مسعود.

في شرح قوله ﷺ: «**ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة**»[1]: (وإنما جعلها أعظم من الإمام؛ لأن متعلقاتها من المغرور به أكثر، ففحشت بكثرتها)[2].

والرأس في الخير لا بد أن يقدم رأسه ثمنًا لرياسته، وأن يهون في نظره كل شيء في سبيل ثباته في مواقف الابتلاء، وقد سُجن البويطي - خليفة الشافعي - في فتنة خلق القرآن وقُيِّد بالسلاسل والأغلال، ولم يقبل أن ينطق بغير الحق ولو همسًا وهو يقول:)إنه يقتدي بي مائة ألف، ولأموتن في حديدي هذا؛ حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم([3].

فعسى إن كنا على مستوى حسن الأسوة والتأسي، أن يجعلنا الله أئمة ويجعلنا الوارثين، ويُمكِّن لنا في الأرض، ويجعلنا للمتقين إمامًا.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- عباد الرحمن يتطلعون لأن يكونوا للمتقين إمامًا.

---

[1] (?) أخرجه الترمذي (جامع الأصول 11/ 747 برقم 9444) وحسنه الترمذي، وضعفه الأرناؤوط وقال: لبضع فقراته شواهد.

[2] (?) عارضة الأحوذي 9/ 42.

[3] (?) طبقات الشافعية 1/ 275 من ترجمة يوسف بن يحيى البويطي.

- صاحب الإمامة يقتدي بمن سلف ويكون قدوة لمن خلف.

- الذين لا يكونون على مستوى الأسوة لا يُمكِّن لهم في الأرض.

- صورة صاحب الإمامة :

- يدعو بأفعاله قبل أقواله.
- يبتعد عن الشبهات.
- يتمناه الأمير الصادق.
- زاهد في الدنيا.
- الحذر من سوء التصرف لئلا يفتن به الناس.
- التزام الصدق.
- أخذ النفس بالعزيمة.

- الخلوف يقولون ما لا يفعلون.
- صاحب الأسوة يوطن نفسه على الإحسان وإن أساء الناس.
- صاحب الأسوة معرَّض للبلاء.

الفصل الثاني

العدل

{**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**}

من أغراض الجهاد في الإسلام: إخراج
الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام،

ومن دوافع الهجرة إلى الحبشة أن «**فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد**» [1]، ومن أهم مزايا دعوة الإسلام أنها نشرت العدل وعمَّمته.

بالرجوع إلى كثير من نصوص القرآن التي تتحدث عن الظلم والظالمين، نجد أنها: نفت عنهم الفلاح، واستبعدتهم من أن ينالهم عهدُ الله، وبشّرتهم بأن الله لا يحبهم، ولا يزيدهم إلا خسارًا، وحكمت عليهم بالخيبة وسوء العاقبة[2].

وفي مقابل ذلك فإن لله اسمًا مشتقًّا من العدل، وهو الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة، وأمر رسوله بالعدل، وعمّم الأمر بالعدل على جميع عباده[3]، وجُعِل في مقدمة السبعة الذين يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله (إمام عادل)[4].

كما جعل الإمام العادل من الثلاثة الذين لا تُرَد دعوتهم[5].

---

[1] (?) السيرة النبوية لابن هشام 1/ 321.

[2] (?) إشارة إلى الآيات التالية: {**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**} [الأنعام: 21] {**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**} [البقرة: 124] {**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**} [آل عمران: 57].

[3] (?) إشارة إلى قوله تعالى: {**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**} [الشورى: 15] {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**} [النحل: 90].

[4] (?) صحيح الجامع برقم 3603 (صحيح) وهو في الصحيحين.

[5] (?) صحيح الجامع برقم 3064 (حسن) ونصه (ثلاثة لا يرد الله دعاءهم:الذاكر الله كثيرًا والمظلوم، والإمام المقسط).

ولكي تقوم حياة الناس على العدل، فقد ذكّر رسول الله المسلم بأنه: **«كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة»**[1]، وربط عدله في الدنيا بمصيره في الآخرة، حيث يوضع الميزان، ويحاسب الناس بالقسطاس المستقيم، فأخبر بأن من المُنجِيات: **«العدل في الغضب والرضا»**[2]، وهذه أعلى مراتب العدل؛ إذ قد يعدل المرء في حال الرضا، ولكن يندر أن يعدل وهو غاضب أو ساخط أو كاره، وقد خصَّ الله أهل العدل في الدنيا، بإعلاء شأنهم في الآخرة، وتقريبهم منه سبحانه، كما في الحديث: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين -: الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما وُلّوا»**[3].

والأمة المسلمة لا يشفع لها إسلامها في استحقاق التأييد من الله إذا كانت ظالمة، فمن أسباب التمكين في الأرض، والتأييد من الله، أن يُحال دون تفشِّي المظالم، وأن يعمَّ العدل حياةَ المسلمين، ولذلك

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب الصلح- باب 11- الحديث 2707 (الفتح 5/ 309).
[2](?) سلسلة الأحاديث 4/ 416 الحديث 1802 (حسن).
[3](?) صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب 5- الحديث 1827 (6/ 452).

يقول ابن تيمية: «إن الله يقيم الدولة العادلة - وإن كانت كافرة - ولا يقيم الدولة الظالمة - وإن كانت مؤمنة - »[1]، وكذلك فإن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرًا؛ لأن فجوره لا يقتضي التعدي عليه بغير حق، ولا غمط حق من حقوقه، كما في قوله ﷺ: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه**»[2].

إن عدل الله عز وجل يسع البهائم مثلما يسع الناس، ومن الخير للعبد ألا يظلم مخلوقًا في الدنيا من إنسان أو حيوان، وأن يبادر إلى أداء الحقوق في هذه الدنيا مختارًا، قبل أن يقاد بها يوم القيامة، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «**لتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة؛ حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[3]، ولذلك فإن «**مَن كانت عنده مظلمة لأخيه: من عرضه، أو شيء منه، فليتحلَّله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من**

---

[1] (?) مجموع فتاوي ابن تيمية 28/ 146.
[2] (?) صحيح الجامع برقم 3382 (حسن).
[3] (?) أخرجه مسلم والترمذي (جامع الأصول 10/ 432 برقم 7960).

سيئات صاحبه، فحمل عليه» [1]، كما في الحديث الصحيح.

ومهما يكن المظلوم ضعيفًا، فإن الله ناصره، ومن له بالله طاقة حتى يتجرأ على ظلم العباد؟! فقد جاء في الحديث: **«...ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزّتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»** [2] فلا يتجرأنَّ ظالم إن أمهله الله؛ لأن الله ناصر كل مظلوم - ولو بعد حين - قال تعالى: {**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**} [إبراهيم: 42] قال ﷺ: **«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته»**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**} [هود: 102] [3].

وقد كان رسول الله ﷺ يُعلِّم أصحابه أن يدعوا ربهم بدفع الظلم عنهم، ووقايتهم من شرور كل ظالم؛ لينمي في نفوسهم بغض الظلم والظالمين، وليزرع في قلوبهم مشاعر العزة والكرامة، وقلما كان يقوم

---

[1] (?) أخرجه البخاري (جامع الأصول 10/ 431 برقم 7958).
[2] (?) أخرجه الترمذي وحسنه ووافقه ابن حجر والأرناؤوط (جامع الأصول 4/ 145 برقم 2103).
[3] (?) الحديث متفق عليه (جامع الأصول 2/ 195 برقم 671).

من مجلس حتى يدعو لأصحابه بمثل قوله: **«واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا.. ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا»**[1]، وفي حديث آخر دعاؤه: **«ربِّ أعنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصرني ولا تنصر علي، واهدني ويسر الهدى إليَّ، وانصرني على من بغى عليَّ...»**[2]، أفلا يرتجف قلب الظالم من دعوة مظلوميه؟ أو لا تنبعث في نفوسنا دوافع رفع الظلم وإفشاء العدل والتواصي به؟

ومما يُفتن به الظالم الوجيه في قومه أنه لا يرى مَن يزجره، بل قد يجد مُن يُحسِّن له عدوانه، ويُبرره له بأنه عين الحكمة - كما هو شأن بطانة السوء في كل زمان - فليراجع كل ظالم نفسه إذا كان حريصًا على نجاته، فإن رسول الله يقول: **«يكون أمراء فلا يُرَدُّ عليهم قولهم، يتهاتفون في النار يتبع بعضهم بعضًا»**[3].

وأولى بالبطانة أن تحضَّ على الخير، وتقف مع صاحب الحق، كما كان من

---

[1] (?) صحيح سنن الترمذي للألباني 3/ 168 برقم 2783/ 3749 (حسن).

[2] (?) صحيح سنن الترمذي للألباني 3/ 178 برقم 2816/ 3803 (حسن).

[3] (?) سلسلة الأحاديث الصحيحة 4/ 398 برقم 1790 (حسن).

رسول الله ﷺ حين انتهر الصحابة أعرابيًّا اشتد على رسول الله في طلب دَينه، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«هلَّا مع صاحب الحق كنتم»**[1].

ومصداقية الداعين إلى الإسلام أمام أتباعهم، لا تكون إلا بإشاعة روح العدل، ومناصرة المظلومين، وقد قال أحد الدعاة معبّرًا عن هذا المعنى: (لم نسمع من الدعاة ولا من المتمسلمين، صيحات مدوِّية تشق آذان الظلمة، وتنادي بإنصاف العامل المفصول بغير حق، من أجل ذلك أخشى على الإسلام من المنتسبين إليه نفاقًا، والمحسوبين عليه صورة، أكثر مما أخشى عليه من أعدائه المجاهرين برفضه، والمعلنين الحرب على أهله)[2]، ولذلك تبرأ رسول الله ﷺ من الشياطين الخرس؛ الذين يعينون على الظلم بسكوتهم عنه: **«إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم قصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليّ الحوض..»**[3].

وتمام العدل حين يكون مع الصديق والعدو، كما علّمنا القرآن: {**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ**

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/ 55/ برقم 1969/ 2426 (صحيح).
[2] (?) السلوك الاجتماعي في الإسلام ص 108.
[3] (?) أخرجه الترمذي والنسائي وحسنه الأرناؤوط (جامع الأصول 4/ 75 برقم 2061).

شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: 8] وقد فقه يهود أن هذا العدل به تقوم السماوات والأرض، حين جاءهم عبد الله بن رواحة مبعوثًا من رسول الله ﷺ؛ لتقدير محصولهم من الثمار والزروع، وتقاسمها حسب ما تم الاتفاق عليه بعد فتح خيبر، فحاولوا رشوة ابن رواحة ليرفق بهم، فقال لهم: «**والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدائكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبِّي إيّاه وبغضي لكم علي ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض**»(1).

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- اختيار الهجرة إلى الحبشة؛ لأنه لا يظلم فيها أحد.
- الإمام العادل لا تُرَد دعوته ويظله الله في ظل عرشه.
- من أعلى مراتب العدل أن يكون في الغضب والرضى.
- ينصر الله الدولة الكافرة العادلة على ظلمة المسلمين.
- الظلم مُستقبَح حتى مع البهائم.

---

(1) حياة الصحابة 2/ 108- البداية والنهاية 4/ 199.

- التحلل من المظلوم في الدنيا قبل يوم الحساب.
- الله يستدرج الظالمين فإذا أخذهم لم يفلتهم.
- كثير من الأدعية تحمل النفرة من الظلم.
- إذا لم يجد الظالم من يأخذ على يديه تمادى.
- من العدل الوقوف مع صاحب الحق وإن كان وضيعًا.
- من عوامل قبول الداعية وقوفه مع المظلومين.
- تمام العدل أن يكون مع الصديق والعدو.

****

الفصل الثالث

التثبت

{**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**}
قد انقطع الوحي الذي يكشف المنافقين
والكاذبين، ولكن لم تنقطع الضوابط

الشرعية والأصول الإسلامية للتبيُّن والتثبت، وما أحوج المؤمنين والدعاة - قادة وجنودًا - لأن يتدبروها ويتخلقوا بها!

من أول مزالق عدم التثبت سوء الظن، ولذلك يقول الغزالي - رحمه الله -: (ليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشفت لك بعيان لا يقبل التأويل)[1].

ثم ينحدر الظن إلى مزلق آخر، وهو إشاعة ظنه ذاك، وقد نقل الشوكاني عن مقاتل بن حيان قوله: (فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم)[2]، وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: (أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز)[3]، وقال الغزالي: (اعلم أن سوء الظن حرام، مثل سوء القول، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو بعين مشاهدة أو بينة عادلة)[4].

يقول ابن قدامة: (فليس لك أن تظن بالمسلم شرًّا، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذلك عدل، فمالَ قلبك إلى تصديقه، كنت معذورًا... ولكن أشار إلى قيد مهم فقال: «بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟)[5].

---

[1](?) عن محاسن التأويل للقاسمي 15/ 5463.
[2](?) عن فتح القدير للشوكاني 5/ 64.
[3](?) عن فتح القدير للشوكاني 5/ 64 أيضًا.
[4](?) عن محاسن التأويل 15/ 5463.
[5](?) مختصر منهاج القاصدين ص 172.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: (بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت: كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال الرجل: لا يكون النمام صادقًا، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام)[1].

والفطن من يُميِّز بين خبر الفاسق وخبر العدل، ومن يفرق بين خبر عدل عن ندٍ له، أو عمّن يحمل له حقدًا، وبين شهادة العدل المبرَّأة من حظ النفس، ومن يميز بين خبر العدل وظن العدل، والظن لا يغني شيئًا، ومن يفرّق بين خبر دافعه التقوى، وخبر غرضه الفضيحة أو التشهير.

والذي لم يتخلق بخلق (التثبت) تجده مبتلًى بالحكم على المقاصد والنويات والقلوب، وذلك مخالف لأصول التثبت، يقول الشافعي - ووافقه البخاري -: (الحكم بين الناس يقع على ما يُسمع من الخصمين، بما لفظوا به، وإن كان يمكن أن يكون في قلوبهم غير ذلك)[2].

ومن أخطر المزالق أن يحسن الأمير الظن برجل من الناس ليس أهلًا للثقة، ثم يكون أسيرًا لأخباره، أذنًا لأقواله، يصغي إليه ويصدقه، يقول ابن حجر: (المصيبة إنما

---

[1](?) مختصر منهاج القاصدين ص 175.
[2](?) عن فتح الباري 13/ 175 من شرح الباب 29 كتاب الأحكام.

تدخل على الحاكم المأمون من قبوله قول من لا يوثق به، إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك)[1].

ومن أصول التثبت ألا يؤخذ أحد بالقرائن، طالما هو ينكر ولا يقرُّ وشواهد ذلك في السنة كثيرة، ومنها ما رواه ابن ماجة بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله قال: «**لو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة، لرجمتُ فلانة، فقد ظهر فيها الريبة، في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها**»[2]، ومع ذلك فلم يرجمها رسول الله ، لأنها لم تقر، ولم يقذفها بلفظ الزنا.

وأكاد أجزم أن أهم أصول التثبت فيما يُنقل من أخبار: السماع من الطرفين، فقد أخرج أبو داود والنسائي أن النبي ، أرسل عليًّا إلى اليمن قاضيًا، فأوصاه: «**... فإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضين حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**»[3]، يقول علي : (ما شككت في قضاء بعد)، فكان الصواب حليفه بالتثبت، وكم زلّت أقدام، ووقعت

---

[1] (?) فتح الباري 13/ 190- كتاب الأحكام- باب 42.

[2] (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/ 82- كتاب الحدود باب 11- الحديث 2073/ 2559 (صحيح) وروى الشيخان شطره الأول.

[3] (?) صحيح سنن أبي داود 2/ 684 الحديث 3057 (حسن).

فتن بسبب عدم التثبت! يقول الشوكاني: (الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه، هو الغالب، وهو جهالة..)[1].

وكم تجد من الناس مَن يُسارِع للشهادة على أمرٍ لم يفقَهْه، في حق امرئ لا يعرفه! ولذلك أفتى الحسن البصري تحريًا للتثبت: (لا تشهد على وصية حتى تُقرأ عليك، ولا تشهد على مَن لا تعرف)[2].

وليس من خلق المتثبت التسرع والعجلة، وإن ، حين أرسل خالدًا للتحقق من عداوة بني المصطلق (أمره أن يتثبت ولا يعجل)[3] ولما أرسله إلى بني جذيمة، للتحقق من إسلامهم، فتعجل في القتل، قال : **«اللّٰهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**[4]، بل إن مما ذكر القاضي شهاب الدين الشافعي في كتابه (آداب القضاء): (وعليه - إن لم يتضح له الحق - تأخير الحكم إلى أن يتضح..)[5].

قال الشوكاني في تفسيره لآية التبين: (ومن التثبت: الأناة، وعدم العجلة، والتبصر

---

[1] (?) عن فتح القدير 5/ 60.
[2] (?) عن فتح الباري 13/ 144- كتاب الأحكام- باب 15.
[3] (?) عن تفسير القرطبي 16/ 205 عند تفسير الآية 6 من سورة الحجرات.
[4] (?) صحيح البخاري- كتاب الأحكام- باب 35- الحديث 7189.
[5] (?) آداب القضاء- ص 110.

في الأمر الواقع، والخبر الوارد، حتى يتضح ويظهر...)[1].

وإن سؤال العلماء ومشورتهم يسدِّد المتثبت، وقد نقل ابن حجر عن الشعبي - بسند جيد - قوله: (مَن سرَّه أن يأخذ بالوثيقة من القضاء، فليأخذ بقضاء عمر فإنه كان يستشير)[2] ولا تخافوا من المشورة فإنها تقربكم إلى الحق.

وكثيرًا ما يُتهم شخص بتهمة، فينفيها، أو يبين عذره فيها، ثم يستمر الحديث عنه والتحذير منه، فهل هذا من التثبت؟! إن حاطب ابن أبي بَلْتَعة حين صدر منه إفشاء سرّ ، طلب عمر أن تقطع عنقه، غير أن رسول الله استمع إليه، حتى إذا انتهى قال: «**صدق. لا تقولوا له إلا خيرًا**»[3].

وكل مسلم ظاهره الصلاح صادق ولا نقول له إلا خيرًا، وإلا فإن الاتهام بغير تثبت سبب في كثير من المظالم، ولذلك كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد أمرائه - عَدِي بن أرطأة أمير البصرة - في قتيل وُجد عند بيت ولم يُعرف قاتله: (إن وجد أصحابه بينة، وإلا فلا تظلم الناس، فإن هذا لا

---

[1](?) فتح القدير 5/ 60 عند تفسير الآية 6 من سورة الحجرات.
[2](?) فتح الباري 13/ 149- من شرح باب 16 من كتاب الأحكام.
[3](?) صحيح البخاري- كتاب استتابة المرتدين- باب 9- الحديث 6939.

يقضى فيه إلى يوم القيامة)[1] بل جاء في الحديث المتفق عليه: «**لو يعطى الناس بدعواهم، لذهب دماءُ قوم وأموالهم**»[2].

وإن الواحد من الصحابة على عدالته كان يُطالبَ - في الخصومات - بإحضار شهود أو الإدلاء ببيانات، أو القسم، ولم تكن عدالته لتشفع له في استقطاع شيء من حقوق الناس، أو مسِّ أعراضهم. وقد اشترط الشرع البينة دفعًا للاتهامات الرخيصة - غير المسؤولة - لئلا يبادر أحد إلى اتهام أحد إلا عن يقين، ولذلك حين قُتل صحابي وجد بين بيوت اليهود في خيبر، اتهم أصحابه اليهود في قتله، فطالبهم رسول الله بالبينة)قالوا: ما لنا بينة، قال: فيحلفون، قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود([3]، فاضطر رسول الله أن يدفع ديته مائة من الإبل، ولم يتهم اليهود بلا بينة.

ولم يجعل الشرع لفاقد البينة إلا يمين خصمه - ولو كان الخصم غير ثقة عند المدعي - ويؤيد ذلك ما رواه مسلم في قصة الحضرمي المدعي على كندي؛ بأنه غصبه أرضه، فقال رسول الله

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب الدياث- من ترجمة الباب 22.
[2](?) صحيح البخاري- كتاب تفسير- باب 3- الحديث 4552.
[3](?) صحيح البخاري- كتاب الديات- باب 22- الحديث 6898.

للحضرمي: ألك بينة؟ قال: لا، قال: «**فلك يمينه**»، قال: يا رسول الله إن الرجل فاجر، لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: «**ليس لك منه إلا ذلك**»[1]، ولم يعترض رسول الله على اتهام الرجل لخصمه بعدم التورع في الحلف؛ لأنه من كلام الخصوم بعضهم في بعض - كما بوّب البخاري في الخصومات - وعقب ابن جحر بقوله:)أي فيما لا يوجب حدًا ولا تعزيرًا فلا يكون ذلك من الغِيبة المحرَّمة([2]، كما قال ابن حجر:)يمين الفاجر تسقط عنه الدعوى، ولولا ذلك لم يكن لليمين معنى([3].

وإن من التثبت: أن ترفض الاستماع إلى النمَّام، فقد جاء في مسند أحمد: «**لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[4].

فلا تجعلوا بطانتكم من النمّامين، فإن مَن وشى إليكم اليوم يشي بكم غدًا، ومثله

---

[1](?) إرواء الغليل 8/ 257 من رواية مسلم- كتاب الإيمان- باب 61 الحديث 139.

[2](?) فتح الباري 5/ 73 كتاب الخصومات- باب كلام الخصوم بعضهم في بعض.

[3](?) فتح الباري 11/ 563 كتاب الأيمان والنذور- باب 17.

[4](?) مسند أحمد 1/ 396 وأخرجه الترمذي وأبو داود (جامع الأصول 8/ 452- الحديث 6222) ضعف الأرناؤوط إسناده- وأشار ابن الأثير الجزري إلى أن الشيخين رويا معناه.

ليس أهلًا للثقة - لفسقه بالنميمة - وفي ذلك يقول ابن قدامة المقدسي:)لا تصدِّق الناقل، لأن النمّام فاسق، والفاسق مردود الشهادة([1]، فإن ركنتم إلى النمّامين، وأصبتم إخوانكم بجهالة فلا تنسوا أن تصبحوا على ما فعلتم نادمين.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- بعد انقطاع الوحي لا بد من ضوابط للتبين.
- من منزلقات عدم التثبت:
  - سوء الظن بغير بينة.
  - إشاعة هذا الظن.
  - الحكم على المقاصد والنوايا.
  - عدم التمييز بين خبر الفاسق وخبر العادل.
  - إحسان الظن فيمن لا يوثق به.
- **من أصول التثبت:**
  - الاعتماد على إقرار المتهم وليس على القرائن.
  - الاستماع إلى الطرفين.
  - استشارة أهل العلم.
  - عدم الشهادة على ما لا نعلم بيقين.
  - عدم التسرع حتى يتضح الأمر.
- لا يجوز التحدث عن شخص بتهمة لم تثبت عليه.

---

[1](?) مختصر منهاج القاصدين، ص 190.

- الاتهام بغير تثبت سبب كثير من المظالم.
- الصحابة رغم عدالتهم كانوا مطالبين بالشهود والبيّنات.
- يمين المدعى يدفع عنه التهمة وإن لم يكن ثقة.
- من التثبت عدم الاستماع إلى النمام.
- يمين المدعى عليه يدفع عنه التهمة وإن لم يكن ثقة.
- من التثبت عدم الاستماع إلى النمام.

****

الفصل الرابع

أدب المطاوعة

«..وتطاوعا ولا تختلفا».

كلما كان المسلمون أقرب إلى قطف الثمرة كانوا أحوج إلى تقديم مصلحة الأمة على الأهواء الشخصية، فلابد أن يتنازل أحد الأطراف المختلفة؛ ليطاوع الطرف الآخر،

مؤثرًا ، وجلب الخير العميم، ودفع الشر العظيم.

المطاوعة - في حقيقتها -: استعداد من كل طرف للتنازل للطرف الآخر، إذا وقع اختلاف على أمر ما، وليس المقصود بهذا التنازل الرجوع عن حق صريح واضح، وإنما هو لين جانب حينما يكون الاختلاف بين الحسن والأحسن، أو إرجاء المناظرة في الأمر المختلف فيه؛ إبقاء على المودة، وإيثارًا لصفاء القلب، فكل منهما طيع في يد أخيه، يتنازل هذا تارة، ويتنازل ذاك أخرى.

وهذا الأدب كان واضحًا بين صحابة الرسول ، وخاصة إذا خفي وجهُ الحق في مسألة اجتهادية، ولأننا بشر، فلا نستطيع أن نقطع لأنفسنا بصواب الرأي، وسداد البصيرة، ولابد من التوجه إلى الله؛ ليسدد الخطأ، ويثبت على الحق، وقد كان من دعاء رسول الله في قيامه: **«اهدِني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[1].

وأخطر ما يكون التنازع في مواقف الجهاد والدعوة، ولقد ترجم البخاري بابًا

---

[1])صحيح مسلم-كتاب المسافرين-باب 26/الحديث770(شرح النووي3/203)

بقوله:)باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب(، واستشهد بوصية رسول الله لمعاذ وأبي موسى قبل إرسالهما إلى اليمن: «**يسِّرا ولا تُعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا**»[1]، وكم يكون محرجًا؛ حين يتنازع داعيان فاضلان حول مسألة شرعية والناس بأعينهم ينظرون!

وإنما يحتاج المؤمن لشجاعة التراجع عن الرأي المفرِّق، والتزام الرأي الجامع، وقد ذكر ابن حجر أن عليًّا وعمر كانا يُفتِيان بألا تُباع أم الولد، فقال عبيدة لعلي :)رأيك ورأي عمر في الجماعة، أحب إليَّ من رأيك وحدك في الفرقة([2]، فتراجع علي عن فتواه، وقال:)اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف ([3]، ونبذ الخلاف مقدم على الإصرار على تثبيت رأي أو وجهة نظر اجتهادية، وأما الحق المقطوع فيه، فيقدر الداعية الحكيم على إيصاله بحكمته، بعيدًا عن المشاجرة والخصومات.

ولو أننا نتذكر حال المؤمنين في الجنة، لسعينا لأن نجعل رحلتنا في الدنيا صورة

---

[1])صحيح البخاري كتاب الاجتهاد-باب164 الحديث3038(الفتح 6/126).

[2])فتح الباري7/73.

[3])صحيح البخاري-كتاب فضائل الصحابة-باب9-الحديث 3707(الفتح7/71)

عن حياة أهل الجنة، الذين وصفهم الرسول بقوله: **«لا اختلاف بينهم ولا تباغض، وقلوبهم قلب واحد »**[1]، ولذلك كان رسول الله يُحذِّر من الوقوع في دواعي الاختلاف؛ حتى لا تتنافر نفوس الأمة **«لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»**[2]، ولذلك كان كثير من العلماء يحتفظون لأنفسهم بفتاوى لا يشيعونها بين الناس؛ لتفرُّدهم بها، ولخروجها عما اشتهر في المسألة حذرًا من فتنة العامة أو تشويش طلبة العلم.

وكان من وصيته عندما يسوي صفوف الصلاة أن يقول: **«استووا، ولا تختلفوا؛ فتختلف قلوبكم»**[3]، حتى الاختلاف في صف الصلاة قد ينعكس أثره على تأجيج اختلاف القلوب، فلِينُوا في أيدي إخوانكم، وسوُّوا صفوفكم، واتَّبعوا إمامكم، لعله يترشح من ذلك ائتلاف قلوبكم.

وكلما كان احتكامنا للشرع خالصًا نكون أبعد عن مهاوي الفرقة، وهذا ما يذكر المسلم به نفسهن وهو يدعو في تهجُّده:

---

[1])صحيح البخاري-كتاب بدء الخلق-باب8-الحديث3245(الفتح 6/318).

[2])صحيح مسلم-كتاب الصلاة-باب28 الحديث432(شرح النووي 2/398).

[3])صحيح مسلم-كتاب الصلاة-باب28 الحديث 432(شرح النووي 2/398).

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت»[1].

ويجب على عقلاء الأمة أن يكونوا عونًا في دفع كل خلاف، وفض كل نزاع، والمبادرة إلى الأخذ بما يوحد الصفوف، وقد صف سيدنا عمر اختلاف الناي فيمن يبايعون بعد وفاة رسول الله ﷺ، إلى أن قال:)فكثر الغلط، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسُطْ يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار([2]، وبهذا الموقف الجريء قضى على فتنة كان من الممكن أن تصدع صفوف المسلمين.

ويعين على خلق المطاوعة: التزام حدود الشرع، وطاعة الأمير، وهذا ما وجه إليه رسول الله ﷺ حين قال: **«..ومَن يعِشْ منكم فسيري اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوًا عليها بالنواجذ..»**[3]، وكثيرًا ما يكون أمر أميرك - في عمل أو

---

[1]))صحيح البخاري-كتاب التهجد-باب19- الحديث1120(الفتح 3/3).

[2]))صحيح البخاري-كتاب الحدود-باب31-الحديث6830(الفتح 21/144).

[3]))صحيح سنن ابن ماجه للألباني-مقدمة-باب6-الحديث 40/42(صحيح).

سفر - مخالفًا لما تميل إليه، فإن ذهب كل امرئ حسب هواه، فسنرى اختلافًا كثيرًا، وإن تطاوع كل امرئ مع أميره، وتنازل لرأيه، فتلك هي السنة.

ولابد أن يتنادى المخلصون للقضاء على أي فتنة عند بوادر أي اختلاف، وهذا ما كان من حذيفة حين أخبر عثمان باختلاف الناس في قراءة القرآن، فقال له:)أدرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى..([1].

ولعل ما يحبب في المطاوعة، وينفر من الخصومة، استحضار ما ورد في الترهيب من اللجاجة والمراء والتنازع، فقد جاء في صفات المنافق أحاديث كثيرة منها: «**.. وإذا خاصم فجر**»[2]، و«**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[3]، وقد تعهد رسول الله ببيت في رَبَض الجنة لمن يترك المراء والجدل وهو يعلم أنه على حق وصواب: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن**

---

[1])صحيح البخاري-فضائل القرآن-باب3-الحديث4987.
[2])صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب24-الحديث34(الفتح1/89).
[3])صحيح البخاري-كتاب الأحكام-باب3-الحديث7188(الفتح 13/180).

كان محقًّا»[4]، وهذه أعلى درجات المطاوعة.

وإنما يكون هلاك الأمة باختلافها كما جاء في الحديث: **«..فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»**[1]، ولو تنازل بعضهم لما اختلفوا، ولما هلكوا، وقد كان القرن الأول في أسمى صور المطاوعة، ومن ذلك ما ورد أن عثمان صلى في منًى أربعًا فبلغ ذلك ابن مسعود فأزعجه ما سمع، ومع ذلك صلى معه أربعًا، فلما سئل عن ذلك قال: (الخلاف شر)[2]، ولما نُوقشت البيعة بعد رسول الله ، قال رجل من الأنصار: منا رجل ومنكم رجل، فقال عمر : (سيفان في غمد واحد؟! إذا لا يصطلحان)[3]، وهذا من فقه عمر .

وإن النفوس العالية لتملك أن تعامل بسلامة الصدر مهما عظم الخلاف فقد قال علي في حق من خرجوا عليه يوم الجمل حين سئل عنهم: أكفار هم؟ أم منافقون؟ أم ماذا؟ فقال: (إخواننا بغوا علينا)[4] ولم يقبل أن يتهمهم بكفر أو نفاق، وقد كان

---

(4) أخرجه أبو داود وإسناده صحيح(جامع الأصول11/734برقم 9419).

(1) صحيح البخاري-كتاب الخصومات-باب1-الحديث2410(الفتح 5/70).

(2) حياة الصحابة 2/9(نقلًا عن الكنز 4/242).

(3) سنن البيهقي8/173.

(4) طبقات بن سعد3/224، وسنن البيهقي8/173.

ممن قاتله في معركة الجمل الصحابي طلحة ، فكان يقول لعمران بن طلحة: (إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله عز وجل فيهم: {**مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**}[الحجر:47][1]، أفلا نتخلق بالمطاوعة، والنفور من الاختلاف؛ لنكون إخوانًا في الدنيا والآخرة، ولتسلم صدورنا من تحريش الشيطان، ولتقوم للأمة دولة وسلطان.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- المطاوعة استعداد للتنازل عند الاختلاف.
- لا نستطيع أن نقطع بصواب رأي اجتهادي.
- من أوجب المواطن للمطاوعة مواقف الجهاد والدعوة.
- نبذ الخلاف مقدم على الإصرار على إثبات رأينا.
- لئلا يقع الخلاف نتجنب دواعيه.
- من صور المطاوعة اللين في تسوية صفوف الصلاة.
- يقضى على الخلاف باتخاذ رأي حازم والشروع فيه.

---

[1])طبقات بن سعد3/224، وسنن البيهقي8/173.

- المخلصون يتنادون للقضاء على أي خلاف.
- من عواقب البعد عن المطاوعة الوقوع في الخصومات والجدل.
- الخلاف من أسباب هلاك الأمة.
- مهما عظم الخلاف فلا ينبغي الخروج عن الإنصاف.

****

الفصل الخامس
اصطفاء البطانة

«اللهم يسر لي جليسًا صالحًا».

سواء أكنت رئيسًا أم مرؤوسًا، مأمورًا أم آمرًا، فلابد أن يكون لك أصحاب تقربهم إليك، وتستأنس بهم، وتشاورهم في كثير من أمورك، وهؤلاء هم بطانتك، وقد غلب استعمال لفظ«البطانة» مع الأمراء، وقد

فسر ابن حجر البطانة: بالدخلاء، جمع دخيل: (وهو الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته، يفضي إليه بسره، ويصدقه فيما يخبره به مما يخفى عليه من أمر رعيته، ويعمل بمقتضاه)[1].

كثيرًا ما نرى من أهل الصلاح من يزل زلات، إنما استدرجته إليها بطانة فاسدة، زينت له الباطل، وحجبت الحق عن عينيه، ومسؤولية أحدنا تبدأ من حسن الاختيار للأصحاب، فالصاحب دليل على صاحبه؛ إذ إن النفوس المتماثلة تتجاذب فيما بينها، كما بيَّن رسول الله بقوله: **«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»**[2]؛ لأن أية صحبة لا تخلو من تأثير وتأثر، وقد كان سلف الأمة يحرصون على الأنس بالجليس الصالح، والصاحب التقي، الذي يعني على الخير، ويزيل وحشة الغربة، وقد ورد عن علقمة أنه حين قدم الشام غريبًا دعا: (اللهم يسر لي جليسًا صالحًا)[3]؛ لأن الجليس الصالح يذكرك إذا غفلت، ويعينك إذا تذكرت.

---

[1])فتح الباري13/190-كتاب الأحكام-باب42.

[2])أخرجه أبو داود والترمذي وإسناده حسن(جامع الأصول 6/667الحديث4967).

[3])صحيح البخاري-كتاب فضائل الصحابة-باب20الحديث 3743(الفتح 7/91).

والرسول بيَّن أنه ما من نبي، ولا خليفة، إلا ويقع بين دواعي بطانتين: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه**»[(1)]، وفي رواية «**وبطانة لا تألوه خبالًا**»[(2)]، وإذا أردت أن تحتاط لأمر دينك، فمن البداية خذ بوصية رسول الله باختيار صالحي المؤمنين لبطانتك: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا**»[(3)] ثم لاحظ ما تراه من حرص أخيك على جلب الخير إليكن وعلى اتقاء مساءتك، فإن أفضلهم صحبة - كما في الحديث - أكثرهم حرصًا على جلب الخير إليك**: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه»**[(4)].

وأولى الناس بالتقريب، هم أهل العلم والصلاح، ولذلك فقد كانت بطانة عمر من القراء، روى ابن عباس أنه: (كان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته -

---

[1])صحيح البخاري-كتاب الأحكام-باب42-الحديث7198(الفتح 13/189).

[2])مسند أحمد2/237. وقد صحح أحمد شاكر رحمه الله إسناده(7238).

[3])أخرجه ابو داود والترمذي وإسناده حسن(جامع الأصول 6/666الحديث4966).

[4])صحيح سنن الترمذي للألباني2/184الحديث1586(صحيح).

كهولًا كانوا أو شبانًا)[1]، وكلما كانوا من أهل العلم والتقوى كنت أبعد عن الزلل - بإذن الله - وقد توَّج البخاري أحد أبواب صحيحه بقوله: (وكانت الأئمة بعد النبي يستشيرون الأمناء من أهل العلم..)[2]، وفي فاتحة باب آخر ينقل عن علي وشريح قولهما في المرأة التي تدعي أنها حاضت في شهر ثلاثًا: (إن جاءت ببينة من بطانة أهلها - ممن يرضي دينه - ..صدقت.)[3]، فالمقياس صلاح دين الرجل، وليست معايير الطين والمادة، والذوبان في شخصية الصاحب.

وإن كتمان العيوب عن الصاحب خيانة، والكيد لوقيعة من اصطفاك لبطانته جريمة، ورسولنا استعاذ من ذلك: «**.. وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»[4]، وحين سأل ابن مسعود عن أيام الهرج متى تكون؟ أجابه رسول الله بأبرز فتن هذه الأيام. فقال: «**حين لا يأمن الرجل**

---

[1])صحيح البخاري-كتاب التفسير-باب5-الحديث4642(الفتح 8/304).

[2])صحيح البخاري-كتاب الاعتصام-من ترجمة باب28(الفتح 13/339)

[3])صحيح البخاري-كتاب الحيض- من ترجمة باب24(الفتح 1/424).

[4])أخرجه أبو داود والنسائي-وهو حسن-(جامع الأصول 4/357الحديث2389).

جليسه»[1]، فهذا أمر يحتاج إلى التحري والاصطفاء البعيد عن الهوى؛ حتى يجد المرء من يأمنه، ومن يطمئن لصحبته.

ومن مزايا البطانة - إذا صلَحت - أنها تَحُول دون شر كبير، وتحض على خير كثير، ومن خطورة البطانة - إذا فسدت - أنها قد تحسن القبيح، أو تقبح الحسن؛ بالوسوسة والتظاهر بالإخلاص، وقد وصف أشهب بطانة الحاكم بقوله: (وليكن ثقة مأمونًا فطنًا عاقلًا؛ لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون من قبوله قول من لا يوثق به، إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك)[2].

وقد رأينا في واقعنا أناسًا خاصموا وفجروا وقاطعوا وهجروا.. بتحريض بطانة حركت الغضب للذات، وأبدت الحرص على صاحبها، والهيام فيه، أكثر من عصبيته لنفسهن فاستعظم الرجل نفسه، وهوى في شباك وساوس شياطين الإنس، فعادى الناس وشاتمهم مع ما يعرف من صلاحه الشخصي.

فالجليس الصالح كحامل المسكن وقد تكون الريح الطيبة التي تجدها منه كلمة

---

[1])مسند أحمد1/448 وصححه أحمد شاكر في شرح المسند 6/143برقم 4286.

[2])فتح الباري13/190-كتاب الأحكام-من شرح الباب42.

حق صريحة، فيجب أن تلقى منك تجاوبًا وتقديرًا؛ لأن مبعثها الإخلاص للحق، ومن شواهد ذلك أن عبادة بن الصامت حدث بحديث استنكره معاوية؛ لأنه لم يسمعه من رسول الله ﷺ، فقال عبادة: (لنحدثن بما سمعنا من رسول الله ﷺ وإن كره معاوية)[1].

ومن ثمرات البطانة الصالحة: المشورة بالرشد والسداد للرأي؛ لأن الأصل في المستشار الأمانة، والإشارة بالأصلح، لقوله ﷺ: **«المستشار مؤتمن»**[2]، وفي الحديث: **«مَن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه»**[3]، فانظر فيمن وثقت، وبمن استرشدت، فكل امرئ يحشر مع بطانته المختارة، لأن **«المرء مع من أحب»**[4] - كما أخبر ﷺ - ومن بركة البطانة الصالحة أنه تعمك الرحمة بينهم، وإن لم تكن بمنزلتهم، فقد جاء في الحديث أن الله يشهد ملائكته بأنه يغفر لقوم جلسوا يذكرون الله، فيقول ملك: فيهم فلان ليس منهم، وإنما جاء

---

[1] ()صحيح مسلم-كتاب المساقاة-باب الربا-الحديث80(شرح النووي 11/14).

[2] ()أخرجه أبو داود والترمذي-وحسنه الأرناؤوط(جامع الأصول 11/562الحديث9172).

[3] ()مسند أحمد2/321واللفظ له، ورواه أبو داود بإسناد حسن(جامع الأصول11/562).

[4] ()أخرجه البخاري ومسلم(جامع الأصول6/558الحديث4787).

لحاجة، فيقول الله عز وجل: **«هم الجلساء؛ لا يشقى بهم جليسهم»**[1]، وتلك من بركات صحبة أهل الخير.

فإن كانت لك بطانة فأحسن اختيارها، واعمل بما يشيرون عليك من الخير، وإن كنت بطانة لغيرك فكن صريحًا صادقًا أمينًا، وأَشِرْ بكل خير.

وبالتزام خُلُق «اصطفاء البطانة» تسقط الأقنعة الكاذبة وتنكشف الحقائق، ويتميز كل فريق باهل وده وأصحاب خلته، فانظر من تخلل.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- البطانة تؤثر بأفكارها وأخبارها.
- حسن اختيار البطانة يجنب كثيرًا من المفاسد.
- من أراد الاحتياط لدينه يختار الصالحين لصحبته.
- أهل العلم هو أولى الناس بالتقريب والمشورة.
- في أيام الفتن لا يأمن الرجل جليسه.
- **من خطورة البطانة الفاسدة:**
  - أنها تحسن القبيح.
  - تسبب الخصومات.
- **من ثمرات البطانة الصالحة:**

---

[1] صحيح البخاري-كتاب الدعوات-باب66-الحديث6408(الفتح 11/208)

- حسن المشورة.
- عموم الرحمة.

الباب الخامس

من أخلاقنا في الربانية

الفصل الأول : الربانية.
الفصل الثاني : الاهتمام بالآخرة.
الفصل الثالث : الورع.
الفصل الرابع : إطابة المطعم.
الفصل الخامس : سرعة الفيئة.
الفصل السادس : الثبات.

****

الفصل الأول

الربانية

{..**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ**.. }

كم ينشرح صدرك حين تلقى قوة المؤمن وصلابته وعزيمته وجديته.. مشفوعة

بسكينة وإخبات ورقة وصفاء! وهو ما يتمثل في شخصية المسلم بخلق الربانية.

وُصِف الربانيون في القرآن بأوصاف عديدة تتكامل بها صفاتهم. فقد وُصفوا بالثبات في الجهاد والصبر على البلاء {**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**}[آل عمران: 146]، والرِّبيّون بمعنى الجماعات الكثيرة من العباد والعلماء والربانيين - جمعًا بين التفاسير[1].

ومن علامات الربانيين أنهم يحرصون على تحكيم الشريعة وإقامة الدين {**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ**}[المائدة: 44]، وفي موضع آخر وصفهم الله بأنهم المرشَّحون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**}[المائدة: 63].

وجعل الله الأمر بالاتصاف بالربانية على لسان مَن يُؤتِيهم الله الحكم والنبوة وجعل

---

[1])يراجع تفسير القرطبي4/230عند تفسير الآية146 من آل عمران.

الله ميزة الربانيين في قيامهم بتعليم كتاب ربهم وحرصهم على الاستمرار في التعلم {**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**} [آل عمران: 79]، فالرباني يبني نفسه ويبني غيره، يعمل بما علم ويعلم ما تعلم.

وقد حوت كتب التفسير والسنة كثيرًا من الصفات المميزة للرجل الرباني، ففي صحيح البخاري وعند ترجمة (باب العلم قبل القول والعمل): (قال ابن عباس: كونوا ربانيين: حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره) [(1)].

يقول ابن حجر: (والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها، وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده..) [(2)].

فالرباني صاحب حكمة وصاحب فقه، ومن حكمته أنه يتدرج بالمدعوِّين وييسر عليهم على علم وبصيرة وحسن عمل،

---

[1] ()صحيح البخاري-كتاب العلم-من ترجمة الباب10.
[2] ()فتح الباري1/162عند شرح الباب 10 من كتاب العلم.

ينقل ابن حجر عن ابن الأعرابي قوله: (لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالمًا معلِّمًا عاملًا)[1].

وأساس الربانية الإخلاص في ابتغاء رضي الرب - عز وجل - قال الأصمعي والإسماعيلي: (الرباني نسبة إلى الرب أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل)[2]، وقيل إنه منسوب إلى التربية، والتربية أبرز ما في حال الرباني.

وقد روي عن علي في وصف الربانيين قوله: (هم الذين يغذُّون الناس بالحكمة ويربونهم عليها)[3]، كما قيل إنه مشتق من قولهم: ربه يربه فهو ربان إذا دبره وأصلحه. (فمعناه على هذا: يدبرون أمور الناس ويصلحونها)[4]، وفي تفسير ابن مسعود لقوله تعالى: {**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**} قال: حكماء علماء. ويقول ابن جبير: حكماء أتقياء.

ومن اللفتات الطريفة في وصف الرباني أنه الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة [5]، وهي إشارة طريفة تنفي التصور

---

[1])) المصدر السابق.

[2])) فتح الباري 1/161 عند شرح الباب 10 من كتاب العلم.

[3])) زاد المسير في علم التفسير 1/413 عند تفسير الآية 79 من سورة آل عمران.

[4])) تفسير القرطبي 4/122 عند تفسير الآية 79 من سورة آل عمران

[5])) عن تفسير القرطبي 4/122

المتفشي عن العالم الرباني بأنه بعيد عن عصره، مغفل في قضايا الحكم والسياسة. وقد أكد هذه الميزة في الرباني أبو عبيدة بقوله: (سمعت عالمًا يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، العارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون)[1].

فهو مدرك لتاريخ الأمة، مبصر لسنن الله في خلقه بصرًا يتيح له أن يتوقع ما يكون حين تتوفر أسباب مضاء السنة الكلونية والاجتماعية.

ويتميز (الرباني)بأنه الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه»[2]، أما حين يغفل العلماء عن مجتمعاتهم أو يسكتون عما يجري فيها ويتساهلون فتلك ظاهرة الفناء كما يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ**}[المائدة: 63]يقول: (فهذه السمة - سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان - هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار)[3].

---

[1]))المصدر السابق.

[2]))تفسير أبي السعود1/379

[3]))في ظلال القرآن2/928عند تعليقه على الآية63من سورة المائدة

ويتميز سيد قطب رحمه الله غيظًا من علماء المسلمين الذين انزلقوا إلى ما وقع فيه علماء أهل الكتاب حيث يقول: (ومثل هذا الفريق من أهل الكتاب فريق ممن يدعون الإسلام ويدعون العلم بالدين.. وهم أولى بأن يوجه إليهم هذا القرآن اليوم، وهم يلوون النصوص القرآنية ليًّا لإقامة أرباب من دون الله في شتى الصور، وهم يتصيدون من النصوص ما يلوونه لتمويه هذه المفتريات{**وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}[آل عمران: 78][1].

فلا مجاهد بلا ربانية، ولا ربانية بغير علم وعمل وحكمة وإخلاص وصبر وتربية وبصيرة.. والذين يتبوؤون مراكز التوجيه ويتصدرون ساحات الجهاد لا بدَّ أن يأخذوا أنفسهم بالعزيمة ليحسنوا أداء دورهم "القدوة" وليستحقوا من الله تبوأ "العليين" و"مقعد صدق" في الدار الآخرة، ولينالوا وسام (الربانية)بما يتعلمونه ويعلمونه.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- **من صفات الربانية:**

- الثبات في الجهاد والصبر على البلاء.

[1])في ظلال القرآن1/420عند تعليقه على الآية78من آل عمران، والآية الأخيرة من آل عمران.

- تحكيم الشريعة وإقامة الدين.
- تعلم الكتاب وتعليمه.
- تعليم صغار العلم قبل كباره.
- الإخلاص والحكمة.
- العلم مع البصر بالسياسة.
- الكمال في العلم والعمل.

- تفسد المجتمعات حين لا يقوم الربانيون بدورهم.
- إذا لم يتميز العلماء بالربانية لم يؤمن عليهم من لي النصوص.

****

الفصل الثاني

الاهتمام بالآخرة

«من جعل الهموم همًّا واحدًا هم المعاد كفاه الله سائر همومه»

يعيش المؤمن الداعية كثيرًا من الهموم، وربما كان تكاثر الهموم سببًا لتشتيت القلب عن الهدف، ولصرف الهمة إلى مشاغل أهل الدنيا واهتماماتهم فتزول الميزة وينعدم التميز وتختلط الموازين.

إن من هوان أمر الدنيا أن جعلها الله لا تدوم لأحد «**إن حقًّا على الله تعالى أن لا يرفع شيئًا من أمر الدنيا إلا وضعه**»[1]، وإنما هي أيام يداولها الله بين الناس، فيرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز أقوامًا ويذل آخرين لتتحقق حكمة الله في ابتلاء العباد.

إن الله يعطي الدنيا للمؤمن والكافر ولا يعطي الدين إلا لمن يحب. وقد تعجب رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمرو حين رآه يصلح جدار بيته ويطينه فأراد أن يخلي قلبه من التعلق بالدنيا، وأن يُذكّره بقرب الأجل للاستعداد له، فقال ﷺ: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك**»[2]، ليجعل الآخرة همه والاستعداد لها شغله فإذا بالغ امرؤ في الانصراف عن أعمار الدنيا والسعي فيها فيحتاج إلى لفتة من نوع آخر{**وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**} [القصص: 77] بحيث يبقى على جادة القصد والتوازن.

وإن العبد المحفوف بالنعيم قد يكون مُستدرَجًا لمزيد من المسؤولية والعذاب وهو لا يدري «**إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو**

---

[1]))صحيح الجامع برقم2057(صحيح)

[2]))صحيح الجامع برقم 5526(صحيح).

مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»[1]، فلا تحزن على ما فاتك منها، ولا تمُدنَّ عينَيْك إلى ما أوتي الناس من الدنيا فربما كانوا لا يحسدون عليها إذا لم يؤدُّوا حقها.

والخطورة في أن تكون هذه النِّعم الأجر العاجل ليُحرَم صاحبها الأجر الآجل حيث يكون في أشد الحاجة لما يرجح كف حسناته؛ ولذلك طيب رسول الله ﷺ خاطر أصحابه حين ذكروا نعيم الروم والفرس، فقال: «**أولئك قوم عُجِّلت لهم طيِّباتُهم في الحياة الدنيا»**[2].

وغالب حال الناس كما قال ﷺ: «**أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا في الآخرة»**[3]، وذلك لقلة الشاكرين، وكما قال ربنا عز وجل: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا**}[الإسراء: 18].

وكل نعمة مهما صغرت، عليها حساب ومسؤولية، فالمسكين مَن لم يقم بحقها لا من حرم منها في الدنيا: «**إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من**

---

[1])صحيح الجامع برقم561(صحيح).

[2])صحيح البخاري-كتاب المظالم-باب25-الحديث2468(الفتح 5/116)

[3])صحيح الجامع برقم1199(حسن)

النعيم أن يقال له: ألم نصحَّ لك جسمك ونُرويَك من الماء البارد؟»[1].

ولذلك كان من علامة طريق الجنة أنه محفوفٌ بالبلاء، ولا يهون البلاء إلا على من جعل الآخرة همه، «**حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات**»[2].

وإن كمسؤولية المسلم الذي يُقدِّر الله حق قدره أن يوحد همه فيفكر في المال والمصير، لا أن يصرف كل جهده وفكره ووقته في صغائر الأمور وتوافهها. وبقدر ما يكون لله في قلب العبد من توقير وإجلال ورهبة يكون للعبد عند الله من الأجر والمنزلة «**من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده**»[3].

ومن كان دائم التفكير في رضي الله فإنه لا تشغله النعمة ولا يعميه البلاء، ومن كان مع الله في اليسر كان الله له في العسر«**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[4].

ومثل هذا الحال يقتضي من المؤمن أن يكون دائم الرقابة لله والحياء منه أكثر مما يحتاط ويستحيي من البشر«**ما كرهتَ أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك**

---

[1]))صحيح الجامع برقم2022(صحيح).
[2]))أخرجه مسلم والترمذي(جامع الأصول10/521).
[3]))صحيح الجامع برقم6006(حسن).
[4]))صحيح الجامع برقم2961(صحيح).

إذا خلوت»[1]، و«**اعبُدِ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[2].

والمهتم بآخرته إذا ذكر بخطئه سريع الفيئة قريب الرجعة «**إذا ذُكّرتم بالله فانتهوا»**[3].

والذي يخاف الله في الدنيا ويحذر معصيتَه ويحتاط لأمر آخرته، فذلك هو الآمن يوم القيامة «**قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي»**[4].

والمهتم بآخرته يفكر فيما يقربه إلى الجنة ويباعده عن النار، وقد جعل الله مدار المسؤولية على انبعاث إرادة الإنسان إلى الطاعة أو المعصية لذلك قال ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك»**[5]، وإذا صدق المرء في مجاهدة نفسه يسر الله له السبيل {**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**}[مريم: 76].

---

[1])صحيح الجامع برقم5659(حسن).

[2])صحيح الجامع برقم1037(حسن.9

[3])صحيح الجامع برقم546(حسن).

[4])صحيح الجامع برقم4332(حسن).

[5])أخرجه البخاري(جامع الأصول10/522برقم8071).

والمهتم بآخرته لا يرى الدنيا دار قرار لشعوره بقرب الرحيل إلى دار الخلود، قال ﷺ: «**قال لي جبريل: يا محمد عِشْ ما شئتَ فإنك ميِّت، وأحبِبْ مَن شئت فإنك مُفارقه، واعمَل ما شئتَ فإنك مُلاقِيه**»[1].

ولذلك كا مما تعجب منه ﷺ انفتاح أبواب الخير وغفلة الإنسان عنها ولاحقة الفتن للمرء وعدم فراره منها «**ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها**»[2]، بينما يكون المهتم بآخرته شديد الحرص على اتقاء المنكرات، والمسارعة في الخيرات.

وحال المهتم لأمر آخرته التخفف من العلائق والزهد بالصوارف «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[3] والجدية في الحياة علامة مميزة للراغب الراهب «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»[4] والهمة في العمل علامة صدق الاستعداد للآخرة والخوف من الله، وذلك ما مثله رسول الله ﷺ بقوله: «**مَن خاف أدلج ومَن أدلَج بلغ**

---

[1])صحيح الجامع برقم4355(حسن).
[2])أخرجه الترمذي(جامع الأصول11/19برقم8487).
[3])أخرجه البخاري والترمذي(جامع الأصول1/392برقم185).
[4])صحيح البخاري-كتاب التفسير-باب12-الحديث4621(الفتح 8/280).

المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1]، أما من كان سفره طويلًا، وانطلاقه متأخرًا، وحركته بطيئة، وهمته ضعيفة فلن يبلغ مراده، ولن يصل إلى مقصوده.

ومن أهم ما يورثه الاهتمام بأمر الآخرة أن يزيح الله به عن القلب باقي الهموم ليصفوَ القلب لله وإن كان في بحر من الابتلاءات، قال ﷺ: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا همَّ المعاد كفاه الله سائر همومه، مَن تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يُبالِ الله في أي أوديتِها هلك»**[2].

و«**مَن كانت الآخرة همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا همَّه؛ جعل الله فقرَه بين عينَيْه، وفرَّق عليه شمله. ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له»**[3].

فتجارة الآخرة لا تبور، والتهافت على الدنيا لا يغير المقدور.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

---

[1] صحيح الجامع برقم6222(صحيح)، ومعنى الإدلاج: السير في أول الليل. والمراد به التشمير في أول الأمر، فإن سار من أول الليل كان جديرًا ببلوغ المنزل(جامع الأصول4/9/الحديث1981).

[2] صحيح الجامع برقم6189(حسن).

[3] صحيح الجامع برقم6510(صحيح).

- من سنة الله في أمور الدنيا أنها ترفع وتوضع
- من هوان الدنيا على الله أنه يَهَبُها للكافر.
- لكما زادت النعم عظُمت المسؤولية.
- قد تكون النعم عاجل الأجر لصاحبها
- من علامة طريق الجنة أنه محفوف بالبلاء.
- **المهتم بآخرته:**
- يتعرف إلى الله في الرخاء والشدة.
- سريع الفيئة إذا أخطأ.
- يفكر فيما يقربه إلى الجنة ويباعده من النار.
- لا يرى الدنيا دار قرار.
- يتخفَّف من الدنيا ويزهد.
- شديد الهمة والخوف من الله.
- يجعل همومه هما واحدًا هم المعاد.
- غنى القلب.

****

الفصل الثالث

الورع

«كن ورعًا تكن أعبد الناس».

إن مَن عرَف ربه وقدَّره حق قدره، وعظَّم حرماته وشعائره، يصل به التعظيم إلى الحيطة والحذر من كل ما يكون مظنة غضب الرب - عز وجل - في الحال أو في المال.

فالورع عنده نوع من الخشية والرهبة تجعله يترك كثيرًا من المباحات إن التَبَست عليه مع الحرام لئلا يجازف بدينه؛ ولهذا عرف الهروي الورع بقوله: (الورع تَوْقٌ مُستقصًى على حذر، وتحرُّج على تعظيم)[1].

ومن العلامات الأساسية للورعين بشدة حذرهم من الحرام، وضعف جرأتهم على الأقدام إلى ما قد يجر إلى الحرام، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: **«الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان»**[2]، فمَن تجرَّأ على مواضع الريبة والشك تزدَدْ جرأتُه على ما هو أشد **«وأنه مَن يخالط الريبة يوشك أن يجسر»**[3].فالورع الحقيقي كما وصفه يونس بن عبيد: (الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين)[4].

---

[1] ()تهذيب مدارج السالكين ص290.

[2] ()صحيح البخاري-كتاب البيوع-باب2-الحديث2051(الفتح 4/290).

[3] ()سنن أبي دواد-كتاب البيوع باب3الحديث3329من روايات حديث **«الحلال بيِّن والحرام بيِّن»**

[4] (?)تهذيب مدارج السالكين ص290.

ورحلة الانحدار تبدأ بزلة واحدة.
والحريص على آخرته يجعل بينه وبين الانزلاق وقايات تستره وتحميه, وقد أشار إلى هذا المعنى الشيخ القباري بقوله: (المكروه عقبة بين العبد والحرام؛ فمَن استكثر من المكروه تطرَّق إلى الحرام, والمباح عقبةٌ بينه وبين المكروه؛ فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه)[1]، واستحسن ابن حجر قوله هذا وزاد عليه: (أن الحلال حيث يخشى أن يؤول فعله مطلقًا إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه كالإكثار - مثلاً - من الطيبات فإنه يحوج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق, أو يفضي إلى بطر النفس, وأقل ما فيه الاشتغال عن مواقف العبودية, وهذا معلوم بالعادة, مشاهد بالعيان...)[2].
والعلامة الأساسية لصاحب الورع قدرته على ترك ما فيه مجرد الشك أو الشبهة كما قال الخطابي: (كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه)[3].
ونقل البخاري عن حسان بن أبي سنان قوله: (ما رأيت شيئاً أهون من الورع: دع

---

[1] (?)فتح الباري 1/127 عند شرح الحديث52(الحلال بين) من كتاب الإيمان- باب 39.
[2] (?)فتح الباري 1/127.
[3] (?)فتح الباري 4/293- من شرح الباب 3- من كتاب البيوع.

ما يريبك إلى ما لا يريبك)[1] كما ورد عن الرسول أنه قال: «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب, والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب - وإن أفتاك المفتون**» [2] ويؤكد ذلك ما رواه ابن عساكر مرسلاً: «**ما أنكره قلبك فدعه**» [3].

وأصحاب المراتب العالية يحتاطون لأنفسهم بالحذر من بعض الحلال الذي قد يُفضِي إلى شيء من المكروه أو الحرام, فقد ورد عن الرسول أنه قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به البأس**» [4]، ويُؤكّده الحديث الآخر: «**اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال...** » [5]، ومن لطيف ما حدَّث به ابن القيم - رحمه الله - (قال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تميمة - قدس الله روحه - في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية, وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة)[6].

---

[1] (?)صحيح البخاري- من ترجمة الباب 3- من كتاب الإيمان.
[2] (?) صحيح الجامع برقم 2881(صحيح).
[3] (?)صحيح الجامع برقم 5564(صحيح).
[4] (?)أخرجه الترمذي- حسنه الترمذي وغيره(جامع الأصول 4/682 الحديث 2791).
[5] (?)صحيح الجامع برقم 152(صحيح).
[6] (?)تهذيب مدارج السالكين ص 292.

وكما يشمل الورع صور الكسب والمعاملات فإنه يشمل اللسان. فقد تجد كثيرا من الناس يندفعون إلى الفتوى وهم لا يعلمون؛ ولذلك عقد الدارمي بابًا في (التورُّع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة).

ويعتبر إسحاق بن خلف الورعَ في الكلام أشدَّ من الورع في التعاملات المالية؛ حيث يقول: (الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة..)[1].

ومِن تأمُّل ابن القيم في أحاديث رسول الله أعلن أنه (جمع رسول الله الورع كله في كلمة واحدة، فقال: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**)[2].

ومن الثمرات البارزة لخلق الورع أنه يعصم صاحبه من الاستدراج لذلك تجد(من تعاطى ما نهي عنه يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يختَر الوقوع فيه)[3]، كما قال ابن حجر, وفي حديث الإفك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها عن السيدة زينب بنت جحش حيث حَمَت سمعها وبصرها من

---

[1](?)تهذيب مدارج السالكين ص290.

[2](?)المصدر السابق.

[3](?)فتح الباري 1/127-128 من شرح الباب 39 من كتاب الإيمان.

الخوض فيما لا تعلم: (فعصمها الله عز وجل بالورع)[1].

كما أن صاحب الورع يحمي دينه وعرضه من الطعن (فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه)[2].

يقول ابن حجر: (وفيه دليلٌ على أن مَن لم يتوقَّ الشبهات في كسبِه ومعاشه، فقد عرَّض نفسه للطعن فيه, وفي هذا إشارة إلى المحافظة على أمور الدين ومراعاة المروءة.)[3].

فإذا كانت أعلى منازل العبادة الورع (كن ورعاً تكن أعبد الناس)[4]، وإن كان أفضل الدين التورُّع (خير دينكم الورع)[5]، أفلا يرتقي الداعية المؤمن إلى تلك الذروة ويربأ بنفسه عن السقوط والانزلاق, وهو الحريُّ بالحذر والاحتياط والخوف من أن يُحبَط عمله وهو لا يشعر.

فإن كثيرًا من الصحابة كانوا يخافون على أنفسهم من النفاق, ويعلل ابن حجر ذلك بقوله: (ولا يلزم من خوفهم من ذلك - النفاق - وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل

---

[1] (?)صحيح البخاري-كتاب المغازي-باب 34- الحديث 4141 (الفتح 7/431).
[2] (?)صحيح البخاري- كتاب الإيمان - باب30 -الحديث 52 (الفتح 1/126).
[3] (?)فتح الباري1/127.
[4] (?)صحيح الجامع برقم 4580(صحيح).
[5] (?)صحيح الجامع برقم 3308.

المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم)[1].
هكذا كانوا فلنراجع أنفسنا ولنَزِنْ أعمالنا.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الورع خشيةٌ تدفع إلى ترك كثير من المباحات احتياطًا.

- من علامات الورع:

- شدة الحذر من الحرام والشبهات.
- اتخاذ وقاية بينه وبين المنهيات.
- اجتناب كل ما يشك فيه.
- عدم التوسع في المباح.
- عدم الفتوى بغير علم.
- تركه ما لا يعنيه

- من ثمرات الورع.

- تحصين النفس من الاستدراج.
- حماية الدين والعرض.

- من ورع الصحابة أنهم كانوا يخشون على أنفسهم من النفاق.

****

[1] (?)فتح الباري 1/111 من شرح باب 36 من كتاب الإيمان.

الفصل الرابع
إطابة المطعم

{**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**}
إن تحرِّي الرزق الحلال مسألة يومية,
تقتضي من كلٍّ منا أن يديم استحضارها
والتواصي بها, فإن لم يكن لدينا كوابحُ
إيمانية توقفنا عن الانسياق وراء شهوة

المال وقعنا في الشبهات ثم في الحرام, والخطورة تكمن في استمراءِ النَّفْس للحرام واعتيادها عليه أو عدم مبالاتِها فيه.

كثيرًا ما أوصى رسول الله ﷺ بتحليل الرزق و«**إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** {**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...**}[المؤمنون:51][1] ، وقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...**}[البقرة:172]» وجعل - عليه الصلاة والسلام - عدم المبالاة بهذا الأمر من صفات شرار الخلق فقال: «**يأتي على الناس زمان لا يُبالِي المرء ما أخذ منه, أمن الحلال أم من الحرام**»[2]، وقد ورد في خطبة لعثمان بن عفان ﷺ (وعفُّوا إذا أعفَّكم الله, وعليكم من المطاعم بما طاب منها)[3].

ومن أبرز صور الرزق الطِّيِّب ما كان بعمل اليد مع استفراغ الجهد والطاقة في الإتقان والإحسان «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان**

(?)[1] الحديث أخرجه مسلم والترمذي (جامع الأصول 10/565 الحديث 8131).

(?)[2]صحيح البخاري -كتاب البيوع - باب 7- الحديث 2059.

(?)[3]الموطأ -كتاب الاستئذان- باب 16- الحديث 42.

يأكل من عمل يده» [1]، وإذا ما أردت أن تأوي إلى مضجعك منشرح الصدر فإن (من بات كالاًّ من عمله بات مغفورًا له)[2].

ولا فرق بين مهنة وضيعة ومهنة رفيعة، المهم أن يكون الرزق حلالاً، وقد كان هذا شأن الأنبياء، وعلى ذلك ربَّى رسول الله صحابته، فكان يُخاطِبهم بكل وضوح: **«لأن يحتطِبَ أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه»** [3].

والمصيبة الكبرى في سؤال الناس أن نفسية المرء تعتاد الاتكال على الآخرين وتركن إل الكسل، والدين الذي يدعو إلى الجهاد لا يقبل لأتباعه أن يكونوا عالةً في أرزاقهم, ولا متطفِّلين على أموال غيرهم بغير طيب نفس، **«لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»** [4]، وقد طلب حكيم بنُ حزامٍ من رسول الله في موقفٍ واحد ثلاث مرات. ورسول الله يعطيه في كل مرة, ولكنه لم يتركه حتى أدَّبه بأدب الإسلام: **«يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو؛ فمن أخذه**

---

[1] (?)صحيح البخاري -كتاب البيوع- باب 15- الحديث 2072.
[2] (?)أدرجه ابن حجر في (الفتح 4/306) عند شرح الحديث 2072 وعزاه إلى فوائد هشام بن عمار.
[3] (?)صحيح البخاري- البيوع- باب 15- الحديث 2074.
[4] (?)صحيح الجامع برقم 7662 (صحيح).

بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه, وكان كالذي يأكل ولا يشبع, واليد العليا خير من اليد السفلى» [1]، فأقسَم حكيمٌ ألا يطلب بعد ذلك شيئًا, ووفى بقسمه إلى أن مات, وذلك لأن إطابة المطعم وتحليل الرزق تبدأ باجتناب الشبهات, وتنتهي إلى عدم استشراف النفس إلى ما بأيدي الناس بحيث تعف اليد ويقنع القلب.

وقد يظن بعض الناس أن كثرة الجدل وأن الإحراج في تحصيل شيء إنما هي من علامات الذكاء والفطانة, وقد نهى عن ذلك رسول الله ﷺ: **«لا تُلِحُّوا في المسألة, فوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا فتُخرِج له مسألته مني شيئًا وأنا له كارهٌ فيبارك له فيما أعطيتُه»** [2].

فما أخذ بالحياء ليس بالرزق الطيب, وما حصل بالإحراج عديم البركة, ومن هانت عليه نفسه اليوم ليسأل الناس, لا يبعد أن يصل به الهوان إلى عدم تحري الحلال.

---

[1] (?)صحيح البخاري - كتاب فرض الخمس- باب 19- الحديث 3143, رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم 1035.
[2] (?)صحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب 33- الحديث 1038.

أما الرزق الذي يسوقه الله إليك, ولم تتلهف إليه نفسك, ولم يتعلق به قلبك فخُذْه, وقد كان عمر كلما عرض عليه رسول الله عطاء يقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال له رسول الله : **«خذه. إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله. فإن شئت كله وإن شئت تصدق به. وما لا فلا تتبعه نفسك»** [1].

والرزق الطيب من أسباب قبول الدعاء ومما يشرع طلبه في الدعاء, والزكاة تطهر ما بقي من المال **«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم.. »** [2].

ولا تقبل الصدقة إلا من المال الطيب, ولا بركة إلا فيما كان طيبًا **«إن الله طيِّب لا يقبلُ إلا طيِّبًا، ثم ذكر الرجل يُطِيل السَّفر أشعثَ أغبرَ يمدُّ يدَيْه إلى السماء: يا رب يا رب, ومطعمه حرام, ومشربه حرام وملبسه حرام,**

---

[1] (?)صحيح البخاري كتاب الزكاة الحديث 1473,وصحيح مسلم- كتاب الزكاة الحديث 1045.

[2] (?)سنن أبي داود كتاب الزكاة باب 33 الحديث 1664(إسناده حسن/ جامع الأصول 2/163).

وغُذِي بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك؟!» [1].

ومن كان تحت يده أموال عامَّة يتولى تصريفها بحكم مسؤوليته أو مكانته الاجتماعية, وهو متفرِّغ لهذا الأمر، فمن حقِّه أن يأخذ ما يكفيه وأسرته بقدر حاجة مثله عرفًا, وأما التوسع فيه فوق الحاجة والاستئثار به دون الناس, والتبذير في التوافه فليس من إطابة المطعم, وإلى ذلك أشار ابن حجر بقوله: (إن للعامل أن يأخذ من عرض المال الذي يعمل فيه قدر حاجته؛ إذا لم يكن فوقه إمام يقطع له أجرة معلومة)[2], والمرأة التي يبخل عليها زوجها قال لمثلها رسول الله ﷺ: **«خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»** [3].

وإن كان في نفس أحدنا شبهة فليحلل رزقه ببذل أقصى الجهد وغاية الوسع إلى أن يشعر أنه قد أحل مطعمه ومشربه؛ فالبر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في صدرك حين تخلص نفوسنا للحق ولا تستعبدها الشهوات.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- إطابة المطعم سنة المرسلين.

---

[1] (?)أخرجه مسلم والترمذي (جامع ًاول 10/565 الحديث 8131).

[2] (?)فتح الباري 4/35 من شرح الحديث 2070.

[3] (?)صحيح البخاري - كتاب النفقات- باب 9- الحديث 5364.

- من أطيب الطعام ما كان من عمل اليد.
- الحريص على إطابة المطعم لا يتحرج من أية مهنة.
- ليس من طيب المطعم ما أخذ من الناس بغير طيب نفس.
- ما أخذ بالإلحاح في المسألة لا يبارك فيه.
- إطابة المطعم من أسباب قبول الدعاء.
- ليس من طيب المطعم التوسع في المال العام.
- ضابط إطابة المطعم استفراغ الجهد في الكسب.

****

الفصل الخامس

سرعة الفيئة

«فخيرهم بطيء الغضب سريع الفيئة».

مَن يراجع سيرة خير القرون يجد أن صحابة رسول الله لم يكونوا متميزين بالعصمة من الوقوع في الخطأ مع الخلق أو الخالق, وإنما كانوا بشرًا تميزوا بأنهم {**... إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا**

أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[آل عمران:135] وأنهم{**...مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**}[الأعراف:201] هذه المبادرة إلى التوبة وتلك المسارعة إلى الرجوع للحق هي ما نَعْنيه بسرعة الفيئة.

كثيرًا ما تكون بعض الطبائع التي لم تهذب سببًا من أسباب زلة القدم والوقوع في بعض الخصومات, وقد ورد أن رسول الله ذكر طبائع الناس وأخلاقهم في إحدى خطبه فقال: «**يكون الرجل سريع الغضب، قريب الفيئة، فهذه بهذه, ويكون بطيء الغضب بطيء الفيئة فهذه بهذه، فخيرهم بطيء الغضب سريع الفيئة وشرهم سريع الغضب بطيء الفيئة**»[1].

وحبل الخيرية بيدك أيها المؤمن, وما عليك إلا أن تضبط عواطفك فلا تغضب ولا تُسِئ, وإن لم تتمالك نفسك فلا يطل عليك الأمد ويتراكم على قلبك الران، وإنما تفيء إلى دائرة الحق بسرعة, وترجع إلى جادة الصواب على عجل.

---

[1](?)مسند أحمد 3/61ورواه الترمذي في الفتن وحسنه, وفي سنده ضعيف ولبعض فقراته شواهد: جامع الأصول 11/848.

ولم يخلُ بيتٌ من بيوت رسول الله من خصومات تقع بين زوجاته, ولكن انظروا إلى شهادة عائشة رضي الله عنها في ضرتها زينب رضي الله عنها وإلى ما ذكرت من خُلُق زينب: (ولم أر امرأة قط خيرًا من زينب وأتقى لله, وأصدق حديثًا, وأوصل للرحم, وأعظم صدقة, وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب إلى الله تعالى, ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة)[1].

فلم تكن تُنكر عليها سوى حدَّةٍ في طبعها, ولكنها رضي الله عنها كانت تسارع فتستدرك وتصلح ما نتج عن حدِتها.

ولذلك حين تعرض الأعمال يومي الاثنين والخميس يغفر لكل مؤمن إلا المتخاصمين فيقال: **«أنظِروا هذين حتى يصطلحا»**[2]، وفي رواية: **«اتركوا هذين حتى يفيئا»**[3]، **«وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**[4].

---

[1](?)صحيح مسلم-كتاب فضائل الصحابة -باب 13- الحديث 83(شرح النووي 15/215).

[2](?)سنن أبي داود-كتاب الأدب -باب 55- الحديث 4916(صحيح).

[3](?)صحيح مسلم -كتاب البر- باب11- الحديث 2565(شرح النووي16/358).

[4](?)صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب 62- الحديث 6077(الفتح 10/492).

والمتوقع من المؤمن الصادق أنه يسرع الفيئة ويسابق إلى الصلح, أنا من يلجُ في الخصومة ويغرق في التمادي فإن «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[1]، وفسره ابن حجر بأنه: شديد العوج, كثير الخصومة[2].

بل إن من صفات المنافق أنه «**إذا خاصم فجر**»[3], يقول ابن حجر: (والفجور الميل عن الحق والاحتيال في رده)[4]، وكم يكون عظيمًا ذلك الذي يذل للمؤمنين, ويؤوب إلى الرشد, ويعجل إلى ربه ليرضى عنه.

ولقد ضرب أبو بكر الصديق مثلاً رفيعًا في سرعة الفيئة حين علم أن مسطح بن أثاثة الذي يأكل من نفقة أبي بكر كان قد شارك في اتهام ابنته السيدة عائشة بحديث الإفك, فأقسم أبو بكر ألا يُنفَق عليه, ونزل قوله تعالى: {**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ**

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب 34- الحديث 7188(الفتح 13/180).
[2] (?)فتح الباري 8/188.
[3] (?) صحيح البخاري- كتاب الإيمان - باب 24-الحديث 34.
[4] (?)فتح الباري 1/90.

رَحِيمٌ}[النور:22], فما أن سمع أبو بكر خاتمة الآية حتى صاح: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)، وتغلَّب على عواطفه التي تدعوه للثأر لغرض ابنته البريئة (فرجع إلى مِسطَح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا)[1].

ليس العيب في الوقوع في الخطأ؛ إذ «**كل بني آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون**»[2], وإنما تكمن المصيبة في الإصرار على الخطأ والتمادي في الباطل, مع أن أبواب الرحمة مفتحة تدعونا لسرعة الفيئة «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار, ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[3]، وتستطيع تجاوز العقبة بأن تكون صريحًا مع نفسك وتعترف بخطئك, وهذه بداية طريق التوبة والفيئة إلى الله «**فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه**»[4]، وإذا كان ربنا يدعونا إلى سَعَة رحمته

---

[1] (?)صحيح البخاري -كتاب المغازي- باب 34- الحديث 4141 (الفتح 7/434).

[2] (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني 2/418 الحديث 3428(حسن).

[3] (?)صحيح مسلم-كتاب التوبة- باب 5(شرح النووي 17/83).

[4] (?)صحيح البخاري -كتاب التفسير- باب 6/ الحديث 4750(الفتح 8/454).

ويقابل ضعفنا بإحسانه، فما الذي يبطئ بنا عن إصلاح أنفسنا, وما الذي يحول بيننا وبين الفيئة السريعة والرجعة النصوح؟ وقد جاء في الحديث القدسي: **«وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا, وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا, وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»** [1].فهرول أيها العبد إلى رحمة الله وإياك والتسويف.

إن الذي يَحُول دون التعجيل بالتوبة الوقوع في قيد الإصرار, ولقد ترجم البخاري أحد أبواب كتاب الإيمان بقوله: (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر،وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى: {**... وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}[آل العمران:135][2]، ويُعلِّق ابن حجر على هذا الباب (وكأن المصنف لمح بحديث عبد الله بن عمرو المخرج عند أحمد مرفوعاً قال: **«ويل للمُصرِّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»**؛ أي: يعلمون أن مَن تاب تاب

---

[1](?) صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب 15- الحديث 7405 (الفتح 13/384).

[2](?)صحيح البخاري ترجمة الباب 36 من كتاب الإيمان. الفتح 1/109.

الله عليه ثم لا يستغفرون، قاله مجاهد وغيره)[1].

وصورة الإصرار كما فسَّرها الشوكاني: (العزم على معاودة الذنب وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه)[2]، فهل يختار المؤمن مصير الويل أم يقاوم هواه ويستعلي على نزوات الشيطان لينطلق من قيدها ساعيًا إلى رحمة الله؟

إن خلق سرعة الفيئة من أول ما يطالعك في أول منازل الآخرة حيث تأتيك البشرى بالخير ويقول لك عملك: **«أنا عملك الصالح, كنت والله سريعًا في طاعة الله, بطيئًا عن معصية الله؛ فجزاك الله خيرًا»**. أو تأتيك البشرى بالشر ويقول لك عملك: **«أنا عملك الخبيث, كنت بطيئًا عن طاعة الله, سريعًا في معصية الله؛ فجزاك الله شرًّا»**[3].

فإذا أسأت فأحسِن, وإذا أذنبتَ فاستغفر؛ لعل عملك يشهد لك بالسرعة في طاعة الله.

---

[1](?)فتح الباري 1/112 من شرح الباب 36 من كتاب الإيمان, وحديث أحمد في المسند 2/165 وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 897.

[2](?)فتح القدير للشوكاني 1/ 382.

[3](?)مسند أحمد 4/295-296 من حديث طويل طرفه(إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا..).

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- تميز الصحابة في سرعة فيئتهم وليس بعصمتهم.
- من أسباب زلة القدم الانسياق للطباع الغضبية.
- بيت النبوة لم يخلُ من خصومات ولكن الفيئة كانت سريعة.
- المتخاصمان إذا لم يُسرِعا الفيئة حُرِما قَبول العمل.
- الذي يحب أن يغفر الله له يسرع الفيئة.
- يعين على سرعة الفيئة:
  - الاعتراف بالخطأ والصراحة مع النفس.
  - عدم الإصرار, والتعجل بالتوبة.
- سريع الفيئة يشهد له عمله في أول منازل الآخرة.

****

الفصل السادس

الثبات

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(*).

كثيرًا ما نجد شبابًا يحنُّون إلى البدايات التي كانوا يتفجَّرون فيها حيوية, ويتدفقون حماسًا, ويبالغون في الحرص على دقائق السنن, ناهيك عن البعد عن دائرة الحرام

والشبهات، ثم ماذا؟ كلَّت النفوس, وفترت الهمم, واكتفى كل شاب بأن يكون واحدًا من عامة المسلمين. وهذا أحسن حالاً ممن انقلبوا على أعقابهم فغَدوا يعادون الدعوة ويسخرون من أهلها ويحذرون من سبيلها, إنها معركة تقرير المصير بين الارتداد على الأعقاب والثبات.

نعني بالثبات الاستمرار في طريق الهداية, والالتزام بمقتضيات هذا الطريق, والمداومة على الخير, والسعي الدائم للاستزادة, ومهما فتر المرء, فهنالك مستوى معين لا يقبل التنازل عنه أو التقصير فيه, وإن زلت قدمه فلا يلبث أن يتوب, وربما كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها, ذلك هو حال المتصف بخلق الثبات.

وللثبات صور تشمل عددا من جوانب حياة المسلم منها الثبات في المعركة كما ثبت الربيون الكثير مع أنبيائهم, وكان قولهم {**...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا...**}[آل عمران: 147] والفئة الصابرة بإمرة طالوت الذين قال الله فيهم{**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا...**}[البقرة:250] وفي

ذلـــك توجيـــه للمـــؤمن أن يلتجئ إلى اللـــه طالبًا منه التثبيت.

وخُوطِب أبناءُ هذه الأمة بأمر الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...**}[الأنفال:45].

ومن الكبائر في ديننا الفرار من الزحف؛ ولذلك كان من الوصايا العشر التي أوصى بها رسول الله معاذ بن جبل: «**وإيَّاك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس مُوتانٌ وأنت فيهم فاثبُتْ**» [1]؛ لأن الثبات يزيد المؤمنين قوة, ويوقع في نفوس العدو رهبة, وتزعزعُ المواقف يخذل الصديق ويُشمِّت العدو, وقد كان رسول الله يعمق هذا المعنى يوم الأحزاب وهو ينقل التراب وقد وارى التراب بطنه وهو يقول: (لولا أنت ما اهتدينا, ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا, فأنزل السكينة علينا, وثبِّت الأقدام إن لاقينا, إن الأُلَى قد بغَوْا علينا إذا أرادوا فتنة أَبَيْنا)[2].

ولأن مسألة الثبات على الدين قضية تشغل فكر المسلم فإنه يكثر من الدعاء بها, فقد كان رسول الله يكثر من قول:

---

[1](*)صحيح الجامع- الحديث 7987(صحيح).
(?)مسند أحمد 5/238 وطرفه (أوصاني رسول الله بعشر كلمات قال: لا تشرك بالله شيئاً..).
[2](?)صحيح البخاري- كتاب الجهاد- باب 34 الحديث 2837(الفتح 6/46).

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [1]، وقد كان رسول الله ﷺ يخشى على نفسه في مواجهة الجاهلية أن يداهن أو يلين, ولذلك خاطبه ربنا عز وجل بفضله عليه بأن أخلص ولاءه لله {**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ...**}[الإسراء:74,75]، فليحذر الدعاة وهم يواجهون الطغاة من زلزلة الأقدام وزعزعة الولاء.

وقد حذَّر حذيفة العلماء العباد لأنهم قدوة: (يا معشر القراء استقيموا، فإن أخذتُم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا) [2], ولو أن ضلال المتذبذب يمينًا وشمالاً يقتصر عليه لهان الأمر, ولكن يفتن بضلاله آخرون.

وقد كان من وسائل أهل الكتاب في زعزعة صفوف المسلمين أن يتظاهروا بالدخول في الإسلام, ثم يرتدون ليرتد معهم آخرون{**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}[آل العمران: 72]،

---

[1] (?)مسند أحمد 3/ 112.
[2] (?) صحيح البخاري -كتاب الاعتصام -باب 2- الحديث 7282(الفتح 13/250).

فالسعيد مَن وفقه الله للثبات, وختم له بخير ومات وهو يعمل عمل أهل الجنة إلى أن يرزقه الله التثبيت حين يسأل.

ولو تأملت في أحاديث الحوض من صحيح مسلم لوجدت أناسًا مُنعوا منه ورسول الله يقول: «**يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»، فيدعو عليهم رسول الله «**سحقًا سحقًا لمن غير بعدي**», وفي رواية أخرى يقال له«**والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم**»، فكان ابن أبي مُلَيكة - أحد رواة هذا الحديث - يقول: (اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا)[1], وكلمة "ما برحوا يرجعون" توحي بالتراجع البطيء المتواصل المؤدي إلى الهاوية. وربما يصعب الرجوع بعد طول الاستدراج. فهنيئًا لمن استدرك نفسه لئلا تزل قدمه بعد ثبوتها.

نجد كثيرًا من الأدعية تركز على معنى الثبات, ومن ذلك دعاء عبدالله بن مسعود: (الله إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد...)[2]، وقال شدَّاد بن أَوْسٍ: (كان رسول الله يُعلّمنا كلمات ندعو بهن في

---

[1] (?)صحيح مسلم -كتاب الفضائل- باب 9- الأحاديث 2289-2295 (شرح النووي 8/58).

[2] (?) مسند أحمد1/400 من دعاء ابن مسعود.

صلاتنا. الله إني أسألك الثبات في الأمر, وأسألك عزيمة الرشد)[1].

ومن صور الثبات في الفتن: الصبر في أيام الصبر التي وصفها رسول الله بقوله: **«الصبر فيهن مثل القبض على الجمر»**, وفي رواية: يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيه على دينه, كالقابض على الجمر)[2], ومن ذا الذي يثبت قابضًا على الجمر؟! لذلك بشَّر رسول الله بأن الثابت من هؤلاء له أجرُ خمسين من الصحابة: **«إن من ورائكم أيام الصبر, للمتمسك فيهن يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم»** [3].

وفي أشد ما يلقاه المسلمون من الفتن حين يخرج الدجال ويعيث يمينًا وشمالاً، فإن الوصية الأساسية لرسول الله التي يوصي بها أمته حينئذٍ: **«يا عباد الله، اثبتوا»** [4].

من أهم صور الثبات المداومة على الطاعات: فالمطلوب في بعضها المثابرة عليها، يروي الترمذي: **«مَن ثابر ثنتَي**

---

[1](?)مسند أحمد 4/ 125 وطرفه **«ما من رجل يأوي إلى فراشه.. »**.

[2](?)الرواية الأولى لأبي داود والترمذي, والثانية للترمذي (ضعف الأرناؤوط إسنادهما, وقواهما بشواهدهما) (جامع الأصول 10/ 403 الحديثان 7543-7545).

[3](?) سلسلة الأحاديث الصحيحة 1/812 الحديث 494.

[4](?)صحيح سنن ابن ماجه 2/386 الحديث 3294/ 4075.

عشرة ركعة من السُّنة بنَى الله له بيتًا في الجنة» [1].

وفي رواية مسلم تقولُ أم حبيبة راوية الحديث, ويقول كلٌّ من عمرو بن أوس والنعمان بن ثابت - من رجال السند -: (ما تركتهن منذ سمعتهن)[2].

وتقول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله : (وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه)[3]، وعند مسلم كذلك (وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته)[4].

وحين سئل رسول الله : أي العمل أحب الى الله؟ قال: «**أدومه وإن قل**» [5]، (وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه)[6]، يقول النووي: (أي لازموه وداوموا عليه)[7].

والثبات مظهر بارز للاستقامة؛ لأن المذبذب المتقلّب لا يقدر على الثبات, ولا يقوى على الاستقامة, فقد كان الواحد من

---

[1] (?)صحيح الجامع - الحديث 6183(صحيح).
[2] (?)صحيح مسلم - كتاب المسافرين- باب 15 الحديث 728(شرح النووي 3/252).
[3] (?)صحيح مسلم -كتاب المسافرين- باب31 الحديث 221(شرح النووي 3/321).
[4] (?) صحيح مسلم- كتاب المسافرين- باب 30 الحديث 218(شرح النووي 3/319).
[5] (?)صحيح مسلم- كتاب المسافرين- باب 30 الحديث 216 (شرح النووري 3/318).
[6] (?)نفس المصدر السابق الحديث 215.
[7] (?)شرح النووي لصحيح مسلم 3/319.

الصحابة يقول: يا رسول الله، حدِّثني بعملٍ أستقيم عليه وأعمله, فأجابه لأوجب الواجبات وقتها: «**عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها**»[1].

وكان من دقيق ملاحظة الصحابة لظاهرة الثبات في يلوك كل فرد أن بريدة بن الحصيب لقي سلمة بن الأكوع قادمًا من البادية فظن أنه قطع هجرته إلى المدينة وأقام خارجها، فقال له: (ارتددتَ عن هجرتك يا سليمة؟! فقال مسلمة: معاذ الله إني في إذنٍ من رسول الله)[2].

ومن الملعونين على لسان رسول الله : (المرتد أعرابيًّا بعد هجرته)[3]، هذه صورة الجيل الفريد كيف يحرِص على الثبات ويتواصى به, ويخشى الانقلاب على الأعقاب, وإلى عام (حجة الوداع) والرسول يدعو للصحابة بالثبات على هجرتهم إلى المدينة لتقوى بهم الدولة الناشئة: «**اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم, ولا تردَّهم على أعقابهم**» [4].

---

[1] (?)صحيح سنن النسائي- كتاب البيعة - باب14 الحديث 3885(حسن صحيح).

[2] (?)مسند أحمد 4/55.

[3] (?)صحيح الجامع - الحديث 5(صحيح).

[4] (?) صحيح البخاري - كتاب الجنائز- باب36- الحديث 1295 (الفتح 3/164).

والقول الجامع لرسول الله ﷺ في بيان حقيقة الإسلام: إيمان وثبات «**قُل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحدًا بعدك, قال: قل آمنتُ بالله ثم استقم**» [1].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- أكثر الشباب قد لا يستمرون على حماس البدايات.

- من صور الثبات:

- الثبات في مواجهة العدو.
- الثبات على دين الله.
- الثبات على الاستقامة.
- الثبات في أيام الفتن.
- المداومة على فعل الطاعات.

- المتذبذب قد يفتن الناس بعدم ثباته.
- الثبات مظهر بارز للاستقامة.
- مما يعين على الثبات التواصي به.
- حقيقة الإسلام إيمان وثبات.

****

---

[1] (?)صحيح مسلم -كتاب الإيمان- باب جامع أوصاف الإسلام.

الباب السادس

من أخلاقنا في الوجدان

الفصل الأول: الحياء.
الفصل الثاني: الطيبة.
الفصل الثالث: التواضع.
الفصل الرابع: الإحساس والتأثر.

الفصل الخامس: القناعة والعفة.
****

الفصل الأول

الحياء

«الحياء لا يأتي إلا بخير».

إنه لمن مظاهر التوازن, ومن علامات التكامل في التربية, أن تجد المؤمن القوي الحازم الدؤوب حييًّا خجولاً أديبًا وقورًا.

والحياء الممدوح: (خلق يبعث على ترك القبيح)[1]؛ كما عرّفه ابن حجر.

أما التحرج من الأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, واتخاذ المواقف الجريئة في الحق, والتفقه في الدين، فليس من الحياء, وهذا بعض ما أشار إليه ابن حجر حين صنَّف الحياء إلى شرعي وغير شرعي، فقال: (الشرعي الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر - وهو محمود - وأما ما يقع سببًا لترك أمر شرعي, فهو مذموم وليس هو بحياء شرعي, وإنما هو ضعف ومهانة)[2].

لا ينبغي الحياء في المطالبة بالحقوق, ولا في تعليم الجاهل, ولا في السؤال عما لا نعلم، فقد قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحيٍ ولا متكبِّر, وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (نِعْم النساء نساءُ الأنصار, لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)[3]، وكانت أم سُلَيم تسأل في مسائل دقيقة من أحكام النساء, وتستفتح سؤالها بقولها: (يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من

---

[1] (?)فتح الباري 10/ 522 عند شرحه لباب الحياء من كتاب الأدب- الحديث 6118.

[2] (?)فتح الباري 1/229 عند شرحه لباب الحياء في العلم من كتاب الإيمان.

[3] (?)صحيح البخاري- كتاب العلم- من ترجمة باب 50(الفتح 1/228).

الحق)، قال ابن حجر: (أي لا يأمر بالحياء في الحق)[1].

ومَن لم يُرزَق الحياء بالفطرة, طُولِب به بالقصد والاكتساب والتعلُّم, خاصة وأنه الخلق المميز لأتباع هذا الدين, كما جاء في الحدث الحسن: **«إن لكل دين خلقًا, وخلق الإسلام الحياء»** [2]، وقد ورد أنه من سنن المرسلين, وأنه من الإيمان: **«الحياء من الإيمان, والإيمان في الجنة, والبَذاء من الجفاء, والجفاء في النار»** [3]، وقد كان حبيبنا وقدوتنا (أشد حياء من العذراء في خدرها)[4](وكان رسول الله حييًّا كريًما يستحيي..)[5]، وبعد كل ذلك هل نختار الحياء أم البَذاء؟ ونتحلى بالإيمان أم بالجفاء؟ ونُؤثِر أخلاق أهل الجنة أم أخلاق أهل النار؟

لقد كان أهل الجاهلية - على جاهليتهم - يتحرَّجون من بعض القبائح بدافع الحياء, ومن ذلك ما جرى مع أبي سفيان عند

---

[1](?) المصدر السابق, عند شرح ابن حجر لقطعة من الحديث 130 من صحيح البخاري.

[2](?)صحيح سنن ابن ماجه 2/406- الحديث 3370/4181 (حسن).

[3](?)صحيح سنن ابن ماجة 2/406 0 الحديث 3373/ 4184(صحيح).

[4](?)صحيح البخاري -كتاب الأدب- باب 77- الحديث 6119(الفتح 10/ 521).

[5](?)مسند أحمد 6/314.

هرقل, لَمَّا سئل عن رسول الله ﷺ, ويقول في ذلك: (فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليَّ كذبًا, لكذبتُ عنه)[1]، فمنعه من الحياء الافتراء على رسول الله, لئلا يوصف بالكذب, ويشاع عنه ذلك.

وكذلك ما جرى مع السيدة خديجة, حيث وافق أبوها في حضرة جمعٍ من قريش - وهو سكران - على خطبتها لرسول الله ﷺ. فلما صحا من سكره, وفكَّر بالتراجع، ما ردعته إلا بالاستحياء من أن يقر بأنه كان سكران، فقالت له: (أما تستحيي؟ تريد أن تُسفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي)[2]، وكم يحتاج المسلمون اليوم إلى إحياء هذا الخُلُق بالالتزام بالكلمة والارتداع عن الوقوع في القبائح أو الشبهات بشيءٍ من الحياء.

ترى الرجل الحَيِيَّ يحتقنُ وجهه؛ وتحمرُّ وَجْنتاه، إذا صدر منه أو من غيره ما ينافي الحياء: (كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من عذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا رئي ذلك في وجهه)[3].

---

[1] (?)صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي- باب 6- الحديث 7(الفتح/ 31).
[2]))مسند أحمد1/312.
[3] (?) صحيح سنن أبن ماجه2/406الحديث3369(صحيح).

ومن سمة الحياء: ما يتميز به الحَيِيُّ من مظاهر الوقار والسكينة؛ إذ روي عن بشير بن كعب قوله: (مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقارًا، وإن من الحياء سكينة)[1].

قال القرطبي: (معنى كلام بشير: أن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار، بأن يوقر غيره، ويتوقر هو في نفسه، ومنه ما يحمله على أنه يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأمور التي لا تليق بذي المروءة..)[2]، فالحياء يحجز النفس عن كثير من خوارم المروءة، وقوادح الدين.

ومن الحياء الواقع إجلالًا واحترامًا للأكابر: ما كان من ابن عمر حين سأل رسول الله الصحابة: **«إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدِّثوني ما هي؟»**[3]، فعرَف ابن عمر أنها النخلة، واستحيا أن يُجيب، ويُعلِّل حياءه - كما في روايات الحديث - بأنه وجد نفسه أصغر الجالسين، وأنه رأى أبا بكر وعمر لا يتكلَّمان، فكره أن يتكلَّم[4].

---

[1] (?) صحيح البخاري-كتاب الأدب باب: 77الحديث: 6117(الفتح 10/521).
[2] (?) عن فتح الباري10/522عند شرحه للحديث6117
[3] (?) صحيح البخاري-كتاب العلم-باب4-الحديث61؟.
[4] (?) فتح الباري1/146.

كم يشرح الصدر ذلك المجتمع الذي يستحيي في الصغير من الكبير، ويتعامل الناس فيه بالاحترام والتوقير.

والحياء بنفسه وقاية من الوقوع في المعاصي، فقد ورد أن أحد الصحابة كان يعاتب أخاه على حيائه، وكأنما يقول له: قد أضر بك الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْه فإن الحياء من الإيمان**»[1]، قال أبو عُبَيد الهَرَوِي: (معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي، فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي) [2]، ولذلك عمَّم الرسول ﷺ في بيان ثمرات الحياء، فقال: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[3]، ووصفه بأنه زينة للسلوك، فقال: «**ما كان الفُحْش في شيءٍ قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه**»[4].

ومظاهر الخجل الاجتماعي، التي قد تجر إلى الشر، لا يمكن أن تكون من الحياء المحمود شرعًا؛ إذ إنه لا يأتي إلا بخير، ومداراة بعض الأعراف الاجتماعية المنحرفة، لا يعد حياءً؛ لأن الحياء زين

---

[1] (?) صحيح البخاري-كتاب الادب-باب77-الحديث6118(الفتح 10/521).

[2] (?) عن فتح الباري10/522عند شرح الحديث6118

[3] (?) صحيح البخاري-كتاب الادب-باب77-الحديث6117

[4] (?) صحيح سنن ابن ماجه2/407الحديث3374(صحيح)

وليس بشَين، والانحراف هو عين القبح والشين.

وكما أن الحياء أدب مع الخلق، فإن أسمى صوره الأدب مع الخالق، وقد ورد أن عددًا من الأنبياء (آدم - نوح – موسى)، تطلب منهم الشفاعة يوم الموقف، والناس يقولون لكل منهم - لما يرون من هول الموقف -: «**..فاشفَع لنا عند ربك؛ حتى يُريحَنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم - ويذكر ذنبه فيستحيي - ..لست هناكم - ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي - ..لست هناكم - ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحيي من ربه -**»[1]، وكل منهم متحرج، ويمنعه الحياء من الجرأة على الشفاعة.

ولإحساس المؤمن في الدنيا بأن الله يراه على جميع أحواله، فإنه يستحيي من ربه، ولذلك ورد في التستر عند الاغتسال في الخلوة، قوله : «**الله أحق أن يُستَحْيَا منه من الناس**»[2]، والذي يستحيي من ربه، إن كشف عورته في

---

[1](?) صحيح البخاري-كتاب التفسير-سورة2-باب1-الحديث 4476(الفتح8/160).

[2](?) من معلقات البخاري في كتاب الغسل-باب20. قال في الفتح1/386: (..وحسنه الترمذي وصححه الحاكم)..

خلوته، حريٌّ به أن يمنعه الحياء من الإقدام على معصية.

ويكفي في فضيلة الحياء وأثره، أن الأنبياء السابقين حذروا من كسر حاجز الحياء، لئلا يقع المرء في كل القبائح - وليس له رادع ولا وازع - كما في الحديث: **«إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»**[1].

ومن الوجوه التي يفهم بها هذا الحديث أنه:

حيث تشعر بالحرج، وتخشى التأثم، فتوقف، وحيث يطمئن القلب، ولا تشعر بالحرجن فاصنع ما شئت.

فاقد الحياء فليصنع ما يشاء، ولينظر بعدئذ ماذا يفعل الله به.

ليس عجيبًا ما نراه من منكرات الأخلاق، إذا علمنا أن رادع الحياء قد مات، فالذي لا يستحيي - عادةً - يصنع ما يشاء، بلا حرج من أحد[2].

أفلا يكون كل منا عونًا لأخيه في مجاهدة النفس، وتجنُّب ما لا يليق، والتزام حدود الأدب مع الخلق والخالق، في الخلوة

---

[1] (?) صحيح البخاري-كتاب الادب-باب78-الحديث6120(الفتح 10/523)

[2] (?) يراجع فتح الباري6/523-شرح الحديث3483وكذا10/523-10-شرح الحديث6120.

والجلوة، وفي الغِيبة والشهادة، فقد جاء في الحديث: «**إن الله عز وجل حليم، حَيِيٌّ، ستِّير، يحب الحياء والستر..**»[1]، وربما كان لاقتران الحياء والستر فيما يحب الله، إشارة إلى أنه حيث وجد الحياء، وجد الستر والعفاف، وحيث تحل الجرأة على القبائح، يحل معها التكشف والفضائح وعيوب النفس مستورة بجلباب الحياء، فإذا ما نزع الستر، تكشفت أمراض النفوس، وتجرأ الصغير على الكبير، وانطلق الناس من كل قيد، وتحرَّروا من كل وازع، وغرقوا في أوحال الرذيلة، وستبقى الفطرة ميالة إلى الحياء والستر.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

-الحياء خلق يبعث على ترك القبيح.

-ليس من الحياء الامتناع عن التعلم أو المطالبة بالحقوق.

-إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء.

-أهل الجاهلية كان عندهم من الحياء ما يمنعهم من بعض القبائح.

-الحياء وقار ومروءة.

-من الحياء احترام الأكابر.

-الحياء وقاية من الوقوع في المعاصي.

-من أسمى الحياء التأدب مع الخالق.

---

[1](?) صحيح سنن النسائي1/87-كتاب الغسل-باب7-الحديث 393(صحيح)

-الحياء وصية النبوة الأولى.
-كمال الحياء حين يكون مع الستر.
****

الفصل الثاني

الطيبة

«حتى يَميز الخبيث من الطيب».

نعني بالطيبة سلامة الصدر، وصفاء النفس، ورقة القلب، ويتأصل هذا الخلق

باستمرار التزكية للنفس، ثم تنعكس آثاره على السلوك: أخوةً وسماحةً وسكينةً ووفاءً، والذين يفتقدون هذا الخلق، تراهم غارقين في صور من التحاليل والكيد، وسوء الظن والخبث.

ومعنى «الطيب» في اللغة: الطاهر والنظيف، والحسن والعفيف، والسهل واللين، وذو الأمن والخير الكثير، والذي لا خبث فيه ولا غدر[1]، ومن هذه المعاني نفهم المراد بالرجل الطيب، والزوجة الطيبة، والبلدة الطيبة، والقول الطيب، والذرية الطيبة، والريح الطيبة، والحياة الطيبة، وكلها معاني طهر وعفة وصفاء ونقاء، وهذا حال صاحب خلق«الطيبة».

إن الله عز وجل حين خلق بني آدم **«جعل منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»**[2]، ولا يستوي الخبيث والطيب، ولا يأتلف كل واحد إلا مع قرينه وشبيهه.

وحرصًا من النبي على اعتزاز المؤمن بالطيبة، نهاه أن ينسب الخبث إلى نفسه، فقال: **«لا يقولن أحدكم خَبُثَت**

---

[1](?) يراجع في لسان العرب مادة(طيب)1/563.

[2](?) مسند أحمد4/406. وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 1759.

نفسي..»[1]، ويورد ابن حجر قول ابن أبي حمزة في بيان الحكمة من هذا النهي، فيقول: (وفيه أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى في الألفاظ المشتركة)[2].

ولقد شبه النبي المؤمن الذي يقرأ القرآن بثمرة «**الأترُجَّة**»: «**طعمها طيب وريحها طيب**»[3]، وضرب للمؤمن مثلًا آخر، فقال: «**والذي نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن لكمثل النحلة، أكلت طيبًا، ووضعت طيبًا..**»[4]، وكلها تؤكد على أصالة عنصر الطيبة في نفسية المؤمن، وسمة الخيرية في تعامله.

والرجل الطيب، قد يختلف حاله.. فيكون أحيانًا أكثر انشراحًا، وأحسن بشاشة.. تبعًا لما يمر به من أقدار، وقد لاحظ الصحابة – رضي الله عنهم - ذلك مرةً على الرسول ، فقال بعضهم: «**نراك اليوم طيب النفس، فقال: أجل. والحمد لله. ثم**

---

[1] (? صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب100-الحديث6179(الفتح 10/563)

[2] (?) فتح الباري10/564

[3] (?) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-باب57-الحديث7560(الفتح 13/535)

[4] (?) مسند أحمد2/199-وإسناده قوي: كما في تخريج الحديث 876في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

أفاض القوم في ذكر الغنى. فقال: لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»[1].

والعبادة صورة يومية من صور جلاء القلب، وتصفية النفس من كل خبث، ويؤكد هذا المعنى ما رواه البخاري، من أن الشيطان يعقد على قافية النائم ثلاث عقد، قائلاً له: «**عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضَّأ انحلت عقدة، فإن صلَّى انحلَّت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان.»**[2].

يقول ابن حجر: (قوله: طيب النفس؛ أي: لسروره بما وفَّقه الله له من الطاعة، وبما وعده من الثواب، وبما زال عنه من عقد الشيطان. كذا قيل. والذي يظهر أن في صلاة الليل سرًا في طيب النفس..)[3].

وما جعل الله مواطن البلاء إلا للتمحيص والتمييز، كما قال تعالى: {**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه2/6-كتاب التجارات-باب1-الحديث 1741/2141(صحيح)

[2] (?) صحيح البخاري-كتاب بدء الخلق-باب11-الحديث 3269(الفتح6/335)

[3] (?) فتح الباري3/26من شرح الحديث1142من كتاب التهجد.

حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[آل عمران: 79]، وفي ظلال الآية: أن دور الأمة المسلمة (يقتضي التجرد والصفاء، والتميز والتماسك.. وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف؛ ليخرج منه الخبث.. ومن ثَمَّ كان شأن الله - سبحانه - أن يَميز الخبيث من الطيب) [1]، وتجري سنة الله في أن الزَّبد يذهب جُفاءً، وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

المؤمن الطيب رجل متورِّع عن الشبهات، ولقد كان أبو طلحة في مرض له ينزع غطاء فراشه؛ لما عليه من نقوش؛ فلما اعترض عليه بأنه ليس في الغطاء تصاوير منهي عنها، أجاب: (بلى. ولكنه أطيب لنفسي)[2].

والمؤمن الطيِّب يحافظ على صفاء الود مع أخيه، كما في الحديث القدسي: **«وحُقَّت محبتي للذين يتصافون من أجلي»**[3]، ويبادر إلى زيارة أخيه المسلم، أو عيادته، فيقول الله له: **«طبتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا»**[4].

---

[1] (?) في ظلال القرآن1/525

[2] (?) صحيح سنن الترمذي2/150-كتاب اللباس-باب18-الحديث 1431/1819(صحيح)

[3] (?) ميند أحمد4/386وطرفه«**إن الله عز وجل يقول: قد حقت محبتي.... »**

[4] (?) صحيح سنن الترمذي2/195-كتاب البر-باب63-الحديث 1633/2093(حسن)

فالتصافي والتواصل علامة طيبة، ولا يتخلق بها إلا الطيب.

والمجاهد الطيب لا يطمئن قلبه بالقعود حين يستنفر الناس، ولذلك وصف رسول الله نفسية صحابته الكرام - لو أنه خرج في كل سرية - فقال: «**ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي**»[1]. ولذلك كان المنافقون - لما في نفوسهم من الخبث - لا يتحرَّجون من أن يتعللوا بأعذار واهية، ورسول الله مع صحابته في الحر والنصب، والمنازلة والطعان.

وتطييب قلوب عباد الله من علامات طيب القلب، فقد وصف رسول الله الذين يؤدون إلى الناس حقوقهم - وافية وزائدة - بقوله: «**أولئك خيار عباد الله عند الله يوم القيامة: المُوفُون المطيبون**»[2]، وأقصر طريق إلى القلوب بالكلمة الطيبة: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يكن فبكلمة طيبة**»[3]، وقد وصف الله الصالحين من عباده بقوله: {**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**}[الحج: 24].

---

[1](?) صحيح مسلم-كتاب الإمارة باب28-الحديث106(شرح النووي13/25)

[2](?) مسند أحمد6/269ومطلعه: (ابتاع رسول الله من رجل من الأعراب جزوراً)

[3](?) صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب34-الحديث6023.

وإن الملائكة لتستقبل أرواح الطيبين:
{**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ**}[النحل: 32]،
وقد قال ﷺ: «**الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فينفتح لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلان.**

فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري حتى تخرج، ثم يعرج إلى السماء، فلا يفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي

ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل بها من السماء ثم تصير إلى القبر»[1]، وعلى أبواب الجنة يقال لأهل الطيبة: {**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**}[الزمر: 73]بعد أن أحياهم الله الحياة الطيبة في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

إن غلبة التعامل بالطيبة، ونقاء المجتمع من الخبث، حصانة من غضب الله وانتقامه، ولذلك تساءلت زينيب بنت جحش: «أفنَهلِكُ وفينا الصالحون؟»، فأجابها رسول الله ﷺ: «**نعم إذا كثر الخبث»**[2].

قال ابن العربي: (وفيه البيان بأن الخير يهلك بهلاك الشرير، إذا لم يغير عليه خبثه)[3].

الطيب نقي القلب، سليم السريرة، حسن الظن بالناس.. ومن دعائه ﷺ: «**ونق قلبي من الخطايا، كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس»**[4]، ولا يغُرَّنَّك ما يلصقه الخبثاء بالطيبين: من صفات الغفلة، وضعف العقل، وقلة الحيلة، والهوان على

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه-كتاب الهد-باب31-الحديث 3437/4262(صحيح).

[2] (?) صحيح البخاري-كتاب الفتن-باب28-الحديث7135(الفتح 13/106).

[3] (?) نقلًا عن فتح الباري13/109.

[4] (?) صحيح البخاري-كتاب الدعوات-باب39-الحديث6368(الفتح 11/1769.

الناس. فلأن تكون مقبولًا عند الله خير لك من أَوْسِمة الدهاء والحيلة والخبث.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- من معاني الطيبة في اللغة والقرآن.
- المؤمن يعتز بطيبته.
- العبادات تؤصل الطيبة في القلب.
- طيب النفس من النعيم.
- مواطن البلاء تميز الخبيث من الطيب.
- الطيب يتورع عن الشبهات.
- الملائكة تدعو للمتحابين الطيبين.
- لا يطيب قلب المؤمن بالقعود حين يُستنفر الناس.
- من طيب القلب تطييب قلوب العباد.
- النفس الطيبة ترحب بها الملائكة.
- غلبة التعامل بالطيب وقاية من غضب الله.
- أبرز ما في الطيب نقاء قلبه وسلامة سريرته.

الفصل الثالث

التواضع

«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

الله عز وجل عزيز، ويريد لعباده أن يكونوا عزيزين، على ألا تمتد مساحة عزتهم على إخوانهم، فتغدو عندئذٍ إعجابًا بالنفس، واستعلاءً على الآخرين، وحطًّا من شأنهم.

والله عز وجل يمن على عباده أن هداهم للإيمان، فإن أَبَوْا إلا الضلالة، فهو قادر على

الاستبدال بهم قومًا يعتزُّون بإيمانهم، ويتواضعون لإخوانهم. {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**}[المائدة: 54]، فهذه الذلة على المؤمنين صفة المصطفين لحمل هذا الدين - حين يرتد عنه المرتدون.

وفي تفسير الآية: {**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**}؛ أي: يرأفون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويَلِينون لهم، ويغلظون على الكفار، ويعادونهم.

قال ابن عباس: هم المؤمنين كالوالد للولد، والسيد للعبد. وهم في الغلظة على الكفار، كالسبع على فريسته؛ قال الله تعالى: {**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**}[الفتح: 29][1].

وفي تعليل استعمال حرف الجر (على) في قوله تعالى: {**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**}؛ تفسيران: ففي قول إنه (ضمنه معنى الحنو والعطف كأنه قال عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع)، وفي قول ثان أن (على) تدل على علو مقامهم، وأنه رغم فضلهم وارتفاع منزلتهم (يذلون ويخضعون

(?)[1] الجامع لأحكام القرآن6/220.

لمن فضلوا عليهن مع شرفهم وعلو مكانهم)[1].

العزة صفة محمودة، والكبر على الناس والعجب بالنفس مذمومان، وإن الله عز وجل قد حط من قيمة الدنيا في نظر المؤمن، وبين هوانها على الله؛ ليعلم الناس جميعًا أنه {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**}[فاطر: 10] وأن الله يُكرِّم بها أولياءه حتى وهم في ذروة المحنة {**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**} [المنافقون: 8]، مع كل هذه العزة، فالمطلوب من المؤمن الشديد على الكفار، أن يتراحم مع المؤمنين، واللائق بالمؤمن العزيز على الكافرين، أن يتعامل بالذل على المؤمنين.

يقول ابن قدامة المقدسي في حديثه عن التواضع: (واعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق، له طرفان ووسط: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخسسًا ومذلة. والوسط يسمى تواضعًا - وهو المحمود - وهو أن يتواضع من غير مذلة..)[2].

---

[1] (?) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي3/412.
[2] (?) مختصر منهاج القاصدين ص254.

إن من تأديب رسول الله للمؤمنين على خلق (الذلة على المؤمنين) أنه كان يدعو: «**اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين**»[1]، يقول ابن الأثير: (أراد به التواضع والإخبات، وألا يكون من الجبارين المتكبرين)[2].

وقد كان عمر عنه يُدرِّب ولاته على الذلة على الرعية، وينهاهم عن إذلال الناس، كما يعلم الناس حقهم في أن يعيشوا كرامًا، ومما جاء في خطبة له: (إلا إني والله ما أُرسِل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم؛ ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمَن فُعِل به شيء سوي ذلك، فليرفعه إلى، فوالذي نفسي بيده إذًا لأقصنه منه... ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم..)[3]، وكان عمر عنه يوصي واليه على الحمى بقوله: (اضمُمْ جناحك عن المسلمين واتق دعوة المسلم ينح فإن دعوة المظلوم مستجابة)[4].

1(?) صحيح سنن الترمذي2/275كتاب الزاهد-باب23-الحديث 1917/2471(صحيح).

2(?) من حاشية صحيح الجامع1/271تعليقًا على الحديث1261.

3(?) مسند أحمد1/41وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: إسناده حسن(286).

4(?) صحيح البخاري-كتاب الجهاد-باب180-الحديث3059(الفتح 6/175).

الاعتراف بالخطأ يحتاج إلى شجاعة كبيرة، ونزاهة عالية، وتواضع جم. وإن حدثتك نفسك أن اعترافك قد يضع من قدركن فأحرص على سلامة الحق، أكثر من حرصك على تزيين نفسك، كما أن قبول عذر المعتذر إليك تواضع رفيع، وكرم عال. فالنفوس الخبيثة تتمنى الزلة من الآخرين؛ لتتشفى بالنقد والمحاسبة والتشهير.. ويعبر ابن القيم عن هذا المعنى بقوله: (مَن أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته - حقًّا كانت أو باطلًا - وتكل سريرته إلى الله تعالى.. وعلامة الكرم والتواضع: انك إذا رأيت الخلل في عذره، لا توقفه عليه، ولا تحاجه..) [1]، فابتعِد عن الإحراج، واقلب الصفحة، وابدأ من جديد، وسيكبر لك صاحبك حسن تجاوزك عنه، وعدم التحقيق في عذره.

وإذا أصررت على أن تضع أخاك في موقف تذله فيه وتحاسبه محاسبة الأرباب، فقد تجرأت على حرب الله عز وجلن وليس لك به طاقة لما جاء في الحديث القدسي: «**مَن أذل لي وليًّا فقد**

---

[1] (?) تهذيب مدارج السالكين ص433.

استحل محاربتي»[2]، والله ولي كل مؤمن.

إن الذي يتصدر لقيادة الناس وتوجيههم، وكسب قلوبهم، لا بدَّ أن يتمتع بقدر كبير من التواضع، ولذلك أمر الله عز وجل نبيه بقوله: {**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**}[الشعراء: 215] فما بال أكابر أمته من بعده، وهم دونه في المنزلة والخلق، لا يخفضون جناحهم؟! وقد جاء في الحكم: (من كثر تواضعه كثر صديقه)، فإذا أردت أن تكسب أنصارًا لدعوتك، فعليك بالتواضع، واحذر العجب والكبر، وأخطره عجب الطاعة، الذي يجعلك تستصغر الناس إزاء ما تقوم به أنت من طاعات، ولذلك يروى عن مطرف قوله: (لأن أَبِيت نائمًا، وأصبح نادمًا، أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا، وأصبح معجبًا)[1].

ويعرف الفضيل بن عياض تواضع المؤمن بأنه: (أن يخضع للحق، وينقاد لهن ويقبله ممن قاله)[2]، وهذا الخضوع للحق هو عين العز؛ لأن طاعة الله، ورجوع إلى الصواب، وتعويد للنفس ألا تصر على باطل. ولذلك يقول : **«وما تواضع أحد لله، إلا رفعه**

(?)[2] مسند أحمد 6/256.
(?)[1] مختصر منهاج الصادقين ص254.
(?)[2] تهذيب مدارج السالكين ص429.

الله»[1]، ومن كان قصده رضا الله، هان عليه الانقياد للحق؛ كالذي روي عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه سئل عن مسألة، فغلط فيها، فلما نبه إلى غلطهن أطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: (إذاً أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذَنَبًا في الحق، أحب إليَّ من أن أكون رأسًا في الباطل([2]، وهذا الأصل في العالم، أن يتواضع لله وينقاد للحق؛ لأنه مقصوده، وإن كان بينه وبين من ظهر الحق على لسانه أي نوع من العداوة والاختلاف.

وعدم الخضوع للحق هو عين الكبر والبغي، ولذلك عرَّف الرسول ﷺ الكبر بقوله **«الكبر: بطر الحق، وغَمْط الناس»**[3]، وبهذا نرى أن التواضع بالإضافة إلى كونه خلقًا وجدانيًّا محمودًا، فإنه وقاية من الوقوع في الظلم، وحماية من التعالي والتفاخر على إخوة الدين، وفي الحديث: **«إن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»**[4].

---

[1](?) أخرجه مسلم والترمذي: (جامع الأصول6/455الحديث 4660).
[2](?) تهذيب التهذيب7/7(12).
[3](?) صحيح مسلم- كتاب الإيمان-باب39-الحديث147.
[4](?) صحيح مسلم-كتاب الجنة-باب16-الحديث64.

ومن رفعة مقام رسول الله ﷺ، فإنه حين رأى رجلًا يرتعد منه، وكأنما كان يظنه كملوك الأرض، قال له رسول الله ﷺ: **«هوِّن عليك فإني لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَدِيد»**[1]، وإقراره بما كانت عليه أمه من الفقر أو خشونة العيش، يزيد من إكباره في نفس سامعه، ولا يَضِيره شيئًا، ويدرب أصحابه بذلك على عدم التعالي على الخلق؛ باستحضار جوانب من بشريتهم، أو سابق حالهم، وبتذكر أنهم جميعًا بنو آدم، وآدم من تراب، وأن الكرم عند الله بالتقوى، وأن المتفاخر بالقيم الجاهلية أهون على الله من الجعلان.

ومع ما عُرف عن ناقة رسول الله ﷺ من السرعة، فقد سبقتها مرة ناقة أعرابي، وشق ذلك على الصحابة، بينما تلقى رسول الله ﷺ الأمر بكل بساطة، بل اغتنم الفرصة، وعمق في النفوس سنة كونية، فقال: **«حق على الله: ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»**[2]، بحيث يرتدع المتعالين ويتواضع المتفاخر؛ لأنه لا يدوم

---

[1] (?) صحيح سنن ابن ماجه2/232الحديث2677/3312(صحيح).

[2] (?) صحيح البخاري-كتاب الجهاد-باب59-الحديث2872(الفتح 6/739.

شيء في الدنيا على حاله، فقد يَذِل الرفيع، ويرتفع الوضيع.

ومن كمال ما عرف عن تواضع النبي ﷺ: أنه كان يخدم أهله - وهو القادر على أن يستعين بالخدم - ويُسلّم على الصبيان الذين يلقاهم في الطريق - وهو الذي تهابُه الملوك - وحتى حين يكون في أوجِ قوَّتِه وانتصاره، لا يكون جبارًا في الأرض، فقد كان يوم غزو بني قُرَيظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، وحين دخل مكة فاتحًا، دخل منكس الرأس، تواضعًا لربه، وحذرًا من تسلل مشاعر الكبر إلى نفس المنتصر، الذي تحدثه نفسه بأنه هو الذي صنع النصر، وقد ينسى فضل الله وتوفيقه، وقد وصف ابن تيمية حال رسول الله ﷺ بقوله: (إنه اختار العبودية - والتواضع وإن كان هو الأعلى وهو ومن اتبعه - ..ولم يرد العلو، وإن كان قد حصل له)[1].

ويكفي المتكبرين ليؤوبوا إلى رشدهم، أن يعلموا أن الله لا يحبهم، ويصرفهم عن آياته، ويطبع على قلوبهم، ويسقيهم طينة الخَبَال، وتوعدهم بأن يقصمهم، و«**مَن كان في قلبه مثقال حبة خَرْدل من كِبْر أكبَّه الله على وجهه في النار**»

---

[1](?) مجموع فتاوى ابن تيمية11/131.

[1]، كل هذا الجزاء من أجل مثقال حبة خردل من كبر، فكم يحتاج المرء إلى حفظ قلبه من مشاعر الكبر والعجب والغرور!

ولا يدفع المرء إلى الكبر، إلا حب التميز عن الآخرين، أو الرغبة في عدم الخضوع لأحد، أو محاولة إخفاء نقص في ذاته، وكلها مهلكة للمرء«.. **فأما المهلكات: فشُحٌّ مُطاع، وهوى متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه»**[2].

كما يكفي المتواضع أن يعلم: أن الله يرفعه، وأن عباد الله تحبه، وأن رسول الله أسوته، وأنه أعرف بقدر ربه وبقدر نفسه، فاحذر من الانزلاق مع وساوس الشيطان، وأهواء النفوس، لعلك تكون من الذين يحبهم الله ويحبونه {**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين**} [المائدة: 54].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الذين يحبهم الله ويحبونه متواضعون.
- لا تعارض بين العزة على الكافرين والذلة على المؤمنين.
- عمر يدرب ولاته على الذلة لرعيتهم.
- من التواضع الاعتراف بالخطأ وقبول أعذار الناس.

---

[1] (?) مسند أحمد2/215ورواته رواة الصحيح.
[2] (?) صحيح الجامع-الحديث3045(حسن),

- خفض الجناح من صفات مَن يتصدر لقيادة الناس.
- من التواضع الخضوع للحق والانقياد له.
- يعين على التواضع تذكر الأصل البشري الواحد.
- من أعظم التواضع ما يكون في أوج القوة والانتصار.
- يعين على التواضع استحضار ما فيه من الأجر وما على المتكبرين من الوزر.
- يكفي المتواضع محبة عباد الله له ورفع الله إياه.

****

الفصل الرابع
الإحساس والتأثر

«من سرَّته حسنته وساءته سيئته، فذلكم المؤمن».

المؤمن الذي يتمتع بدرجة عالية من الإحساس والتأثر، يبقي حي القلب، مرهف الحس، وينعكس ذلك على سلوكه، بتفاعله

مع ما يجرى حوله، وانفعاله بما يثير ويحرك فيغضب الله، ويفرح لنصرة دين الله، ويتمعَّر وجهه إذا انتهكت حرمات الله، ويهتم لحال عباد الله وسطوة أعداء الله.

والفاقد لهذا الخلق: تراه بليدًا جامدًا، ميت الشعور، خامل الإحساس، يتلقى كل ما يجري حوله بفتور، إلا أن يكون أمرًا يمس مصالحه الشخصية، فيثور له ويغضب ويهتم لأجله ويسعى، وهل أمر نفسه أولى عنده من أمور جميع المسلمين؟ وهل مصيبته في نفسه أشد عليه من كل مصائب المسلمين؟.

إن صاحب (الإحساس والتأثر) يراعي مشاعر إخوانه، ويحترمها، ويحذر أن يمسها بسوء، يروى أن أبا سفيان - في هدنة صلح الحديبية - قبل إسلامه، مر على سلمان وصهيب وبلال، فأرادوا أن يسمعوه قولًا يغيظه، فقالوا: والله ما أخذت سيوفُ الله من عنق عدو الله مأخذها. فاستنكر عليهم أبو بكر ما قالوا، وقال لهم: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! وذهب أبو بكر فأخبر النبي بما جرى، فكان أول أمر أهم رسول الله، أن تساءل عن مشاعرهم تجاه ما صدر من أبي بكر، فقال له: **«يا أبا بكر لعلك أغضبتَهم، لئن كنت أغضبتهم،**

لقد أغضبت ربك»، فأتاهم أبو بكر يسترضيهم، ويستعطفهم، قائلًا: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي [1] حين تكون هذه الصورة نموذجًا يحتذي في العلاقات بين الإخوة، تتحقق فينا أخوة الإسلام بأسمى صورها.

ومن علامات حياة القلب، والتفكير في الآخرين، والاهتمام بأمورهم؛ أن يحزن المؤمن لحزن من يحب، ومن الصور البارزة لهذه المشاركة الشعورية: أن رسول الله شاور أصحابه في أسرى بدر، فرأى عمر أن يقتلوا، ورأى أبو بكر أن يعتبروا أسرى، ويؤخذ منهم الفداء، فمال رسول الله إلى رأى أبي بكر، فلما نزلت الآية في اليوم التالي: {**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ**}[الأنفال: 67]، والآية تعاتبهم {**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ**}، وتشير الآية التي تليها إلى أنه كان سيمسهم عذاب لذلك:{**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}[الأنفال: 68].

فأخذ رسول الله يبكي، وأبو بكر يبكي معه، ووجدهما عمر على هذا الحال فقال:

---

[1](?) صحيح مسلم-كتاب فضائل الصحابة-باب42-الحديث 170(شرح النووي16/299).

«يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما» فقال رسول الله : «**أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة..**»[1].

وحين أذن الله لرسوله بزيارة قبر أمه، (بكى هناك، وأبكى من حوله)[2] من الصحابة، ولما زار رسول الله سعد بن عبادة - وهو يحتضر - فرأى ما غشِيه من نزع الروح، بكى (فلما رأى القوم بكاء النبي ، بكوا)[3]، وبذلك نرى أن رسول الله كان رقيق القلب، سريع الدمعة، بالغ التأثر، قوي الإحساس، وكذلك كان الصحابة من حوله، فكيف نجد قلوبنا من بعدهم؟

ومن شواهد هذا الإحساس، وذلك التأثر، في مجتمع المسلمين، أن امرأة من الأنصار، لما علمت حزن عائشة، لما رُمِيت به من حديث الإفك، ذهبت إليها، وجلست تبكي معها[4]، فهل يطيب لك نوم، وأنت

---

[1] (?) صحيح مسلم-كتاب الجهاد-باب الإمداد بالملائكة-(شرح النووي12/84-87).

[2] (?) صحيح مسلم-كتاب الجنائز-الحديث108(شرح النووي 7/52).

[3] (?) صحيح البخاري-كتاب الجنائز-باب44-الحديث1304(الفتح 3/175)

[4] (?) صحيح البخاري-كتاب الشهادات-باب15-(الفتح5/271).

تعلم أن أخًا لك في محنة؟ إذا وجدت مصائب إخوانك تمر على مشاعرك دون أن تحركها، وتعبُرُ أمام عينيك ولا تدمعها، فاعلم أن قلبك بحاجة إلى جلاء وإحياء.

ومن أبرز ما يتمثل فيه خلق (الإحساس والتأثر): حزن المرء على نفسه إذا أذنب، وندمه على ما اجترح، بحيث يدفعه ذله إلى التوبة.

يروى أن السيدة عائشة كانت نذرت أن تهجر ابن أختها عبدالله بن الزبير، ثم تَمَّ الإصلاح بينهما (.. وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي، حتى تبل دموعُها خمارَها)[1]، لحزنها على ما نذرت من شر، ثم يأتي على الناس زمان، يفعلون فيه الموبقات وهي أدق في عيونهم من الشعر؛ لاستصغارهم لما فعلوا، ويفعل أحدهم الذنب، فلا يتأثر له إلا كما يتأثر مَن وقفت على أنفِه ذبابة، فهشها بيده وانتهى كل شيء. إن هذا لدليل ضعف الإيمان، وحياة القلب هي علامة الإيمان، ولذلك قال : **«.. مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»**[2]، ومثل هذا يأمن

---

[1] (?) صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب62-الحديث6073.
[2] (?) صحيح سنن الترمذي-أبواب الفتن-باب7-الحديث 1758/2268(صحيح).

عذاب الله في الآخرة؛ لخوفه من ذنبه في الدنيا.

قال أبو أيوب الأنصاري: (.. وإن الرجل ليعمل السيئة، فلا يزال منها مشفقًا، حتى يلقى الله آمنًا)[1]، وقد جاء في وصية لرسول الله قوله: «.. **وابكِ على خطيئتك**»[2].

وأول علامات حياة القلب: الشعور بالخطأ، ثم الشعور بالندم، ثم البكاء، ولا يبكي من لم يندمْ، ولا يندم مَن لم يشعر بعظم ذنبه.

إن التأثر بالمواقف التي تستدعي الشفقة والرحمة، صورة من صور هذا الخلق، ومن ذلك أن أبا أيوب الأنصاري رأى امرأة في السبي تبكي؟ فعلم أنه فرق بينها وبين ولدها، فجاءها بولدها فاعترض عليه أميره عبد الله بن قيس؟ وقال له: ما حملك على ما صنعت؟. قال: سمعت رسول الله يقول: «**من فرق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين**

---

[1] (?) فتح الباري11/330 وعزاه ابن حجر غلى أسد بن موسى في الزهد من حديث أبي أيوب الانصارى..

[2] (?) صحيح سنن الترمذي-أبواب الزهد-باب47-الحديث 1961/2530(صحيح)

الأحبة يوم القيامة»[3]، إنه التأثر لما قد يقع من ظلم , حتى على غير المسلمين.

ومثل ذلك التأثر بالمواقف، التي تستدعي السخط على الظلم والظالمين، فقد ورد أن بعض الصحابة، أرادوا المرور بديار أصحاب الحجر، فقال لهم رسول الله : **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثلما أصابهم»**[1].

ومن المواقف التي تقتضي التأثر: رؤية ما يغضب الله، أو ينفر الناس من الدعوة، فقد شكا رجل إلى النبي طول صلاة إمامهن يقول أبو مسعود الأنصاري:)فما رأيت النبي في موعظة أشد غضبًا من يومئذ([2].

والحري بأن يكون أكثر الناس إحساسًا بإخوانه، وتأثرا لما يحبه الله أو يبغضه، ولما يفرح المؤمنين أو يغيظهم، الحري بذلك أكثر من غيره، من كان أكثر علمًان فمزيد العلم يزيد الخشية، فإذا لم يتفاعل المرء

---

[3](?) مسند أحمد5/413 وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2/24.

[1](?) صحيح البخاري-كتاب الصلاة-باب53-الحديث433(الفتح 1/530).

[2](?) صحيح البخاري-كتاب العلم-باب28-الحديث90(الفتح 1/186).

مع ما يتعلم لم يرقَّ قلبه ولم يخشع، وقد استعاذ رسول الله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع[1]، ولذلك لو وصل علمنا، إلى ما وصل إليه علم رسول الله ، لضحكنا قليلًا، ولبكينا كثيرًا[2]، وقد كان الصالحون من سلف الأمة يتعهدون قلوبهم، فيقارنون بين حقيقة حالهم، ومحتوى أقوالهم، يقول إبراهيم التيمي: (ما عرضت قولي على عملي، إلا خشيت أن أكون مكذبًا)[3].

إن القلوب إذا طال عليها الأمد قست، وإذا ذكرت لانت ورقت، وتأثرت وشفت، وذلك حال المؤمنين حقًّا: {**إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**}[الأنفال: 2].

{**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**}[الأعراف: 201]، بينما إخوان الشياطين الذين ماتت قلوبهم {**يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ**}[الأعراف: 202].

إن هذا الدين بحاجة إلى مَن يتبنَّى همومه، ويحمل مسؤوليته، ويشعر بخطورة دوره، وليس بحاجة إلي أبواق رنانة،

---

[1] (?) يراجع مسند أحمد2/167، وصحيح سنن النسائي3/1112.

[2] (?) يراجع صحيح البخاري الحديث1044(الفتح2/529).

[3] (?) صحيح البخاري=كتاب الإيمان-من ترجمة الباب36(الفتح 1/109),

وأصوات طنانة، فليست النائحة كالثكلى.
فتعهَّد حساسية قلبك نحو حالك مع الله، وأحوال المسلمين.. فإذا سرَّك الخير وأفرحك، وساءك الشر وأهمك فأنت مؤمن، حي القلب، يقظ المشاعر.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الإحساس علامة حياة القلب ورهافة الشعور.
- **من علامات الإحساس:**
  - تقدير مشاعر الإخوة ومراعاتها.
  - الحزن لحزنهم والفرح لفرحهم.
  - الوجد والبكاء في المواقف المؤثرة.
  - الحزن على النفس إذا أذنبت
  - التأثر بمواقف الظلم.
  - الانفعال عند رؤية المنكر.
- أحرى الناس بالإحساس العلماء.
- تقسو القلوب إذا طال عليها الأمد.
- لا يقوم الدين إلا على أكتاف المتحرقين عليه.

الفصل الخامس
القناعة والعفة

«وكن قنعًا تكن أشكر الناس».

صورة اللاهث على الدنيا, المتهافت على الاستكثار منها بجشع وطمع, الذي يرضى بالدنية, ويعتاد الشكوى, ويُلحِف في السؤال, هذه الصورة لا تنسجم مع عزة

المجاهد, وقناعته, وتعففه, ورضاه بما قسم الله له.

إن الاستسلام لدواعي الطمع ليس له نهاية, إذا أرخى المرء عنان شهواته؛ لذلك جاء في الحديث: **«..إن هذا المال خضرة حلوة, فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه, ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه, كالذي يأكل ولا يشبع.. »** [1].

ويغلب الطمع على المتنافسين في الدنيا وزينتها, والمتطلعين دوما إلى من هو فوقهم, يعلل الإمام النووي ذلك بقوله: (لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا, طلبت نفسه مثل ذلك, واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى, وحرص على الازدياد؛ ليلحق بذلك أو يقاربه, هذا هو الموجود في غالب الناس...)[2].

وهذا الحرص الزائد في نفس المرء, يفسد عليه دينه, كما جاء في الحديث**:«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**[3].

---

[1](?)صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب50- الحديث1472.

[2](?)شرح مسلم للنووي-كتاب الزهد والرقائق-من شرح الحديث 2963.

[3](?)صحيح سنن الترمذي-كتاب الزهد- باب30- الحديث 1935/2495(صحيح).

والتعلق القلبي الزائد بزينة الحياة, وبالاستكثار من المال, يستعبد المرء, وقد دعا رسول الله على أولئك بالتعاسة: **«تعس عبد الدينار, وعبد الدرهم, وعبد الخميصة: إن أعطي رضي, وإن لم يعط سخط, تعس وانتكس... »** [1].

ولا تنال القناعة إلا بمجاهدة النفس وبتوفيق من الله **«..من يستعفف يعفه الله, ومن يستعن يغنه الله»** [2] وقد كان الصحابي الكريم حكيم بن حزام يمتنع من أن يأخذ حقه في الفيء - رغم إلحاح سيدنا عمر عليه - ويفسر ابن حجر سبب ذلك بقوله: (وإنما أمتنع حكيم من أخذ العطاء - مع أنه حقه - لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئا, فيعتاد الأخذ,فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده, ففطمها عن ذلك, وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه..)[3].

وقد عد رسول الله من أهل الجنة: **«عفيف متعفف, ذو عيال»** [4] إذ أنه يجاهد نفسه مع وجود الحاجة.

ومن تمام الاستعفاف: أن بعض الصحابة كانوا يبايعون رسول الله على ألا يسألوا

---

[1] (?) صحيح البخاري-كتاب الجهاد-باب70- الحديث2887.
[2] (?)صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب50-الحديث1469.
[3] (?)فتح الباري-كتاب الزكاة-باب50- من شرح الحديث1472.
[4] (?) صحيح مسلم-كتاب الجنة- باب16-الحديث63.

الناس شيئا, ويصف الرواي حالهم بعد رسول الله, فيقول: (..فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه, فما يسأل أحدا أن يناوله إياه)[1] مبالغة منهم في الالتزام بما بايعوا عليه. وفي حوار مع أبي ذر, قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنت وجوعاً يصيب الناس, حتى تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك, ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم, قال: عليك بالعفة...»**[2].

ومن المجاهدة ألا تكون الشكوى إلا إلى الله, وألا ينتظر الفرج إلا منه سبحانه, ففي الحديث: **«من أصابته فاقة فأنزلها بالناس, لم تسد فاقته, ومن أنزلها بالله, أوشك الله له بالغنى: إما بموت آجل, أو غنى عاجل»**[3].

وفي حالات الضرورة الشديدة التي تدفع المرء إلى أن يمد يده بالسؤال, شرط السؤال عدم وجدان الغنى لوصف الله الفقراء بقوله: يقول ابن حجر: {**لَا**

---

[1] (?)ورواه مسلم أيضاً. كتاب الزكاة-باب(35) الحديث(1043) ورواه أبو دواد أيضاً.

[2] (?)صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الفتن- باب10- الحديث 3197/3958(صحيح).

[3] (?)صحيح سنن أبي داود-كتاب الزكاة- باب29- الحديث 144/1645(صحيح).

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ...}
[البقرة:273]؛ إذ من استطاع ضربا بها فهو واجد لنوع من الغنى, والمراد بالذين أحصروا: الذين حصرهم الجهاد؛ أي: منعهم الاشتغال به من الضرب في الأرض - أي التجارة - لاشتغالهم به عن التكسب)[1].

الصورة التي أذِن فيها رسول الله بالسؤال, قيدها بحد معين «**حتى يصيب قوامًا من عيش, أو سدادًا من عيش... فما سواهن من المسألة - يا قبيصة - سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا**» [2].

وقد ذكر الإمام النووي اتفاق العلماء على النهي عن السؤال لغير ضرورة, واشترط في سؤال القادر على الكسب ثلاثة شروط: (ألا يذل نفسه, ولا يلح في السؤال, ولا يؤذي المسؤول, فإن فقد أحد هذه الشروط, فهي حرام بالاتفاق، والله أعلم)[3].

والمال الذي يأتي بغير تطلع النفس إليه, قال فيه رسول الله : «**إذا جاءك من هذا المال شيء - وأنت غير مشرف ولا سائل - فخذه, وما لا, فلا تُتبِعه**

---

[1] (?)فتح الباري3/240-كتاب الزكاة- باب53-.
[2] (?)صحيح مسلم-كتاب الزكاة-باب35- الحديث1043.
[3] (?)شرح صحيح مسلم للنووي-كتاب الزكاة- باب33-.

نفسك»[1], وفضَّل ابن بطال الأخذ على الترك, بشرط عدم استشراف النفس, وعلَّل الأفضلية بما يدل على مزيد فقه بطبائع البشر, فقال: (والوجه في تعليل الأفضلية: أن الآخذ أعون في العمل, وألزم للتصيحة من التارك, لأنه إن لم يأخذ, كان عند نفسه متطوعًا بالعمل, فقد لا يجد جدَّ مَن أخذ, ركونًا إلى أنه غير ملتزم, بخلاف الذي يأخذ, فإنه يكون مستشعرًا بأن العمل واجب عليه, فيجد جدَّه فيه)[2].

ولكي تتوفر في المسلم, دواعي الكفاية والقناعة, بشرف وعزة, دعاه الإسلام إلى العمل, فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده, لأن يأخذ أحدكم حبله, فيحتطب على ظهره, خير له من أن يأتي رجلًا فيسأله, أعطاه أو منعه»**[3], وذكر ابن حجر من فوائد الحديث: (الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها, ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق, وارتكب المشقة في ذلك, ولولا قبح المسألة في نظر الشرع, لم يفضل ذلك عليها, وذلك لما يدخل على

---

[1] (?)صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب51-الحديث1473.
[2] (?)نقلا عن فتح الباري13/154من شرح الباب 17من كتاب الأحكام.
[3] (?)صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب50- الحديث1470.

السائل من ذل السؤال, ومن ذلِّ الرد إذا لم يُعطَ)[1].

يقول أحمد في الدعوة إلى التوكل والتكسب: (أجرة التعليم والعلم, أحب إلب من الجلوس لانتظار ما في أيدي الناس, - وقال أيضا -: من جلس ولم يحترف, دعته نفسه إلى ما في أيدي الناس)[2].

والزهد بما في أيدي الناس, يحبب المرء إليهم, وفي وصية موجزة قال رسول الله : «**..وأجمعِ اليأسَ عما في أيدي الناس**» [3], كما في وصية جبريل لرسول الله «**..واعلَم أن شرف المؤمن قيامه بالليل, وعزه استغناؤه عن الناس**»[4].

وإذا علمنا ما كان عليه حال رسول الله , هان علينا أن نقنع بما نحن فيه, فقد وصف حاله النعمان بن بشير بقوله: (لقد رأيتُ نبيَّكم, وما يجد من الدقل ما يملأ به

---

[1](?) فتح الباري3/336-كتاب الزكاة- باب50-من شرح الحديث 1470.

[2](?)نقلا عن فتح الباري-كتاب الرقاق-باب16-.

[3](?) صحيح سنن ابن ماجه-كتاب الزهد- باب1-الحديث 3363/4171(حسن).

[4](?)صحيح الجامع- الحديث73(حسن).

بطنه)[1], وكان يدعو: «**اللهم اجعَل رزقَ آل محمد قوتًا»**[2].

ومن أسباب القناعة: أن ينظر المرء إلى حال مَن كان دونه؛ ليعرف نعمةَ الله عليه, كما جاء في الحديث: «**انظروا إلى مَن أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»**[3].

وصاحب النفس العفيفة لا يرضى أن تكون يده السفلى, ورسول الله يقول: **«اليد العليا خير من اليد السفلى, واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة»**[4], وسيكون أكثر تعففًا؛ حين يتخيل هذا التصوير لمال الصدقة: يذكر عبد الله بن الأرقم أنه طلب بعيرًا من بيت المال, فعرض عليه جمل من الصدقة, فأبى واستنكر أن يعرض عليه ذلك, وقال لصاحبه: (أتحب أن رجلاً بادناً في يوم حار, غسل لك ما تحت إزاره ورُفْغَيْه, ثم أعطاكه, فشربته؟ فغضب الرجل وقال: يغفر الله لك, أتقول لي مثل هذا؟! فقال

---

[1](?)صحيح سنن الترمذي- كتاب الزهد- باب26-الحديث 1932/2491(صحيح).
[2](?)صحيح سنن الترمذي-كتاب الزهد- باب25- الحديث 1924/2480(صحيح).
[3](?)صحيح مسلم-كتاب الزهد والرقائق- الحديث2963.
[4](?)صحيح مسلم-كتاب الزكاة- باب32- الحديث1033.

عبد الله بن الأرقم: إنما الصدقة أوساخ الناس؛ يغسلونها عنهم)[1].

ووما يُقوِّي القناعة: علم المرء بأن السؤال ذل في الدنيا, وعذاب وفضيحة في الآخرة, وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: **«من سأل الناس أموالهم تكثرًا, فإنما يسأل جمرًا, فليستقل أو ليستكثر»**[2].

وكذلك (من سأل وعنده ما يغنيه, فإنما يستكثر من النار)[3], ولماذا يستكثر من حيزت له الدنيا بأمنها وعافيتها وقوت يومها؟: **«من أصبح آمنا في سربه, معافى في بدنه, عنده قوت بومه, فكأنما حيزت له الدنيا»** [4], ولماذا يحزن المرء على شيء فاته من الدنيا, إذا اطمأن أنه من المفلحين؟ **«قد أفلح من أسلم ورزق كفافا, وقنعه الله بما آتاه»** [5]؟ وكيف يلهث طامعًا إذا علم بخطر ذلك على عاقبته، إن لم يؤد حقَّه؟:

---

[1] (?)الموطأ2/1001-كتاب الصدقة-باب3- الحديث15(قال الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول10/150-إسناده صحيح) والرفغ: أصول الفخذين من باطن.

[2] (?)صحيح مسلم-كتاب الزكاة- باب35- الحديث1041.

[3] (?)صحيح سنن أبي داود- كتاب الزكاة- باب24-الحديث 1435/1629.

[4] (?)صحيح سنن الترمذي- كتاب الزهد- باب21- الحديث 1913/2463(حسن).

[5] (?)صحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب43-الحديث1054.

«الأكثرون هم الأسفلون, إلا من قال هكذا, وهكذا, وهكذا» [1].

وما فائدة الاستكثار والكنز إذا كانت احتياجات المرء محدودة بضرورات معينة؟: **«وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو ليست فأبليت؟!»** [2].

والخلل في قناعة المسلم قد ينشأ عن اهتزاز بعض مفاهيمه الإيمانية, من الرضا بالقدر, في العسر واليسر, لذلك كان من دعائه : «**..وأسألك نعيمًا لا ينفد, وقرة عين لا تنقطع, وأسألك الرضا بالقضاء»**[3].

وفي دعاء الاستخارة: «**..واقدر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به»**[4]، ومن دواعي الرضا بالتفكير بالأجر, كما في الحديث: «**لو تعلمون ما لكم عند الله, لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»** [5], وكذلك قوله : «**لو تعلمون ما ادُّخِر**

---

[1] (?)صحيح سنن ابن ماجه- كتاب الزهد- باب8- الحديث 3333/4131(حسن صحيح).

[2] (?)صحيح سنن الترمذي-كتاب الزهد- باب21- الحديث 1909/2459(صحيح).

[3] (?)صحيح سنن النسائي-كتاب السهو- باب62-الحديث 1238(صحيح).

[4] (?)صحيح البخاري-كتاب التوحيد- باب10-الحديث7390.

[5] (?)صحيح الجامع- الحديث5265(صحيح).

لكم, ما حزنتم على ما زوي عنكم»[1].

قد يكون أب فقيرً قانعًا مستعففًا, كما قد يكون الغني طماعًا جشعا, ذلك لأن الغنَى غنى النفس, قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض, ولكن الغنى غنى النفس»**[2], وقد وصف رسول الله ﷺ حال الناس في القرون المتأخرة, فعد من أشراط الساعة «**..وأن يعطى الرجل ألف دينار, فيتسخطها»**[3],وهذا من أشد صور الحرص والطمع, كما أن القناعة أعلى صور الشكر والرضا: «**..وكن قنعًا تكن أشكر الناس»** [4].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- المستسلم لدواعي الطمع كالذي يأكل ولا يشبع.

-التنافس على الدنيا من دواعي الطمع.

- لا تُنال القناعة إلا بالمجاهدة.

- من تمام عفَّة الصحابة بيعتهم على ألا يسألوا الناس شيئًا.

- من شروط العلماء في السؤال:

- عدم وجدان الغنى.
- عدم إذلال النفس.

---

[1](?)صحيح الجامع- الحديث5261(صحيح).
[2](?)صحيح البخاري- كتاب الرقاق-باب15-الحديث6446.
[3](?)صحيح الجامع- الحديث3607(صحيح).
[4](?) صحيح الجامع- الحديث4580(صحيح).

- عدم الإلحاح في السؤال.
- عدم استشراف النفس.

- يعين على العفة والقناعة:

- العمل لتأمين الكفاية.
- الاقتداء بحال السلف.
- النظر إلى من هو دونك.
- استحضار ما في السؤال من ذل الدنيا والآخرة.

- احتياجات المرء محدودة فلا حاجة للطمع.
- تصاب القناعة بالخلل إذا اهتز الإيمان بالقدر.
- من أغرب الأحوال قناعة الفقير وطمع الغني.
- القناعة أعلى صور الشكر والرضى.

****

الباب السابع

من أخلاقنا في ضبط السلوك

الفصل الأول: تجنب الفتن.
الفصل الثاني: الأعذار.
الفصل الثالث: القصد.
الفصل الرابع: المراجعة والتصحيح.
الفصل الخامس: الحرص على الانتفاع.
الفصل السادس: المداومة على فعل المعروف.

****

الفصل الأول
تجنب الفتن

«إن السعيد لمن جُنِّب الفتن.. ».
نعني بالفتنة ما يصيب الفرد أو الجماعة من هلاك أو تراجع في المستوى الإيماني، أو زعزعة في الصف الإسلامي.
من أول أسباب الوقوع في الفتنة استعداد القلب لقَبولها كما في الحديث **«تُعرَض الفتن على القلوب.. وأي**

قلب أُشرِبَها نُكِتَت فيه نكتة سوداء»[1], وكذلك قَبول السعي فيها, ففي الصحيح «**..الماشي فيها خير من الساعي, من تشرف لها تستشرفه»**[2]؛ أي: مَن تطلَّع لها صرعته فيها.

وأشد ما يُؤجِّج الفتن الخوض بالألسنة, يقول القرطبي في تعليل أسبابِ كثيرٍ من الفتن أنها تبدأ: (بالكذب عند أئمة الجور, ونقل الأخبار إليهم, فربما ينشأ من ذلك الغضب والقتل, أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها)[3].

وكم تكبُرُ الفتنة حينما يبني المرء موقفه على وهم!! وذلك مثلما حصل مع الصحابيَّين الكريمين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حينما أشار أبو بكر بتأمير رجل على وفد بني تميم وأشار عمر بتأمير غيره, فقال أبو بكر: (إنما أردتَ خلافي), وعمر يقول له: (ما أردت خلافك), وعلت أصواتُهما عند رسول الله حتى إن راوي الحديث قال: (كاد الخيِّران أن يهلِكا)[4].

---

[1] (?)صحيح مسلم-كتاب الإيمان-باب65-الحديث231- واللفظ لأحمد5/386.
[2] (?)صحيح البخاري-كتاب الفتن-باب9- الحديث7081.
[3] (?)عن عون المعبود11/347.
[4] (?)صحيح البخاري- كتاب الاعتصام-باب5- الحديث7302.

وأخطر ما يقود إلى الفتن تقديم الرأي على حكم الشرع, فقد جاء في صحيح البخاري أن سهل بن حُنَيف قال عند فتنة الصحابة: (أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم)[1].

وقد تفر من الفتنة فيلاحقك أهلها وأنت كاره للخوض فيها كما ورد عن أبي الدرداء : (إن ناقدت ناقدوك, وإن تركتهم لم يتركوك, وإن هربت منهم أدركوك)[2].

وقد يكون استلامك لإمارة لا تقدر عليها سببَ فتنةٍ لك ولمن معك, ولذلك جزع عمرو بن العاص جزعًا شديدًا لما حضرته الوفاة, وتذكر حياته مع رسول الله إلى أن قال: «**فلو مت حينئذٍ قال الناس: هنيئًا لعمرو أسلم وكان على خير فمات فرُجِي له الجنة, ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء, فلا أدري عليَّ أم لي..**»[3].

وإن كنت في موضع القدوة أو الإمرة فلا تحمل الناس ما لا يُطِيقون, فتفتنهم, فإن رسول الله لما علم أن معاذاً يُطِيل الصلاة بالناس قال له ثلاثًا: «**يا معاذ!**

---

[1] (?)صحيح البخاري- كتاب الاعتصام -باب7- الحديث 7308موقوف على سهل ابن حنيف.
[2] (?)كنز العمال: الحديث30989-وقال: «رواه الخطيب وابن عساكر.. وصحح الخطيب وقفه».
[3] (?)مسند أحمد4/199.

أفتَّان أنت؟!»[1], وفي خطبة لعمر - ‌ - قوله (ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم, ولا تجمروهم فتفتنوهم, ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم)[2].

وإن الانشغال بالقول عن العمل كثيرًا ما يفضي إلى كثير من الفتن والمشكلات. يقول ابن تيمية - رحمه الله -: (فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العدواة, حتى تقع بينهم الفتنة - كما هو الواقع -)[3], وفي المثل: (العسكر الذي تسوده البطالة يجيد المشاغبات)[4].

إن من آثار الفتنة أنها تُنسِي الواقعين فيها حقائق يعرفونها وحدودًا كانوا يلتزمونها, وإن الواقِع في الفتنة تخف تقواه, ويرقُّ دينه, ولذلك حين يبعد أناس عن الحوض كان يظنهم رسول الله ‌ من أمته يجاب: **«لا تدري مشوا على القَهْقَرى»**، قال راوي الحديث - ابن أبي مُلَيْكة -: (اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتَن)[5].

---

[1] (?)صحيح البخاري- كتاب الأدب-باب74-الحديث6106.
[2] (?)مسند أحمد1/41. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن(286). ومعنى تجمروهم: أي تطيلون غيابهم عن زوجاتهم.
[3] (?)مجموع فتاوي ابن تيمية15/44.
[4] (?) نقلا عن كتاب(العوائق) ص15.
[5] (?) صحيح البخاري-كتاب الفتن- باب1-الحديث7048.

وفي الحديث الذي يسأل فيه حُذَيفةُ عن الشرِّ: «..يا رسول الله، الهدنة على الدخن ما هي؟ قال: «**لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه»** [1], يقول شارح الحديث: (أي لا تكون قلوبهم صافية عن الحقد والبغض كما كانت صافية قبل ذلك) [2].

ترى الرجل العاقل ولا تدري أين ذهب عقله في حال وقوع الفتنة, ينقل ابن حجر حديثًا لابن أبي شيبة في الفتن: «**ثم فتنة تموج كموج البحر وهي التي يصبح الناس فيها كالبهائم**»؛ أي: لا عقول لهم, ويؤيده حديث أبي موسى: «**تذهب عقول أكثر ذلك الزمان»**[3].

وحين بيَّن ابن حجر استحباب الاستعاذة من الفتن, حتى في حق مَن علم أنه على حق, علل ذلك بقوله: (لأنها قد تُفضِي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه)[4].

ومن أخطر آثار الوقوع في الفتن انعدام التأثر بالموعظة, روى أحمد (أن أخاً لأبي موسى كان يتسرع في الفتنة فجعل ينهاه ولا ينتهي فقال:(إن كنت أرى سيكفيك مني اليسير - أو قال من الموعظة - دون ما

---

[1] (?)صحيح سنن أبي داود للألباني-الحديث3571(حسن).
[2] (?)عون المعبود11/317, عند شرحه للحديث4227.
[3] (?)فتح الباري13/49-كتاب الفتن- الباب17.
[4] (?)فتح الباري13/52, عند شرحه للحديث7098.

أرى...)[1], بل ويستصغر الناس المعاصي. يقول عبدالله بن عمر: (في الفتنة لا ترون القتل شيئاً)[2]، فما سبيل النجاة من الفتن؟

من المنجيات من الفتن: أن تتنازل عن حقك في الدنيا,وإن كان الصبر على ذلك شاقاً على النفس, كما جاء في سنن أبي داود: «**إن السعيد لمن جُنِّب الفتن - ثلاثاً - ولمن ابتلي فصبر فواهاً**»[3]، ومن كانت الفتنة تحيط به ولا مُنجِيَ به منها فليفرَّ بدينه من الفتن أو ليكثر من العبادة كما في الحديث: «**العبادة في الفتنة كالهجرة إليَّ**»[4], والتزود بالأعمال الصالحة مطلوب للوقاية من الفتنة قبل وقوعها, قال ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا**»[5].

يقول النووي في شرح الحديث: (معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال قبل تعذُّرها, والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتراكمة المتكاثرة)[6].

---

[1] (?)مسند أحمد4/401, والشاهد من الحديث موقوف على أبي موسى.

[2] (?)مسند أحمد2/32, موقوفا على عبدلله بن عمر.

[3] (?)صحيح سنن أبي داود للألباني- الحديث3585(صحيح). (واهاً: ما أطيب الصبر على البلاء).

[4] (?) مسند أحمد5/27, وفي صحيح الجامع برقم 4119 بلفظ«العبادة في الهرج..» (صحيح)

[5] (?)صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب 51-الحديث 186.

[6] (?)شرح صحيح مسلم للنووي 1/492.

ومَن كان يملك أسباب الفتنة فليتخلَّص منها كما جاء في الحديث: **«كسِّروا فيها قِسِيَّكم»**[1] حتى إن كعب بن مالك يذكر في قصة الثلاثة الذين خلفوا؛ كيف جاءه كتاب من ملك غسَّان وفيه (قد بلغني أن صاحبك قد جفاك, ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة, فالحق بنا نُواسِك)، يقول كعب: (فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء فتيمَّمت التنُّور فسجرتُه بها) [2].

وحاول في الفتنة ألا تكون أميرًا فإن أسامة كان يقول: (ما أنا بالذي أقول لرجل - بعد أن يكون أميرًا على رجلين -: أنت خير)[3]، يقول ابن حجر: (فكان أسامة يرى أنه لا يتأمر على أحد, وإلى ذلك أشار بقوله: لا أقول للأمير: إنه خير الناس)[4].

والدعاء بالحماية من شرور الفتن سبب من أسباب النجاة ففي مسند أحمد: **«وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون»**[5]، وفي دعاء عمر : (نعوذ بالله من شر الفتن)، وقال أنس : (عائذاً بالله من شر الفتن)[6].

---

[1](?)صحيح سنن الترمذي للألباني -الحديث 1795/2314 (صحيح).
[2](?)صحيح البخاري- كتاب الفتن- باب 17- الحديث 7098.
[3](?)فتح الباري13/52, عند شرحه للحديث7098.
[4](?)مسند أحمد1/368, وفي صحيح الجامع برقم59 (صحيح).
[5](?)صحيح البخاري-كتاب الفتن- باب15- الحديث7089.
[6](?)صحيح البخاري-كتاب الفتن-باب15- الحديث7090.

وينجيك عند الله أن تنكر الفتنة، ولا ترضى بها، ولا تعين عليه، قال : «.. **وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامتِ السماوات والأرض**»[1].

وأهم المنجيات أن يفقه المرء دينه، وأن يميز حدود الشرع - دون التباس - فقد نقل ابن حجر عن ابن أبي شيبة حديثاً عن حذيفة يقول فيه: (لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك, إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل)[2].

ورغم كل هذه الأسباب المنجية وغيرها, لا بدَّ للقلب من أن يبقى معلقا بالله, وحقاً: «**إن السعيد لمن جُنِّب الفتن**»، فاجتناب الفتن حفظ رباني, أكثر من كونه كسبًا بشريًّا, فخذ بالأسباب واستعِن بالله.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- من أسباب الوقوع في الفتنة:

- استعداد القلب لقبولها.
- الخوض بالألسنة واعتقاد الأوهام.
- تقديم الرأي على حكم الشرع.
- استلام إمارة لا يُعان عليها.
- الانشغال بالقول عن العمل.

---

[1] (?)صحيح الجامع برقم2960, ورواه أحمد ومسلم.
[2] (?)فتح الباري-13/49- كتاب الفتن-من شرحه للباب 17.

- من آثار الفتنة:

- تُنسِي الناس حقائق يعرفونها.
- ترقق الدين.
- تُذهِب العقل.
- تعدم التأثر بالموعظة.

- من المنجيات من الفتن:

- التنازل عن حقك في الدنيا.
- الفقه في الدين.
- التخلص من وسائل الفتنة وأسبابها.
- عدم تولي إمرة في الفتنة.
- الدعاء بالحماية من شرها.
- إنكار القلب للفتنة.
- التزود بالعمل الصالح.

- اجتناب الفتن حفظ رباني أكثر من كونه كسبًا بشريًّا.

الفصل الثاني

الإعذار

«مَن أقال مسلمًا أقاله الله عثرته».

لما بالغ الناس بسوء الظن وبالمبادرة
الى التعنيف والتأثيم, كان لا بدَّ من وقفة

مع (الإعذار), ونعني به: العفو عن المخطئ المستعفي عن إساءته, وقبول عذر صاحب العذر, والتماس العذر لمن لا نعرف عذره.

يساعدك في قبول عذر إخوانك أو التماس العذر لهم, أن تكون في تقويم الناس والحكم على أعمالهم، بعيدًا عن الاعتداد برأيك, متهمًّا لنفسك, يقول سهل بن حُنَيف : (يا أيها الناس! اتهموا رأيكم على دينكم؛ لقدر رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته..) [1], وعلل مقولته تلك بأنهم - في نظر العقل - ما كانوا يعذرون رسول الله في صلح الحديبية, مما كاد يجعلهم يردون أمر رسول الله , فتوقع سوء التقدير منك قبل المسارعة إلى اتخاذ رأي أو موقف.

كما يساعدك على الإعذار؛ الفقه في الدين وإدراك حدود الشرع, يقول أنس بن مالك: (لقد كنا نصلي مع رسول الله صلاة, لو صلاها أحدكم اليوم لعِبْتُموها عليه) [2]، فقد يكون منشأ إنكارك هو جهلك, وليس خطأ أخيك.

وحين يخالفك أخوك في الاجتهاد, قد يكون في الأمر سَعة لا تقتضي الإنكار عليه, يقول أنس بن مالك: (كنا نسافر مع النبي

---

[1] (?)صحيح البخاري-كتاب الاعتصام- باب 7- الحديث 7308.
[2] (?)مسند أحمد 3/158, موقوفاً على أنس بن مالك.

فلم يُعِب الصائم على المُفطِر ولا المفطر على الصائم)[1]، وفي مثل هذه المواطن تجد الحكمة في أن نتعاون فيما اتفقنا عليه, ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

وليس من التقوى أن تتتبع عَوْرات الناس, وتحصي عليهم زلاتهم, فقد (نهى رسول الله أن يطرق الرجل أهله ليلًا؛ يتخوَّنهم, أو يلتمس عثراتهم)[2]؛ وذلك لأن الأصل حسن الظن والستر, وليس إقامة الحجة على الناس بتأثيمِهم أو استدراجهم للوقوع في الإثم, فذلك مخالف لخلق (الإعذار).

وإذا عرَض أخوك عليك عذرًا, فلا تُجادِله فيه, يقول ابن القيم: (وعلامة الكرم والتواضع, أنك إذا رأيت الخلل في عذره, لا توقفه عليه ولا تحاجه؛ وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول)[3].

وإن دواعي الإعذار لكثيرةٌ؛ على رأسِها أن الله سبحانه يحب أن يعذر ولذلك لا يعذب عباده؛ حتى يقيم عليهم الحجة؛ بحيث لا يبقى لهم عذر, وقد صرح بذلك رسول الله بقوله: «ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»[4].

---

[1] (?)صحيح البخاري- كتاب الصوم- باب 37- الحديث1947.
[2] (?)صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب56- الحديث184.
[3] (?)تهذيب مدارج السالكين- منزلة التواضع- ص433.
[4] (?)صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب20- الحديث7416.

وكل واحد منا لا بد أن يهفو, ويحب عندئذٍ أن يجد من يعذره, ولذلك جاء في الحديث: **«مَن أقال مسلمًا أقاله الله عثرته»**[1]، فتجاوزك عن عثرة أخيك تجده في تجاوز الله عن عثرتك.

ومن دواعي الإعذار مراعاة الضعف البشري الذي يصيب كل إنسان, فإن آخر رجل يدخل الجنة كلما أعطاه ربه شجرة قريبة إلى الجنة يستظل بها, ويشترط الله عليه أن يعاهد على ألا يطلب غيرها, وبعد أن يعاهد على ذلك, يرى شجرة غيرها أقرب إلى الجنة, فيطلب من ربه أن يدنيه إليها, والرسول يقول: «**وربه عز وجل يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه»**[2]، لو تذكرت هذا فسوف تعذر أخاك في كثير مما لا صبر له عليه, وكلنا نضعف.

ومن صور الإعذار أن تعذر صاحب المنزلة والوجاهة الذي لا يعرف بالشر, فلا تغلظ عليه, فإن رسول الله أمر بإقالة عثرته: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»**[3].

---

[1] (?)صحيح سنن ابي داود للألباني- كتاب الإجازة- باب18 الحديث 2954/3460(صحيح).

[2] (?)صحيح مسلم ح- كتاب الإيمان- باب83- الحديث187. ورواه أحمد1/410.

ولما بدأت بوادر عداوة عبد الله بن أبي لرسول الله ، قال سعد بن عُبادة: «**يا رسول الله، اعفُ عنه واصفح**»[1] وعلل طلب العفو؛ بأن هذا الرجل كاد يتوج ملكاً على المدينة, وأنه أحس وكأن النبي - بقدومه إلى المدينة - قد استلبه ملكاً, وذلك سر عداوته, وكان هذا التعليل محاولة من سعد بن عبادة لإعذار رأس المنافقين أمام عوامل الضعف البشري.

ولما نزلت آية القذف تشترط أربعة شهود, تساءل سعد بن عبادة: «**أهكذا نزلت يا رسول الله؟!**»، فتعجب النبي من تساؤله, غير أن الأنصار قالوا: «يا رسول الله! لا تلمه؛ فإنه رجل غيور» ثم تكلم سعد: «والله يا رسول الله! إنى لأعلم أنها حق, وأنها من الله تعالى»[2]، ووضح سبب تساؤله, بأنه لو ذهب يبحث عن أربعة شهود, يكون الزاني قد قضى حاجته، فقبِل رسول الله عذره, وأعلمه أن الله أغير منه, وهكذا إن كان لأخيك طباع خاصة تدفعه إلى سلوك لا ترضاه فتأول له, وأرفق به, واستوضحه.

---

[3](?)صحيح سنن أبي داود للألباني- كتاب الحدود -باب 4- الحديث 3679/4375(صحيح).

[1](?)صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب115- الحديث6207.

[2](?)مسند أحمد 1/238. والقصة عن البخاري(حدود-باب40) ومسلم(اللعان-باب16).

وإن من دواعي الأعذار توقع الجهل من المذنب ففي حديث ماعز أنه لما جاء يعترف بالزنا قال له النبي : **«لعلك قبَّلت, أو غمزت, أو نظرت»**، يقول ابن عباس: (كأنه يخاف ألا يدري ما الزنا)[1]، فخشية أن يكون قد جهل المعنى الشرعي للزنا استفسر, فلما تحقق من وقوعه فيما لا يحتمل الشك, أقام عليه الحد الشرعي.

ومن شواهد الأعذار بالجهل قصة رجل ممن قبلنا, **«طلب من بنيه أن يُحرقوه إذا مات, ويذروه في الريح؛ حتى لا يقدر الله على جمعه وتعذيبه - بظنه - فجمعه الله, وسأله ما دفعك إلى هذا؟ قال: يا رب خشيتك, فغفر الله له»** [2]، واستدل بعض العلماء بذلك على أعذار هذا الرجل بجهله في مسألة من مسائل العقيدة, أو أعذاره بشدة خوفه من الموت, وأنه لم يقصد حقيقة ما قال, أفلا تعذر أخاك بجهله فيما هو أدنى من هذا؟! مع أن هذا في حق الله, أفلا تعذر في حق نفسك؟ قال ابن القيم: (من أساء إليك, ثم جاء يعتذر عن إساءته, فإن التواضع يوجب

[1] (?)هذا جمع بين رواية البخاري(حدود-باب28- الحديث6824) ورواية مسند أحمد 1/325, وموضع الشاهد من رواية أحمد.
[2] (?)صحيح البخاري- كتاب الأنبياء- باب54- الحديث3481. وله روايات عديدة ويراجع فتح الباري6/522-523.

عليك قبول معذرته - حقًّا كانت أو باطلًا - وتكل سريرته إلى الله)[1]، فكن متواضعًا واعذِرْ.

وإنَّ بعض جوانب الخير في شخصية أخيك المسلم لتدعوك أن تعذِرَه, بأن الشر ليس أصيلًا في نفسه, وفي صحيح البخاري أن رجلًا جلد بشرب الخمر, فلعنه رجل من القوم, فقال النبي **«لا تلعنوه, فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»**[2]، فالأعذار بلمسة الحنان والرفق والإعانة على الشيطان, فيما عدا الحد فإنه حق الله, ولا رأفة فيه إذا ثبت, يقول ابن القيم: (الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر، والثابت أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفه أمره, مع علمه بذلك, وتمكنه من الفعل والترك)[3]، فإنه لا تعارض بين وجوب الأعذار, ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكم تكون ظالماً حين تتهم النيات! وكم تكون متكبرًا حين تستعلي على عذر أخيك.

---

[1](?)تهذيب مدارج السالكين- منزلة التواضع- ص433.
[2](?)صحيح البخاري- كتاب الحود- باب 5- الحديث 6780.
[3](?)تهذيب مدارج السالكين- منزلة التوبة ص126.

بالأعذار تستطيب القلوب, وتقضي على بذرة الشر, وتستأصل الضغينة, وتعين على التوبة, فلنخذل الشيطان ولنعذر.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الأعذار قبول العذر أو التماسه.

- يعين على الأعذار:

- عدم تقديم الرأي على الدين.
- إدراك حدود الشرع والعلم بالرخص.
- إحسان الظن بالناس.

- من دواعي الأعذار:

- أن الله سبحانه يحب أن يعذر.
- كل امرئ يحب أن يجد مَن يعذره.
- مراعاة الضعف البشري.
- إقالة ذوي الهيئات.
- توقع الجهل من المذنب.
- وجود جوانب خير في شخصية أخيك.

- من الظلم اتهام النوايا وعدم قبول العذر.

****

الفصل الثالث

القصد

«عليكم هَدْيًا قاصدًا فإنه مَن يشاد هذا الدين يغلبه»[1].

تبتهج النفس برؤية شاب متحرق, متدفق, وينشرح الصدر لحديث الهداية حين ينطلق بقوة وهمة, ويرتاح القلب لحماسة الشباب للجهاد والدعوة والعلم,.. ومقابل

[1](?) صحيح الجامع برقم 4086(صحيح).

كل هذا يغيظ القلب ما نرى من مظاهر الدعة والعجز والكسل والضعف والفتور, فهل نتفاءل بالانطلاقة المفرطة أم بالسكينة المفرطة؟!

القصد هو الاعتدال في السلوك, والتوازن في الفكر, والتوسط في كل الأمور بين طرفي الإفراط والتفريط, وخير الأمور الوسط{**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...**}[البقرة:143].

ولا يظنَّنَّ أحدٌ أن القصد خلاف السنة, أو أن الغلوّ زيادة في التقوى, فإن رسول الله ﷺ استنكر على مَن عزم على الغلو في الصيام أو القيام أو الانقطاع عن الشهوة, وأفهَمهم أن التوسط هو الأتقى: «**أما والله إني لأخشاكم لله, وأتقاكم له, لكني أصوم وأفطِر, وأصلي وأرقد, وأتزوج النساء, فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

كما أن الطبيعة البشرية - بفطرتها - أقرب إلى القصد, ولديها قابلية الانحدار

---

[1] (?)صحيح البخاري- كتاب النكاح- باب1- الحديث5063 (ومسلم, النكاح, الحديث1401).

والصعود, ولن يستطيع امرؤ أن يتجاوز طبيعته لبشرية إلى الطبيعة الملائكية, ولذلك لما ظن حنظلة الكاتب التميمي الأسيدي ملاعبته لأهله وضحكه معهم بعد أن كان في خشوع وبكاء في مجلس النبي , لما ظن هذا التبدل في الحال نوعًا من النفاق, طمأنه رسول الله بقوله: **«يا حنظلة! لو كنتم كما تكونون عندي, لصافحتكم الملائكة على فرشكم, يا حنظلة! ساعة وساعة»**[1].

والقصد أقرب إلى الطاقة والاحتمال, لذلك كان رسول الله يُعلّق على صور الغلو في العبادة بقوله: **«عليكم بما تُطِيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملُّوا»**[2]، **«ليُصَلِّ أحدكم نشاطه فإذا فتَر فليقعُد»**[3].

والقصد أدعى إلى الدوام على العمل والاستمرار فيه والثبات عليه, يقول ابن حجر رحمه الله: (لأن المُشدِّد لا يأمن من الملل, بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره.

1(?)صحيح ابن ماجه للألباني- كتاب الزهد- باب 28- الحديث 3417/4239(صحيح).

2(?)صحيح البخاري- كتاب الإيمان- باب31- الحديث43(ومسلم, المسافرين, الحديث221).

3(?)صحيح البخاري- كتاب التهجد- باب18- الحديث1150.

وخير العمل ما دوام عليه صاحبه)[1] وقال النووي: (بدوام القليل تدوم الطاعة، حتى يثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة)[2], وقال ابن حزم: (فأمر أمته بأن يقتصدوا في الأمور؛ لأن ذلك يقتضي الاستدامة عادة)[3].

وإلى ذلك أشار رسول الله بقوله: **«سدِّدوا وقاربوا, واغدوا وروحوا, وشيء من الدلجة, والقصد القصد تبلغوا»**[4].

يقول ابن حجر في شرح الحديث: («وقاربوا» أي لا تفرطوا, فتجهدوا أنفسكم في العبادة؛ لئلا يُفضِي بكم ذلك إلى المَلال؛ فتتركوا العمل فتفرطوا, وقد أخرج البزار: **«إن هذا الدين متين, فأوغلوا فيه برفق, ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله, فإن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»** [5].

---

[1](?)فتح الباري 9/105(من شرح كتاب النكاح باب1).
[2](?)شرح صحيح مسلم للنووي6/318-319.
[3](?)نقلاً عن فتح الباري 11/300- الرقاق-باب18.
[4](?)صحيح البخاري- كتاب الرقاق-باب18- الحديث 6463(الفتح 11/294).
[5](?)فتح الباري 11/297. حيث قال: (وقد أخرج البزار من طريق محمد بن سوقة عن ابن المندر عن جابر- ولكن صوب إرساله0 وله شاهد في الزهد لابن المبارك من حديث ابن عمرو موقوف).

وليس المقصود بالقصد التقصير, فقد كان النبي يوجز الصلاة ويكملها [1] وفي حديث آخر : (وكانت خطبته قصدًا وصلاته قصداً) [2]، كما روى ابن عباس في وصف وضوء رسول الله : (فتوضأ ولم يكثر من الماء, ولم يقصر في الوضوء)[3]. بل كان القصد صفة بارزة للأنبياء كما في الحديث **«السمت الحسن, والتؤدة, والاقتصاد, جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة»**[4].

وحين نستنكر الغلو, فإننا ننكر الإفراط بشدة الإقبال والالتزام المفضي إلى الترك, أو الملل أو الخروج عن القصد, بسبب المبالغة في النوافل, أو العمل على جهل وغفلة, كما ننكر التفريط والتهاون بشدة التكاسل والتقصير والإعراض والانفلات, ولكن الثاني تستنكره الطباع السليمة

---

[1] (?)صحيح البخاري -كتاب الأذان- باب 64- الحديث 706 عن أنس بن مالك.

[2] (?)صحيح سنن ابن ماجه للألباني- كتاب الإقامة- باب85- الحديث 908/1106(صحيح).

[3] (?)صحيح مسلم - كتاب المسافرين- باب26- الحديث 189(شرح النووي 6/297)

[4] (?)صحيح الجامع- الحديث 3692(حسن) عن عبد لله بن سرجس مرفوعاً. ونقل الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في حاشية الموطأ قول الباجي: (يريد أن هذه من أخلاق الأنبياء وصفاتهم التي طبعوا عليها وأمروا بها, وجبلوا على التزامها- قال: ونعتقد هذه التجزئة ولا ندري وجهها, يعني لأن ذلك من علوم النبوة فطريق معرفة ذلك بالرأي والاستنباط مسدود).

عادة, أما الأول فهو الذي يغتر به النغترون, ويلتبس على كثير من الناس, وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«هلك المتنطعون»**[1]، وحذر منه بقوله: **«يا أيها الناس، إيَّاكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»**[2]، قال القرطبي في الخوارج: (لما حكموا بكفر من خالفهم, استباحوا دماءهم, وتركوا أهل الذمة, فقالوا: نفي لهم بعهدهم, وتركوا قتال المشركين, واشتغلوا بقتال المسلمين, وهذا كله من آثار عبادة الجهال, الذين لم تنشرح صدورهم بنور العلم, ولم يتمسكوا بحبل وثيق من العلم..)[3].

ويعلق ابن حجر على نتائج الغلو فيقول: (..من المسلمين من يخرج من الدين من غير أن يقصد الخروج منه، ومن غير أن يختار دينًا على دين الإِسلام) وحذَّر من الاغترار بالغالين في بعض صور العبادة، وأن ذلك لا يكفي دليلًا على الصلاح، فقال: (لا يُكتفى في التعديل بظاهر الحال، ولو

---

[1] (?)صحيح مسلم -كتاب العلم- باب4- الحديث2670(شرح النووي 16/461).

[2] (?)صحيح سنن ابن ماجه للألباني -كتاب المناسك- باب 63- الحديث 2455/3029(صحيح).

[3] (?)نقلاً عن فتح الباري 12/301-النرتدين- باب7- وعزاه ابن حجر إلى كتاب المفهم للقرطبي.

بلغ المشهود له بتعديله الغاية في العبادة والتقشف والورع، حتى يُختبر باطنه)[1].

وإنه لمن الغلو في الدين، ومن مجانبة القصد، أخذ النفس بالعزيمة؛ فيما ترخّص به النبي ﷺ، وفي ذلك يقول: **«ما بال أقوام يتنَزّهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني أعلمهم بالله، وأشدُّهم له خشية»**[2]، وفي الفتح: (..نقل ابن التِّين عن الداودي أن التَنَزُّه عما ترخّص فيه النبي ﷺ من أعظم الذنوب؛ لأنه يرى نفسه أتقى لله من رسوله، وهذا إِلحاد. قلتُ (ابن حجر): لا شك في إلحاد مَن اعتقد ذلك.. فمهما فعله النبي ﷺ من عزيمة ورخصة فهو في غاية التقوى والخشية)[3].

وقد طالبنا الشرع بالتعوُّد على القصد والتوازن في أمورنا الحياتية؛ حتى يغدو القصد خُلقًا وطبيعةً، فقد قال ربنا تعالى: {**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا** } [الإسراء: 29] {**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**} [الفرقان: 76]

---

1 (?) فتح الباري 12/301-302
2 (?) صحيح البخاري - كتاب الاعتصام- باب5- الحديث 7301.
3 (?) فتح الباري 13/279.

ونهى رسول الله عن المغالاة في الطعام والشراب، وعن المغالاة في المهور، مثلما نهى عن الغلو في الرجاء الذي يجعل الناس يتَّكلون، وعن الغلو في الخوف الذي يجعلهم يقنَطون، وعن الغلو في المديح الذي يجعلهم يشركون أو ينافقون؛ كقوله: **«لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»**[1]، وكما نهى عن الغلو في الحب الذي يُعمي عن القبائح، والبغض الذي يعمي عن المحاسن، كقوله: **«أحبِبْ حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بَغيضك يومًا ما، وأبغِضْ بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»**[2].

وكل ما نخشاه حين نغلو أن نقع في مشقة الدنيا وجحيم الآخرة، كما في قوله تعالى: {**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً**} [الغاشية: 3،4] ويضيع بشؤم الغلو ثمرة الجهد في العبادة، بينما الهَدْي القاصد أهدى وأتقى وأبقى، ولا يكون التزام التوسط إلا بالعلم والمجاهدة.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

1 (?) صحيح البخاري -كتاب أحاديث الأنبياء- باب 48- الحديث 3445 (الفتح 6/478).

2 (?) صحيح سنن الترمذي للألباني -أبواب البر- باب 59- الحديث 1625/2082 (صحيح).

- القصد هو الاعتدال في السلوك والفكر فلا إِفراط ولا تفريط.
- ليس في القصد خروج عن السنة، ولا في الغلو مزيد تقوى.
- **من مزايا القصد:**
  - أنه أقرب إلى الفطرة البشرية.
  - أنه أقرب إلى الطاقة والاحتمال.
  - أنه أدعى إلى الدوام على العمل.
- ليس المقصود بالقصد التقصير.
- يُستنكر الغلو في الطاعة إِذا كان يفضي إِلى الترك.
- من الغلو الاقتصار على العزيمة في كل أمره.
- القصد مطلوب في العبادات والعادات والأعراف.
- الهدي القاصد أهدى وأتقى وأبقى.

* * *

الفصل الرابع

المراجعة والتصحيح

{**وَلم يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُم يَعلَمُونَ**} (*).

حتى لا يسترسل المسلم في خطأ وقع فيه، أو هوى انساق إليه، لا بدَّ له في حياته

من وقفات مع نفسه ومع إخوانه؛ لمراجعة حساباته من جديد، والسير - بعدئذٍ - على بصيرة.

وقد افتتح البخاري أحد أبواب الصوم بكلمة لأبي الزناد جاء فيها: (إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيرًا على خلاف الرأي..)[1]، فحين يتخذ أحدنا لنفسه قناعات لا يَحيد عنها، ولا يقبل المراجعة فيها، قد لا يسلم من هوى يطغيه، أو فساد في الرأي يرديه.

وإن ديننا حين بشّر المجتهد المخطئ بأجر، فإنه لا يقبل في الوقت نفسه التعامي عن الخطأ، والإِصرار عليه، وكم أفتى فقهاؤنا بفتاوى ثم رجعوا عنها، لما أعادوا النظر فيها، وتبيَّن لهم الصواب في غيرها، وإن الذين تردهم الملائكة عن الحوض، إنما مصيبتهم في الاسترسال في الغي، ويُقال لرسول الله ﷺ: **«.. إنهم قد بدّلوا بعدك، ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم، فيقول رسول الله ﷺ: سحقًا سحقًا»**[2]، يدعو عليهم بالهلاك؛

---

1 (*) سورة آل عمران، الآية 135.
(?) صحيح البخاري -كتاب الصوم- من ترجمة الباب 41 عن أبي الزناد (الفتح 4/191).

2 (?) صحيح سنن ابن ماجه للألباني -كتاب الزهد- باب 36- الحديث 3475/4306 (صحيح).

لأنهم لم يراجعوا أنفسهم، ولم يفيئوا إِلى الصواب.

المراجعة وسيلة لمحاسبة النفس، والتصحيح نتيجة، تظهر آثارها بالرجوع عن المعصية الجلية، أو الخطأ في الاجتهاد والرأي.

ومن وسائل المراجعة للتصحيح: الاستماع إلى المشورة بنيَّة البحث عن الحق، وقد أورد البخاري قصة اقتراح عمر على أبي بكر - رضي الله عنهما - أن يجمع القرآن، ولم يقبل أبو بكر بذلك (فقال عمر: هو والله خير - قال أبو بكر -: فلم يزل عمر يراجعني فيه، حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر..)[1]، ولم يُصِرَّ على رأيه، ولم يحجزه المنصب عن قَبول الصواب ممَّن دونه.

ويعين على الصواب: مطالبة البطانة الصالحة بالتذكير بما هو خير وأصوب، وخاصة حين لا يبادر الآخرون بالتذكير، ولن نكون أصوب رأيًا، ولا أهدى فكرًا من رسول الله ، حيث يقول: «**..إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإِذا نسيت فذكروني..**»[2]، وحينما نشعر

1 (?) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة 9 باب 20 الحديث 4679 (الفتح 8/344).

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الصلاة- باب 31- الحديث 401 (الفتح 1/503).

الناس بالترحيب بالتذكير، ونرفع عنهم الحرج الذي يتوقَّعونه، تكون عيون الناس - عندئذٍ - مرآتنا التي تقوّمنا على الدوام.

وتضمن لنفسك سلامة الطريق وصواب الرأي باتخاذ البطانة الصالحة، وعدم الالتفات إلى المدّاحين؛ الذين لا يُبصِّرون أخاهم بأخطائه، ففي الحديث أن: «**مَن ولّاه الله عز وجل من أمر المسلمين شيئًا، فأراد به خيرًا، جعل له وزير صدق، فإن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه**»[1].

وقد كان الحُرُّ بنُ قيس من مقرَّبِي عمر بن الخطاب، وهمَّ عمر أمامه بضرب عُيَيْنة بن حصن لتطاوله عليه، فقال له الحر: (يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه {**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**} [الأعراف: 199]، وإن هذا من الجاهلين)، يقول الراوي: (والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله)[2] وكم من المظالم يمكن أن تزول، وكم من الممارسات الخاطئة يمكن أن تُصحَّح؛ حين تقوم البطانة بدورها الصالح.

---

1 (?) صحيح سنن النسائي للألباني -كتاب البيعة- باب 33-الحديث 3920 (صحيح). ورواه أحمد 6/70 واللفظ له.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب التفسير- سورة 7- باب 5- الحديث 4642 (الفتح 8/304).

والخلوة بالنفس من أنجح صور المراجعة؛ لمحاسبة النفس، وتصحيح العمل، رُوي عن عمر بن الخطاب قوله: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر) [1]، ويروى عن ميمون بن مهران قوله: (لا يكون العبد تقيًّا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه)[2]، والرابح أخيرًا هو أنت، وليس العيب في الرجوع عن الخطأ، وإنما البلاء الكبير في الإصرار على الباطل.

ومن بركات هذه المراجعة للنفس: أنها سببٌ من أسباب رفع لبلاء وتخفيف الحساب، ففي بقية كلمة عمر السابقة: (وإنما يخفَّف الحساب يوم القيامة على مَن حاسب نفسه في الدنيا) [3].

وحين تعمُّ المفاسد في أي زمان فالمخرج بالرجوع إِلى ديننا، كما قال : **«إِذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سّلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**، وفي رواية:

---

1 (?) سنن الترمذي -كتاب القيامة- باب 14- الحديث 2577موقوفًا على عمر (تحفة الأحوذي 7/155).

2 (?) سنن الترمذي -كتاب القيامة- باب 14 من قول ميمون بن مهران.

3 (?) بقية قول عمر السابق في سنن الترمذي -كتاب القيامة- باب 14- الحديث 2577.

«حتى يراجعوا دينهم»[1]، وبذلك تكون المراجعة بداية رفع البلاء والذل.

كما أن مراجعة النفس وتصحيح مسارها سببٌ من أسباب انشرح الصدر للخير، وإيثار الباقي على الفاني، ففي حديث طويل لابن مسعود: (بينما رجل فيمَن كان قبلكم، كان في مملكته، فتفكَّر، فعلم أن ذلك - أي الـمُلك - منقطع عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه)، فاعتزل الملك، وذهب إلى مملكة أخرى يكسب رزقه من عمل يده، وعلم ملك هذه البلاد به وبصلاحه، فقصده الملك، وسعى إليه، واستفسر منه فقال ملك البلاد: (ما أنت بأحوج إِلى ما صنعتَ مني، ثم نزل عن دابته فسيبها، ثم تبعه فكانا جميعًا يعبدان الله عز وجل..)[2]، واستطاع كل منهما أن يُصحِّح ما أفسد دون أن يعميهما بريق الملك، وفتنة الكرسي، وما بدأت صحوة كل منهما إلا بالتفكُّر والمراجعة.

والمراجعة والتصحيح فرصة لرأب الصدع بين القلوب، وإصلاح ذات البَيْن، قال رسول

---

1 (?) صحيح سنن أبي داود للألباني -كتاب الإجازة- باب 20- الحديث 2956/3462 (صحيح) والرواية الأخرى الـمُشار إِليها رواية أحمد 2/28.

2 (?) مسند أحمد 1/451, رواه ابن مسعود ولم يرفعه، وقال البنا في بلوغ الأماني 20/155: (أورده الهيثمي وقال: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه. وفي إِسنادهما المسعودي وقد اختلط).

الله ﷺ: «**إن أبواب الجنة تُفتَح يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أنظِروهما حتى يصطلحا - مرتين -**»[1]، وما فائدة إنظارهما إن لم يراجع كل منهما نفسه ليبدأ صاحبه بالسلام؟!

وهي سبب من أسباب البراءة من النفاق، قال إبراهيم التيمي: (ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا)[2]، وقال ابن أبي مُلَيكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه)[3]، وتعليقًا عليه ينقل ابن حجر قول ابن بطال: (إنهم خافوا لأنهم طالت أعمارهم، حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت)[4].

وجِماع الأمر ومِلاكه أن يفترض المسلم في نفسه الخطأ، وأن يستحضر عدم العصمة، لئلا يثقل عليه الاعتراف بخطئه، فتسد عليه أبواب التصحيح. {**إِنَّ اللَّهَ لَا**

---

1 (?) صحيح مسلم -كتاب البر- باب 11- الحديث 2565 (شرح النووي 8/358) ورواه أحمد 2/400 واللفظ له.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الإيمان- من ترجمة الباب 36- (الفتح 1/109).

3 (?) نفس المصدر السابق

4 (?) فتح الباري 1/111 عند شرحه لكتاب الإيمان-باب 36.

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...} [الرعد:11]، ولأن الإنسان مخلوقٌ ضعيف، فهو كثير التغير والتقلُّب، وهنيئًا لمن كانت نيَّته فيئته إلى سنة، ومراجعته إلى صواب، وتصحيحه إلى ما يرضي الله، فإن الرجوع إلى الحق شأن الأوابين والتوابين.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- فائدة المراجعة عدم الاسترسال في الخطأ.
- يعتذر المجتهد من المخطئ ولا يعذر بعد تبين الخطأ له.
- المراجعة محاسبة للنفس، وتصحيح السلوك ثمرتها.
- **من وسائل المراجعة:**
- المشاورة بنية معرفة الحق.
- اتخاذ البطانة الصالحة وحضها على التذكير بالأصوب.
- الخلوة بالنفس.
- من بركات المراجعة أنها:
- من أسباب رفع البلاء وتخفيف الحساب.
- من أسباب انشراح الصدر للخير.
- من أسباب رأب الصدع بين القلوب.
- من أسباب البراءة من النفاق.

- جماع الأمر في المراجعة توقع الوقوع في الخطأ وعدم الاعتداد بالنفس.

* * *

الفصل الخامس
الحرص على الانتفاع

«احرص على ما ينفعك واستعِنْ بالله».

لا تكتمل شخصية المسلم النافع لغيره، مالم يكن من خلقه الحرص على استنفاد نفسه، واستغلال طاقاته، ومواقف حياته فيما ينجيه عند ربه.

إن رسول الله ﷺ قد وجّهنا إلى هذا الخلق بقوله: «**احرص على ما ينفعك**»[1]، وبتحذيره لعشيرته الأقربين: «**أنقذوا أنفسكم من النار**»[2] وبتذكيره باليوم الذي يفر فيه كل خليل من خليله، ويقول كل نبي: «**نفسي، نفسي، نفسي**»[3]؛ حيث {**... لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا...**} [الأنعام: 158].

بدافع من هذا الخُلق نجد صحابيًّا مثل خيثمة بن الحارث يصرُّ على الخروج لغزوة بدر، ويلِّح على ابنه سعدٍ أن يبقى مع نساء آل بيته، ويأبى سعد إلا أن يخرج بنفسه، ويصارح أباه قائلًا: (لو كان غيرَ الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا. فاستهما فخرج سهم سعد..)[4].

فقد كان الحرص على جلب النفع للنفس في الآخرة رائدَهم، ولذلك كان

---

1 (?) صحيح مسلم -كتاب القدر- باب8- الحديث 2664 (شرح النووي 16/215).

2 (?) صحيح مسلم -كتاب الإيمان- باب 89- الحديث 348 (شرح النووي 2/80).

3 (?) صحيح البخاري -التفسير- سورة الإسراء- باب 5- الحديث 4712 (الفتح 8/395).

4 (?) حياة الصحابة 1/498-499-باب الجهاد- رغبة الصحابة في الموت والقتل في سبيل الله، وقد عزيت هناك للحاكم 3/189.

رجاء كل منهم: دُلَّنِي على عمل ينفعني، أو يدخلني الجنة[1].

وقد تغفل في غمرة جهادك ومشاغلك عن حظ نفسك من التربية فلابد من لفتة إلى خاصة نفسك، وإن رسول الله خيّر عمه حمزة خيارًا مُعِزًّرًا: «**يا حمزة! نفسٌ تحييها، أحبُّ إليك، أم نفسٌ تميتها؟ قال: بل نفس أحييها قال: عليك بنفسك**»[2].

بعض الصور والمواقف من حياة لجيل الأول، تؤكد لك رسوخ هذا الخلق في تربية خير القرون، ففي حديث طويل يكرر أبو أمامة طلبه: «يا رسول الله! ادعُ الله لي بالشهادة) وفي كل مرة يصّر رسول الله أن يدعو له بقوله: «**اللّهم سَلِّمهم وغنِّمهم**» ثم أتى أبو أمامة بعد ذلك فقال: «يا رسول الله! مُرْني بعمل آخذه عنك؛ ينفعني الله به»، قال: «**عليك بالصوم.. »**، يقول الراوي: (فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلْفَوْنَ إلا صيامًا)، ثم أتى أبو أمامة بعد ذلك فقال: «يا رسول الله! إنك قد أمرتني بأمر، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعني به، فمرني بأمر

---

1 (?) صحيح سنن النسائي للألباني -كتاب التطبيق- باب 80- الحديث 1091 من سؤال معدان ابن طلحة لثوبان (صحيح).

2 (?) مسند أحمد 2/175، وفي نسخة أحمد شاكر برقم 6639 حيث قال: (إسناده صحيح).

آخر ينفعني الله به فأمره بكثرة السجود»[1].

ومثل ذلك ما ورد عن جارية بن قدامة السعدي حيث قال: «يا رسول الله! قل لي قولًا ينفعني، وأقلل عليَّ لعلِّي أعيه»، فقال له رسول الله : «**لا تغضب**»[2]، وهذا الحرص على تحصيل ما ينفع إِذا استمر نمت شخصية المسلم وارتقت.

وإن الشخصية التي لا تنتفع بالنصيحة، ولا تتأثر بالموعظة، ولا تستفيد من الفرص، يكون قد أصابها الشلل أو الموت، لذلك (كان النبي يتعوَّذ من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع)[3]، وعندئذٍ يكون المرء قد فقد قابلية الانتفاع والتأثر، وغطّى قلبَه الرانُ.

وإن رجلًا مثل قبيضة بن المخارق - كبير السن حي القلب - يسعى إِلى رسول الله ، فيقول له رسول الله : «**يا قبيضة! ما جاء بك؟**»، يقول قبيضة: «كبرت سني، ورق عظمي، فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله عز وجل به.. »[4] فعلّمه بعض الأدعية،

---

1 (?) مسند أحمد 5/255، وعزا البنا إِلى الهيثمي قوله في تخريجه: ورجال أحمد رجال الصحيح.

2 (?) مسند أحمد 5/34، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 7373.

3 (?) صحيح سنن أبي داود للألباني -الصلاة-باب 367- الحديث 1369/1548 (صحيح).

4 (?) مسند أحمد 5/60.

فهل ترى نفسك بهذه الهمة وهذا الحرص رغم مزيد قدرتك وفائض طاقتك؟ قل **«اللَّهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني»** [1].

وفي قصة أبي هريرة مع الشيطان حين علّمه آية الكرسي، يقول الراوي في آخر الحديث في وصف الصحابة: (وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخير)[2]، ولم يكن اهتمام جيل الأسوة بصور الأعمال وأعدادها؛ ولكنهم كانوا يبحثون عن الثمرة والأثر، فقد صحّ عن عبد الله بن مسعود قوله: (ولَيقرأنَّ القرآنَ أقوامٌ لا يجاوز تراقيَهم، ولكنه إذا قرأه فرسخ في القلب نفع)[3].

وقد وضح رسول الله أن ذهاب العلم بفقد أثره، وبعدم الانتفاع به، لا بذهاب رسمه، وفي ذلك يقول زياد بن لَبيد: «يا رسول الله! وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم، إلى يوم القيامة» قال رسول الله : **«ثكِلتْك أمك يا ابن أم لَبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة.**

---

1 (?) صحيح ابن ماجه للألباني -كتاب الدعاء- باب 2 - الحديث 3091/3833 (صحيح).

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الوكالة- باب 10- الحديث 2311 (الفتح 4/487).

3 (?) صحيح مسلم -كتاب صلاة المسافرين- باب 49- الحديث 822 (النووي 3/352). ورواه أحمد 1/380، واللفظ له.

أَوَليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإِنجيل، لا ينتفعون مما فيهما بشيء»[1].

فبالحرص على الانتفاع بالعلم حياة للقلوب وللعلم، وبهذا تصبح الأمة تعيش المبادئ التي تعتز بها وتدعو إِليها.

ولا يفوتنك أن تنتفع بصحبة الصالحين، فقد ورد أن رسول الله قال: **«ما نفعني مالٌ قط إِلا مال أبي بكر، فبكى أبو بكر وقال: وهل نعني الله إلا بك؟ ثلاثًا»**[2]، فمصاحبة الصالحين تورث الأسوة الحسنة، وتجعل الوقت والمواقف مشحونة بصور الانتفاع لما ينجي في الآخرة.

حتى أهل البادية كانوا يقدمون من باديتهم ابتغاء الاستزادة مما ينفعهم، يقول أبو جريٍّ الهجيمي: «يا رسول الله! إنا قوم من أهل البادية، فعلِّمنا شيئًا ينفعنا الله تبارك وتعالى به»، **«قال: لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إِناء المستسقي.. »**[3].

---

1 (?)مسند أحمد 4/160، وفي الفتح الرباني 1/182 برقم 79، حيث ذكر في تخريجه: (رواه الحاكم وقال صحيح -قلتُ- : وأقره الذهبي، وله شاهد أيضًا عند ابن حبان.. بإِسناد جيد).

2(?) مسند أحمد 2/366، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 5808.

ولم يكن همُّ الدنيا ليغلب همَّ الآخرة، فقد خاطب النبي الأنصار مرة: «**والله لا تسألوني اليوم شيئًا إلا أعطيتكموه، ولا أسأل الله لكم شيئًا إلا أعطانيه**» فماذا طلبوا؟ قال بعضهم لبعض: «اغتنموها واطلبوا المغفرة» (1) فالحرص على الانتفاع بالعُمر في الدنيا إنما ثمرته الانتفاع في الآخرة بتحصيل المغفرة والنجاة، وقد وعى الصحابة ذلك فحرَصوا عليه، وسعوا إليه.

بل إن الصلاة التي لا يكون من ثمرتها أنها تَنْهَى صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ يستعيذ منها رسول الله ؛ لأنها لم تُحقِّق غرض الانتفاع: «**اللَّهم إني أعوذ بك من صلاة لا تنفع**» (2)، ومن أدق الصور المُنَمِّية لخلق الانتفاع ما ورد عند أحمد والنسائي: «**مَن قتل عصفورًا عبثًا عجَّ إلى الله عز وجل يوم القيامة؛ يقول: يارب إن فلانًا قتلني ولم**

---

[3](?)مسند أحمد 5/63، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 1352: (وهذا إسناد صحيح رجاله رجال الشيخين غير عقيل بن طلحة وهو ثقة..).

[1](?)مسند أحمد 3/139، وفي الفتح الرباني 22/172 في مناقب الأنصار، قال في تخريجه: (أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد... قلتُ: وأقره الذهبي ..).

[2](?) صحيح سنن أبي داود للألباني- الصلاة- باب 367- الحديث 1370/1549 صحيح.

يقتلني لمنفعة» [3]، فكم أسأنا استغلال ما فينا من طاقات؟ وكم أضعنا من الأمور والأوقات؟ وإِنها لأغلى وأثمن، وإِننا عنها لمسؤولون.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- لا يكمل خلق الانتفاع إِلا بخلق تقديم النفع.
- في الطاعات لا يؤثر المرء أحداً على نفسه.
- الاستغراق في العمل العام قد يشغل عن حق النفس.
- من مزايا الجيل الأول الحرص على ما ينفع الآخرة.
- **محروم من الانتفاع:**
  - من لا يقبل النصيحة.
  - من لا يعمل بعلمه.
  - من لا يتدبر القرآن.
- مما يعين على الانتفاع.
  - مصاحبة الصالحين.
  - الانتفاع بالوقت.
  - استغلال الطاقات.
- يسأل الله العبد عما لم يحسن الانتفاع به.

---

[3](?) جامع الأصول 10 /751 الحديث 8419، قال الأرناؤوط في تخريجه: (وهو حديث حسن) وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع برقم: 5763.

****

الفصل السادس
المداومة على فعل المعروف

«لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا»

«عليكم باصطناع المعروف»

كل مسلم يحب الخير ويرغب في المعروف، ولكن ليس كل مسلم لديه الدافعية الدائمة المستمرة للبحث عن أبواب المعروف وطرق الخير بحيث لا يترك ثغرةً خالية يمكن أن يسدها بنفسه إلا ويسدها، صغُرت الثغرة أم كبُرت، عظمت أم حقرت.

وسوف تجد في أحاديث رسول الله سيلًا من صنائع المعروف تنتظر الحريصينَ على الأجر والمهتمين بشؤون إخوانهم من المؤمنين؛ كقولِه : **«مَن نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدنيا نفس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، ومَن يسَّر على مُعسِّرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»** [(1)].

ولما أن عدّ رسول الله صورًا من صدقات المرء على نفسه في كل يوم تطلع فيه الشمس ذكر صورًا من الإيجابية الاجتماعية للمسلم منها: «**ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعزل الشوك عن طريق الناس، والعظم**

[1](?) صحيح الجامع - الحديث 6577 (صحيح).

والحجر، وتَهْدِي الأعمى، وتُسمع الأصم والأبكم - أيِ تفهمه - حتى يفقه، وتدل المستدلَّ على حاجة له قد علمتَ مكانها، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف...»[1].

وفي رواية أخرى **«على كل مسلم صدقة، فإن لم يجد فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، فإن لم يستطع فيُعِين ذا الحاجة الملهوف، فإن لم يفعل فيأمر بالخير، فإن لم يفعل فيُمسِك عن الشر فإنه له صدقة»**[2] وهذه أدنى درجات المسلم وأقل ما يمكن أن يتوقع منه، فإنه إذا لم ينبعث بنفسه لفعل الخير، ولم يبادر للقيام بمعروف، فلا أقل من أن يأمر بفعل الخير، وإن فاته كل ذلك ولم يقدم على شيء من المعروف الإيجابي، فليضمن نفسه ألا يقع في شر وليلتزم بالامتناع عن الأذى.

والأصل في المسلم التطلع إلى الدرجات العلى فكما قال رسول الله : **«خير الناس أنفعهم للناس»**[3]، **«أحب**

---

[1](?) صحيح الجامع - الحديث 4038 (صحيح).

[2](?) صحيح الجامع -الحديث 4037 (صحيح).

[3](?) صحيح الجامع- الحديث 3289 (صحيح).

الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تُدخِله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دَينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا... ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها - يقضيها - له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلُّ الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل»[1].

وهذا الفهم لفعل المعروف يغفل عنه كثير من أهل الصلاح الذين سبقوا في الذكر والاعتكاف والتلاوة والصيام والقيام، ولكنهم تفتر هممهم عن قضاء حوائج الخلق والسعي في مصالح المسلمين، وقد تصغر في أعينِهم مثل هذه الخدمات، ورسول الله يقول **«لا تحقِرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق»**[2]، وفي رواية **«لا تسبَنَّ أحدًا، ولا تحقِرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه**

---

1 (?)صحيح الجامع- الحديث 176 (صحيح)

2 (?)صحيح الجامع- الحديث 7245 (صحيح)

وجهك، إن ذلك من المعروف...»[1]، وفي رواية أخرى: **«لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف فإن لم يجد فليلقَ أخاه بوجه طَلْق، وإذا اشتريتَ لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثر مرقته واغرف منه لجارك»**[2]، وهل هنالك أعظم من أن نُزيل همَّ قلب مؤمن ليحل محله السرور والحبور ورسول الله ﷺ يقول: **«أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضي عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا»**[3]؟!

والمؤمن المهتم بأحوال إخوانه من المجاهدين وأسرهم وضعفاء الحيلة لا يفوته أجر المجاهدين ولا العابدين بهذه الأعمال، لقوله ﷺ: **«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»**[4].

بل إن عملًا ربما كان في نظر الناس هينًا وبسيطًا، جعل الله له من الأجر ما يحفز الهمم للمعروف، وما يستنفر الجهود لخدمة المسلمين، كالذي جاء في قوله ﷺ: **«نزع رجل لم يعمل خيرًا قطُّ غصن شوك**

---

[1] (?)صحيح الجامع- الحديث 7309 (صحيح)

[2] (?)صحيح الجامع- الحديث 7634 (صحيح)

[3] (?)صحيح الجامع- الحديث 1096 (صحيح)

[4] (?)صحيح الجامع- الحديث 3680 (صحيح)

عن الطريق، إما كان في شجرة مقطعة فألقاه، وإما كان موضوعًا فأماطه، فشكر الله له بها فأدخله الجنة»[1].

وصاحب المعروف والحريص عليه محفوظ من الله ومخصوص منه سبحانه بحسن الخاتمة، والوقاية من سوء المصرع في الدنيا لقوله ﷺ: «**عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء...**» [2]، والنفس الخيرة يفيض خيرها على من حولها، وصاحب القلب الحيّ يفكر في إخوانه كما يفكر في نفسه، ولا تفلح أمة يتقلب أبناؤها بين السلبية والأنانية.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- يتفق الناس في حب الخير ويتفاوتون في المداومة عليه.

- من صور المعروف:

- الاهتمام بأمور المسلمين.
- تقديم خدمات اجتماعية.
- الأكل من عمل اليد.
- الإمساك عن البشر.
- المشاركة الشعورية.

---

[1] (?)صحيح الجامع- الحديث 6755(صحيح)

[2] (?) صحيح الجامع -الحديث 4052 (صحيح).

- النهي عن استصغار بعض صور المعروف.
- من أعظم المعروف إزالة الهم وإدخال السرور.
- من أعظم المعروف تعهد أسر المجاهدين.
- صور صغيرة من المعروف أجرها كبير.
- حسن خاتمة المداوم على المعروف.

****

الباب الثامن

من أخلاقنا ضبط اللسان

الفصل الأول: حفظ اللسان.
الفصل الثاني: الصدق.
الفصل الثالث: الاعتذار.
الفصل الرابع: ستر العيوب.

****

الفصل الأول
حفظ اللسان

«كُفَّ عليك هذا».

تقـوم صـراعات، وتثـور فتن، وتتفـرق جماعـات، وتضـيع أوقـات، وحين تُـدقِّق في مبدأ الأمر ومصـدره، تجـد الشـرارة الأولى،

من كلمات طائشـة، أو اتهامـات غاضـبة، أو نقـل خـاطئ، هـذه بعض ثمـار الاسـتعمال السيِّئ للسان، في الدنيا قبل الآخرة.

يفسر ابن حجر (حفظ اللسان) بالامتناع (عن النطق بما لا يسوغ شرعًا، مما لا حاجة للمتكلم به) [1]، ويُشِير النووي إلى ما يُعين المتكلِّم على حفظ لسانه، فيقول: (وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام، أن يتدبَّره في نفسه قبل نطقه، فإن ظهرت مصلحته تكلَّم، وإلا أمسك)[2]، فالضابط الأساسي لحفظ اللسان: الحذر من التسرع في الكلام، والتدبر والتفكر قبل إخراج الكلمة، ووزن الكلمة في ميزان الشرع، وابتغاء المصلحة الشرعية، وإلا فليملك المتكلم إرادته، وليلزم الصمت، فإنه نجاة، وهو خير له. ولذلك جاء في الحديث: «**فكفّ لسانك إلاّ من الخير**»[3]، مما يُفهِم أن الأصل الصمت والكفُّ.

ولما سأل عقبةُ بن عامر رسولَ الله ﷺ: «**يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: أمسِك عليك لسانك، وليسَعْك بيتك، وابكِ على خطيئتك**» [4]، وفي البخاري: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر،**

[1] (?) فتح الباري 11/308.
[2] (?) شرح صحيح مسلم للنووي 18/328.
[3] (?) مسند أحمد 4/299. استشهد به ابن حجر ونقل عن ابن حبان تصحيحه (الفتح 11/309).

فليقل خيرًا، أو ليصمت» [1]؛ وذلك لأن غالب كلام المرء، قد يكون في اللغو أو الحرام، كما جاء في الحديث: **«كل كلام ابن آدم عليه لا له،إلا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله»** [2].

ويُحدِّثنا معاذ بن جبل عن سفر له مع رسول الله ﷺ سأله فيه: «يا نبي الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار»، فعدّ رسول الله ﷺ أبوابًا من الخير، قال بعدها: **«ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله؟»** فقلت له: بلى يا نبي الله؟ **«-فأخذ بلسانه - فقال: كُفّ عليك هذا»**، فقلت: يا رسول الله! وإنا لمؤاخَذون بما نتكلم به! فقال: **ثكِلَتْك أمك يا معاذ! وهل يكبُّ الناس على وجوهِهم في النار - أو على مناخرهم - إلا حصائدُ ألسنتهم؟!»** [3]، وزاد الطبراني: **«ثم إنك لن تزال**

---

4 (?) أخرجه الترمذي وحسنه ووافقه الأرناؤوط (جامع الأصول 11/698).

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الرقاق -باب 23 -الحديث 6475 (الفتح 11/308).

2 (?) أخرجه الترمذي في الزهد برقم 2414 وحسنه الأرناؤوط (جامع الأصول 11/731)

3 (?) مسند أحمد 5/231 وصححه الأرناؤوط بكثرة طرقه (جامع الأصول 9/535).

سالمًا ما سكتَّ، فإذا تكلمت كتب عليك أو لك» [1].

مما يقتضي مزيد الحذر من حصائد الألسن: أن المرء قد يزلُّ لسانه عن غفلة منه، فيوقعه في النار: «**وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»** [2] يقول ابن حجر: (لا يُلقي لها بالًا؛ أي لا يتأملها بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئًا.) [3]، فقبل أن تخرج الكلمة من فيك، أعطِ نفسك فرصة للتفكير، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل هو من طيِّب الكلام أم من بذيئه؟ هل تكون عاقبته خيرًا أم شرًّا؟ وطالما لم تخرج فأنت مالكُها، فإذا خرجت كنت أسيرَها.

وفي الحديث الصحيح من رواية مالك وأصحاب السنن عن بلال ابن الحارث: **«وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»،** قال علقمة - راوي الحديث - لرجل يحدِّثه: (فانظر -

---

1 (?) عن فتح الباري 11/309.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الرقاق -باب 23 -الحديث 6478 (الفتح 11/308).

3 (?) فتح الباري 11/311.

ويحك - ماذا تقول وماذا تكلم به، فرُبَّ كلام قد منعني أن أتكلم به ما سمعت من بلال بن الحارث)[1]، والحديث صورة عملية في حسن التلقي، وفي حسن التوريث للمتلقي، لتبقى أمة الخير تحفظ ألسنتها.

وكما أن الكلمة الطيبة يدخل بها صاحبها في الإيمان، فرُبَّ كلمة تؤثر على إيمان صاحبها نفاقًا أو خروجًا من الملّة، ففي حديث حذيفة: (إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد النبي ، فيصير بها منافقًا، وإني لأسمعها من أحدكم اليوم في المجلس عشر مرات)[2]، وفي الحديث الصحيح: (قيل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا، فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره، قال: كنا نعدُّ ذلك على عهد رسول الله من النفاق)[3]، وفي صحيح مسلم: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**[4]، فكم للسان من زلَّات، وكم فيها من الخطر!!

والحيطة والحذر تقتضيان من المرء أن يتيقظ ويتنبه في (حفظ اللسان)، وألَّا يدع

---

1 (?) صحيح سنن الترمذي 2/358 الحديث 3969 (صحيح).
2 (?) مسند أحمد 5/386 من قول حذيفة.
3 (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/359 الحديث 3210/3975 (صحيح).
4 (?) صحيح مسلم -كتاب الإيمان -باب 28 -الحديث 116 (شرح النووي 2/413..).

نفسه على هواها، فيقع فيما يلجئه إلى الاعتذار، وقد كان من وصية رسول الله لرجل قال له: عِظْني وأوجز: «**إذا قمت في صلاتك فصلّ صلاة مُودِّع، ولا تكلّم بكلام تعتذر منه غدًا، واجمع الإياسَ مما في أيدي الناس**»[1].

وتأديب النفس يكون بتعويد اللسان على الخير، وحفظه من كل شر، فقد روي أن عيسى ابن مريم لقي خنزيرًا بالطريق، فقال له: انفذ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟! فقال عيسى: إني أخاف أن أُعوّد لساني النطق بالسوء)[2]، فطيب الكلام بالدُّربة والتعويد، وفحش الكلام كذلك، ولكل امرئ مع لسانه ما اعتاد عليه، وألفه، فبشيء من المجاهدة يُحفظ اللسان، وفي لحظة من التفريط يكون الانزلاق.

وقد كان صحابة رسول الله يحذرون من الكلام المباح، خشية الوقوع في الكلام المحظور، مبالغة منهم في حفظ ألسنتهم، واحتياطًا لدينهم، لذلك كانوا يقولون: (كنّا نتّقِي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النبي ؛ هيبة أن ينزل فينا شيء. فلما

---

1 (?) مسند أحمد 5/412 وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 2/405.

2 (?) موطأ مالك (2/985) -كتاب الكلام -باب 1-.

تُوفِّي النبي تكلمنا، وانبسطنا)[1]، يقول ابن حجر: (قوله (فلما توفي) يشعر بأن الذي كانوا يتركونه كان من المباح، الذي يدخل تحت البراءة الأصلية)[2]، فمن أراد السلامة فليجتنب مجالس الغِيبة، وليحفظ لسانه من الزلات، ولا يقولن إلاّ خيرًا، وليتواصَ وإخوانه بحفظ اللسان، وليستعِنْ بالله فرسول الله كان يعلم أصحابه الاستعاذة بالله من شر اللسان: «**قل أعوذ بك من شر سمعي، وشرّ بصري، وشرّ لساني، وشرّ قلبي، وشرّ منيِّي**» [3] يستعيذ بالله من أن يكون شر لسانه على المسلمين، أو أن يكون حلو كلامه مع غيرهم، فهذا والعياذ بالله من الانتكاس واختلال الموازين.

وقد سئل رسول الله «أي الإسلام أفضل؟» قال: «**مَن سلِم المسلمون من لسانه ويده**» [4]، أفلا يطمح المؤمن أن يكون من ذوي الإسلام الأفضل! بأن يجعل سلاطة لسانه على أعداء الله، وحلو كلامه وحسن حديثه للمسلمين، فإنَّ

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب النكاح -باب 80 -الحديث 5187 (الفتح 9/253).
2 (?) فتح الباري 9/254.
3 (?) صحيح سنن النسائي 3/1108 -كتاب الاستعاذة -باب 4 -الحديث 5031 (صحيح).
4 (?) صحيح البخاري -كتاب الإيمان -باب 5 -الحديث 11 (الفتح 1/54).

«أحبُ الأعمال إلى الله حفظ اللسان» [1].

ومن حفظ اللسان: حمايته عن الخوض فيما لا ينبغي ولا يهم، فإن رسول الله وجّه المسلم لاغتنام طاقاته في المهمات: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** [2] ومن سوء استعمال اللسان أن يطلق له العنان، ليلوك الأحاديث، ويجتزَّ الأخبار، ويُوقِد الفتن، وقد استشهد ابن ماجه بهذا الحديث في باب كف اللسان في الفتنة، وفي رواية لأحمد: **«إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه»** [3].

وكما يكون حفظ اللسان بإخراج خيره للمسلمين، فإنه كذلك بتسليط شره على أعداء الدين، وقد سمّى رسول الله ذلك جهادًا، فقال: **«جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم»** [4]، وحين أنشد ابن رواحة أبياتًا في تبكيت أهل مكة بين يدي رسول الله ، وهو داخل لعمرة القضاء، نهاه عمر، فقال رسول الله

---

1 (?) عن فتح الباري 11/309 حيث عزاه ابن حجر إلى أبي الشيخ في كتاب الثواب، والبيهقي في الشعب.

2 (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/360 الحديث 3211/3976 من كتاب الفتن -باب 12 (صحيح).

3 (?) مسند أحمد 1/201.

4 (?) صحيح الجامع -الحديث 3090 (صحيح).

: **«خلِّ عنه، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدُّ عليهم من وقع النَّبل»**[1]، وفي صحيح مسلم عن الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، يقول : **«فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن»**[2]، فعد إنكار المنكر، وإقامة الحجة، وتبيين سبيل المجرمين، من جهاد اللسان.

وأيُّ حفظٍ للسان أكبر من أن يستعمله صاحبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإنها لأعلى المنازل، وأدناها إمساك اللسان، والتزام الصمت، والكفّ عن الأعراض، والحفظ من كل سوء.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- كثيرٌ من الفتن تبدأ من كلمات طائشة.
- ضابط حفظ اللسان الحذر من التسرُّع في الكلام.
- زلة من اللسان توقع في النار.
- الكلمة الخبيثة قد توقع صاحبها في النفاق أو الفسوق.

---

1 (?) صحيح سنن النسائي -كتاب المناسك -باب 121 -الحديث 2710 (صحيح).

2 (?) صحيح مسلم -كتاب الإيمان -باب 50 -الحديث 35 (جامع الأصول 1/326).

- يكتسب طيب الكلام بتعويد النفس عليه.
- التورع عن بعض الكلام المباح خشية الوقوع في المحظور.
- أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده.
- من أوجب الحفظ للسان كفُّه في الفتنة.
- من حفظ اللسان إخراج خيره للمسلمين وشره على المحاربين.
- من جهاد اللسان الأمر بالمعروف وإنكار المنكر وإقامة الحجة.

****

الفصل الثاني

الصدق

«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر..».

الصدق بمعناه الضيق مطابقةُ منطـوق اللســان للحقيقــة، وبمعنــاه الأعم مطابقــة الظـاهر للبـاطن، فالصـادق مـع اللـه ومـع الناس ظاهره كباطنه، ولذلك ذُكر المنــافق في الصورة المقابلة للصـادق، قـال تعـالى: {**لِيَجْــزِيَ اللَّهُ الصَّــادِقِينَ بِصِــدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ...**} [الأحزاب: 24].

والصدق التزام بالعهد، كقوله تعالى**:** {**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...**} [الأحزاب: 23] والصدق نفسه بجميع معانيه يحتاج إلى إخلاص لله عز وجل، وعمل بميثاق الله في عنق كل مسلم، قال تعالى: {**... وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**} [الأحزاب: 7، 8] فإذا كان أهل الصدق سيُسألون، فكيف يكون السؤال والحساب لأهل الكذب والنفاق؟

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، يقول الحارث المحاسبي: (واعلم - رحمك الله - أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمَن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس، وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم.. فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقًا، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام)[1].

ولِمَا للصدق من رابطة قوية بالإيمان، فقد جوَّز رسول الله أن يقع من المؤمن ما لا يُحمد من الصفات، غير أنه نفى أن

---

1 (?) رسالة المسترشدين ص 170.

يكون المؤمن مظنة الوقوع في الكذب؛ للاستبعاد ذلك منه، وقد سأل الصحابة فقالوا: «يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟» «**قال: نعم**» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلًا؟» «**قال: نعم**» قيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟» «**قال: لا**»[1].

والأصل في اللسان الحفظ والصون؛ لأن زلاته كثيرة، وشرَّه وبيل، فالحذر منه والاحتياط في استعماله أتقى وأورع، فإذا وجدت الرجل لا يبالي، ويكثر الكلام، فاعلم أنه على خطر عظيم، فقد قال رسول الله : «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»[2]؛ لأن كثرة الكلام مظنة الوقوع في الكذب، باختراع ما لم يحدث، حين لا يجد كلامًا، أو بنقل خبر كاذب - وهو يعلم - فيكون أحد الكذّابين.

وكل خُلُق جميل يمكن اكتسابه بالاعتياد عليه، والحرص على التزامه، وتحرِّي العمل به، حتى يصل صاحبه إلى المراتب العالية، يرتقي من واحدة إلى الأعلى منها بحسن خلقه، ولذلك يقول : «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يَهْدي إلى البر، وإن البر يَهْدي إلى الجنة، وما يزال الرجل**

1 (?) أخرجه الموطأ 2/990 مرسلًا في الكلام.. وهو حديث حسن مرسل (جامع الأصول 10/598 -الحديث 8183).

2 (?) أخرجه مسلم وأبو داود (جامع الأصول 10/600 -الحديث 8189).

يصدق، ويتحرَّى الصدق، حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا»، وكذلك شأن الكاذب في السقوط، إلى أن يختم له بالكذب **«وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتب عند الله كذّابًا»** [1].

ومن آثار الصدق ثبات القدم، وقوة القلب، ووضوح البيان، مما يوحي إلى السامع بالاطمئنان، ومن علامات الكذب الذبذبة، واللجلجة، والارتباك، والتناقض، مما يوقع السامع بالشك وعدم الارتياح، ولذلك **«فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»** [2] كما جاء في الحديث.

وعاقبة الصدق خيرٌ - وإن توقع المتكلم شرًّا - قال تعالى: {**فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**} [محمد: 21]، وفي قصة توبة كعب بن مالك يقول كعب بعد أن نزلت توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا: (يا رسول الله، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أُحدِّث إلا صدقًا ما بقيت)، ويقول كذلك: (فو الله ما أنعم

---

1 (?) أخرجه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داود والترمذي - واللفظ للترمذي -(جامع الأصول 6/442 -الحديث4641).

2 (?) أخرجه الترمذي بهذا اللفظ -وإسناده صحيح -(جامع الأصول 6/442 -الحديث 4642).

الله عليَّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا)[1]، وروى ابن الجوزي في مناقب أحمد أنه قيل له: (كيف تخلَّصت من سيف المعتصم وسوط الواثق؟ فقال: لو وُضع الصدق على جرح لبرأ) [2]، ويوم القيامة يقال للناس: {**... هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...**} [المائدة: 119].

والصدق يدعو صاحبَه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتلوَّن؛ ولأنه واثقٌ لا يتردَّد، ولذلك جاء في أحد تعريفات الصدق: (القول بالحق في مواطن الهلكة)[3]، وعبر عن ذلك الجُنَيد بقوله: (حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب)[4]

وكم يكون شقيًّا من يتفنن في اختلاق الأحاديث؛ ليجلب الأنظار، وفي ادعاء القصص؛ ليُضحك الناس، فيؤوبون وهم سعداء بالترويح عن أنفسهم، ويبوء هو بوزر ما كذب، فله الهلاك - كما جاء في الحديث

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب المغازي -باب 79 -الحديث4418 (الفتح 7/113).

2 (?) عن حاشية رسالة المسترشدين تحقيق الشيخ أبو غدة ص 72.

3 (?) تهذيب مدارج السالكين ص 399.

4 (?) تهذيب مدارج السالكين ص 401.

-: **«ويل للذي يحدث بالحديث ليُضحك به القوم، فيكذب، ويل له، ويل له»** [1].

وإن أشد الكذب إثمًا، وأعظمه جرمًا، أن يكذب على الله ورسوله، فينسب إلى دين الله ما ليس منه، ويدعي في الشرع بما لا يعلم، ويختلق نصوصًا ليس لها أصل - أراد بذلك الخير أم الشر - فهو كذب شنيع على دين الله، يقول رسول الله ﷺ: **«إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوّأ مقعده من النار»** [2]، ولذلك كان بعض الصحابة يتحرَّجون من الإكثار من رواية حديث رسول الله ﷺ؛ خشية الوقوع في خطأ - غير مقصود - فيكونوا قد نسبوا إلى رسول الله ما لم يقل، ومن ذلك ما كان من أنس بن مالك إذ قال: إني ليمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا، أن النبي ﷺ قال: **«من تعمد عليّ كذبًا فليتبوّأ مقعده من النار»** [3].

ومما يدل على مزيد احتياطهم في نقل حديث رسول الله ألا يزيدوا أو ينقصوا:

---

1 (?) أخرجه أبو داود والترمذي -وإِسناده حسن -(جامع الأصول 10/599 -الحديث 8186).
2 (?) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي (جامع الأصول 10/611 -الحديث 8206).
3 (?) أخرجه مسلم والترمذي (جامع الأصول 10/610 -الحديث 8204).

ذلك الموقف الذي رواه مسلم، حيث حدَّث بُشير العدوي بحضرة ابن عباس، وابن عباس لا يأبه به، ولا يبالي بحديثه، ولا ينظر إليه، فقال بُشَير: (يا ابن عباس! مالي لا أراك تسمع لحديثي. أحدثك عن رسول الله ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلًا يقول: قال رسول الله ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأسماعنا، فلما ركب الناس الصّعب والذّلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف) [1] أي لما أصبح الناس يتحدثون في الأمور الصعبة والسهلة، ولا يبالون ولا يحترزون من الوقوع في الخطأ، أصبحنا نحترز من التلقي عن أي كان.

فليحذر الذين يبادرون إلى الفتوى بغير علم من الكذب على دين الله، وليحذر الذين يشيعون الأحاديث المنكرة والموضوعة من المشاركة في الكذب على رسول الله. ولقول المرء: لا أدري - وإن قسا على نفسه - أهون له من الكذب على رسول الله .

ولكي تكون حياتك كلها صدقًا، ولتحشر مع الصديقين، فاجعل مدخلك صدقًا، ومخرجك صدقًا، وليكن لسانك

---

[1] (?) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح ص 13 (جامع الأصول 10/612 -الحديث 8208).

لسان صدق، لعل الله يرزقك قدم صدق، ومقعد صدق، ولا تترك فرصة للشيطان ليستدرجك بالاستكثار من المعاريض، فالصدق صراحة ووضوح، والميل عنه التواء وزيغ، وحال المؤمن الصدق، و{**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...**} [النحل: 105].

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- أدنى الصدق صدق اللسان وأعم منه الصدق مع الله في الظاهر والباطن.
- لا صدق بلا إخلاص.
- الصدق مرتبط بالإيمان.
- قد يجانب الصدق من يُحدث بكل ما سمع.
- يُنال الصدق بالتحري.
- من آثار الصدق الطمأنينة وثبات القلب.
- الصدق نجاة وإن توقع المتكلم شراً.
- الصادق جريء والكاذب متلجلج.
- أكبر الكذب الكذب على الله ورسوله.
- كان الصحابة يحتاطون في رواية الحديث خشية الوقوع في الكذب.
- الاستكثار من المعاريض يوقع في الكذب.

****

الفصل الثالث

الاعتذار

«ولئن اعتذرت لا تعذرونني!»

الاعتذار: أدب اجتماعي في التعامل الإسلامي، ينفي منك شعور الكبرياء، وينفي من قلب أخيك الحقد والبغضاء، ويدفع عنك الاعتراض عليك، أو إساءة الظن بك، حين يصدر منك ما ظاهره الخطأ.

ومع أن الاعتذار بهذا المعنى حسن، فالأحسن منه أن تحذر من الوقوع فيما يجعلك مضطرًّا للاعتذار، فقد جاء في الوصية الموجزة، من رسول الله ﷺ لأبي أيوب الأنصاري ﷺ: **«ولا تكلَّم بكلام تعتذر منه غدًا»** [1] فإن زلت قدمك مرة فإنه **«لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»** [2] - كما في الحديث - وعندئذٍ فإن من التواضع ألا تكابر في الدفاع عن نفسك، بل إن الاعتراف بالخطأ أطيب للقلب، وأدعى إلى العفو، ومعلوم أن توبة الصحابي الكريم كعب بن مالك إنما أنجاه فيها الصدق، فقد كان يقول: (يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني أخرج من سخطته بعذر، والله ما كان لي عذر) [3]، ولن يُنقض من منزلتك أن تعترف بخطئك، وهذا رسول الله ﷺ لَمَّا كان يظن أنه لا ضرورة لتأبير النخل أشار بعدم تأبيرها، ثم قال بعد ذلك: (إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذني بالظن)[4].

---

1 (?) مسند أحمد 5/412 وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 2/45 برقم 3363.

2 (?) مسند أحمد 3/69 وحسنه الترمذي ووافقه الأرناؤوط (جامع الأصول 11/699).

3 (?) مسند أحمد 3/457 واصل القصة في الصحيحين.

4 (?) صحيح مسلم -كتاب الفضائل -باب 38 -الحديث 2361 (شرح النووي 15/125).

ولا تنتظر من نفسك أن تسيء لتعتذر، بل يمكن أن يكون الاعتذار توضيحًا للموقف، أو بيانًا للقصد، فقد كان الأنصار عند فتح مكة، قد توقَّعوا ميل النبي ﷺ، للإقامة مع قومه في مكة بعد الفتح، فقالوا: (أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته)، فقال النبي ﷺ: **«كلَّا، إني عبد الله ورسوله، هاجرتُ إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»**، فأقبلوا إليه يَبْكُون، ويعتَذِرون بأنهم قالوا ما قالوه لحرصِهم على إقامته معهم في المدينة، فقالوا: (والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّن بالله ورسوله)، فقال رسول الله ﷺ: **«فإن الله ورسوله يُصدِّقانكم، ويعذرانكم»**[1].

وإن صاحب خلق (الاعتذار) ليستَحْيِي من افتضاح تقصيره، حين يظن من نفسه التقصير، فإن ابن عمر يروي أنه كان في سرية فانهزموا، ومن حيائهم رجعوا إلى المدينة خفية في الليل، واختفوا في المدينة، ثم قالوا: (لو خرجنا إلى رسول الله ﷺ، واعتذرنا إليه)، فخرجوا لبيان عذرهم، وقالوا له: **«نحن الفرَّارون يا رسول الله!» «قال: بل أنتم**

---

1 (?) مسند أحمد 2/538 -وصحيح مسلم -الجهاد -باب 31 - الحديث 86 (شرح النووي 12/374).

العكّارون، وأنا فئتكم» [1]، فهوَّن عليهم ووصفهم بالعكّارين، الذين يغزون كرة بعد كرة، ولا يتوقفون عن الغزو.

وإذا جاءك مَن يأمرك بالمعروف، فاقبَل منه، ووضِّح عذرك - إن كان لك عذر - فقد وعظ سالم بن عبدالله شابًّا مسترخي الإزار، فقال: (ارفع إزارك)، فأخذ الشاب (يعتذر فقال: إنه استرخى، وإنه من كتّان) [2]، وبذلك بيّن أنه لم يُرخِه كبرًا، وإنما استرخى بنفسه؛ بسبب طبيعة قماشه، وهذا شأن المسلم في دفع سوء الظن، وإثبات براءته - حين يكون بريئًا بحق.

ومما ورد بهذا المعنى: أن أناسًا من الأشعريين طلبوا من أبي موسى الأشعري مرافقتهم إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن يعلم ماذا يريدون، وإذا بهم جاؤوا يطلبون التولية على أعمال المسلمين، فظهر أبو موسى وكأنه جاء يشفع لمن طلب الإمارة، فشعر بالحرج الشديد، قال: (فاعتذرت إلى رسول الله ﷺ، وعذرني) [3].

وكان هذا الخلق صفة مميزة لمجتمع الصحابة رضي الله عنهم، يروي أحمد: أن

---

1 (?) مسند أحمد 2/111 -وأخرجه أبو داود والترمذي وحسَّنه (جامع الأصول 2/610).

2 (?) مسند أحمد 2/390.

3 (?) مسند أحمد 4/417 -وفي صحيح سنن النسائي 3/1089 -الحديث 4975 (صحيح).

عثمان بن عفان جاء يعتب على ابن مسعود في أمور سمعها عنه، فقال: (هل أنت مُنْتهٍ عمَّا بلغني عنك؟ فاعتذر بعض العذر) [1]. ويمكن أن يكون الاعتذار دفعًا لاعتراض، أو إزالة لشبهة قد تثور، وما أعظم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب! حين جاء يوم الجابية يوضح للناس أسباب عزل خالد بن الوليد، فقال: (وإني أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد)، وما أعظم المجتمع الذي يجرؤ أحد أفراده أن يعلن عدم قبوله لعذر الأمير! قائلًا له: (والله ما أعذرت يا عمر بن الخطاب) [2].

وقد يدعوك موقفٌ من المواقف إلى الشدَّة، التي قد يظنها الناس منك غلظة، فما أجمل أن تُبيّن دواعي شدَّتِك؛ حتى لا يُفسِّرها أحد بأنها سوء خلق منك، روى أحمد أن حذيفة طلب ماءً من رجل من أهل الكتاب؛ ليشرب، فجاءه الكتابي بالماء في إناء من فضة، فرماه حذيفة بالإناء (ثم أقبل على القوم، اعتذر اعتذارًا، وقال: إني إنما فعلت ذلك عمدًا؛ لأني كنت نهيتُه قبل هذه المرة؛ أن رسول الله نهانا عن لبس الديباج والحرير، وآنية الذهب والفضة)[3]،

---

1 (?) مسند أحمد 1/66.

2 (?) مسند أحمد 3/475 -467.

3 (?) مسند أحمد 5/400.

فأوضح لمن معه أن هذا الرجل يعلم حرمة استعمال آنية الفضة على المسلمين، ومع ذلك تكرر منه ما يدعو إلى الغضب والشدة.

كل هذه الأخلاق وقاية لمجتمع المسلمين من تفشي سوء الظن، وتقاذف التُّهم، التي إن استقرت في القلوب، لم يعُدْ ينفع معها اعتذار، كما قالت عائشة في حديث الإفك: (والله لئن حلفتُ لا تصدقونني، ولئن اعتذرت لا تعذرونني)[1] - فمن تغلب على نفسه فاعتذر، فتغلب أنت على كبريائك فاعذِر، فقد عدَّ ابن القيم قبول عذر المعتذر من التواضع، ويقول في ذلك: (من أساء ثم جاء يعتذر عن إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته... وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره، لا توقفه عليه، ولا تحاجّه)[2].

وتلقّي الأعذار بطيب نفس، وبالعفو والصفح، يحضُّ الناس على الاعتذار، وسوء المقابلة للمعتذر، وتشديد اللائمة عليه، يجعل النفوس تصّر على الخطأ، وتأبى الاعتراف بالزلل، وترفض تقديم المعاذير،

---

1 (?) صحيح البخاري -أحاديث الأنبياء -باب 19 -الحديث 3388 (الفتح 6/418).

2 (?) تهذيب مدارج السالكين -منزلة التواضع ص (433).

فإن بادر المسيء بالاعتذار فبادر أنت بقبول العذر والعفو عما مضى لئلا ينقطع المعروف.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الاعتذار ينبع عن تواضع وإنصاف.
- أحسن من الاعتذار تجنب ما يلجئ إلى الاعتذار.
- الاعتذار يدل على حياء المخطئ وعدم مكابرته.
- كان الاعتذار أدبًا مميزًا لمجتمع الصحابة.
- من مبررات الاعتذار بيان دواعي الشدة.
- الاعتذار ينفي سوء الظن وتقاذف التهم.
- حسن قبول الاعتذار يعين على الاعتراف بالخطأ.

****

الفصل الرابع

ستر العيوب

«ومَن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة».

المجتمع الذي يغلب عليه الطُّهر، لا يطفح فيه من الأخبار إلا ما كان طاهرًا وعفيفًا، ويبقى المسرُّ بالمعصية مستورًا بستر الله عليه، إلى أن يتوب، ويستره المؤمنون؛ لئلا يتجاسر على الجهر بها، أو الإصرار عليها، وليكونوا عونًا له على الشيطان، طالما أسرَّ واستتر.

مثلما استنكر رسول الله حديث العاصي الفاضح لنفسه، والكاشف لستر الله عنه، فقال: «**كلّ أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان! عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[1]، فقد استقبح أيضًا شأن الفاضح لأخيه، لذلك وصف الله الذين يلوكون

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب -باب 60 -الحديث 6069 (الفتح 10/486).

أعراض المسلمين بألسنتهم - كما قال تعالى - {**يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...**} [النور: 19]، وما زال الوعيد الشديد يتهددهم {**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**} [النور: 19]، ويقابل هذا الوعيد بشارة للذين يكتمون عيوب إخوانهم، بستر الله لهم في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح: **«ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»** [1].

يقول النووي في شرحه لهذا الحديث: (وأما الستر المندوب إليه هنا، فالمراد به: الستر على ذوي الهيئات ونحوهم، ممن ليس هو معروفًا بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك، فيستحب ألا يستر عليه، بل تُرفع قضيته إلى ولي الأمر - إن لم يخفف من ذلك مفسدة - لأن الستر على هذا يُطمعه في الإيذاء والفساد، وانتهاك الحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله، وأما جرح الرواة والشهود، والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام، ونحوهم، فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم، إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم،

---

1 (?) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود (جامع الأصول 6/562) وفي صحيح سنن ابن ماجه برقم 184.

وليس هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة) [1].

ولا يعني ذلك ترك الإنكار على من تستره فيما بينك وبينه، وإذا أنكرت عليه، ونصحته، فلم ينتهِ عن قبيح فعله، ثم جاهر به، جازت الشهادة عليه بذلك - كما أفاد النووي وابن حجر - وفُرّق بين محلّ السَّتر والإنكار: (والذي يظهر أن السَّتر محلّه في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها، فيجب الإنكار عليه، وإلا رفعه إلى الحاكم) [2].

ومن أولى الستر: ستر المرء لعيوب نفسه، التي سترها الله عليه، وإن الله عز وجل ليكرمه، لقاء تحرجه من معصيته، واستتاره بها، واستحيائه منها، بـن يغفر له:_ كما جاء في الحديث - «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم،**

---

1. (?) شرح النووي لصحيح مسلم (16/135) كتاب البر والصلة -باب 15 -من شرح الحديث 2580.
2. (?) فتح الباري (5/97) من شرح الحديث 2442 ومثله عند النووي.

فيُعطى كتاب حسناته» [1]، وقد حلف رسول الله على ثلاثة أشياء، ثم قال: **«والرابعة لو حلفت عليها رجوت أن لا آثم: لا يستر الله عبدًا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة»** [2]، فليستر نفسه كما ستره الله.

إن من كرامة المسلم على الله: أنه - سبحانه - يتولى الدفاع عنه بنفسه، والانتقام له من المسيء إليه، وفي ذلك يقول رسول الله : **«يا معشر مَن آمن بلسانه، ولم يدخُلِ الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبِعوا عوراتهم، فإنه مَن يتَّبِع عوراتهم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته»** [3].

فاستُرْ إخوانك، فإنه لا طاقة لك بحرب الله، القادر على كشف عيوبك، وفضح ذنوبك، التي لا يعلمها الناس عنك، وألْجِم لسانك عن الخوض في الأعراض، وتتبع العورات، وإفساد صِيت إخوانك، وإساءة سمعتهم.

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب المظالم -باب 2 -الحديث 2441.

2 (?) صحيح الجامع -الحديث 3021 (صحيح) وهو في مسند أحمد 6/145.

3 (?) مسند أحمد 4/220، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 7984.

تجد النفس المريضة شغوفة بسماع العيوب، وتتبع السقطات، وتصدر المجالس في تجريح ذوي الهيئات، مع أن رسول الله أمر بالتجاوز عن عثراتهم، ومع أن الله عز وجل **«يحب الحياء والستر»** [1]، وكأنما قرن بين هذين الخلقين (الحياء والستر)؛ لأن الإنسان الذي ينشر عيوب إخوانه، لا يُقدِم على ذلك إلا بعد أن يهتك كل حجب الحياء، التي يمكن أن تردعه، ولا يستر إلا الحَيِيُّ.

وكذلك فإن الستر حياة للمستور، الذي يتعامل مع الناس دون أن تشير إليه الأصابع، وتنهشه النظرات، وتقتله عقدة الذنب، وربما كان هذا بعض ما أراده رسول الله بقوله: **«من رأى عورة فسترها، كان كمن أحيا موءودة»** [2]، ويقول المناوي في (عون المعبود): وجه الشبه أن الساتر دفع عن المستور الفضيحة بين الناس، التي هي كالموت، فكأنه أحياه، كما دفع الموت عن الموءودة من أخرجها من القبر قبل أن تموت) [3].

---

1 (?) مسند أحمد 4/224، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 1756.

2 (?) رواه أبو داود في كتاب الأدب -باب 45 -الحديث 4870 صححه الحاكم ووافقه الذهبي وضعفه الألباني.

3 (?) عون المعبود 13/235 من شرح الحديث 4870.

ولقد كان من هَدْي رسول الله أنه يؤثر الستر، حتى في حق مرتكب الكبيرة، لذلك كان يوجه بقوله "تعافّوا الحدود فيما بينكم"[1]؛ لئلا تُنقل إلى الإمام فتفتضح بإقامة الحد، لعل صاحبها يتوب، فيتوب الله عليه.

لقد بلغ من حرص رسول الله على كرامة المسلم، وسلامة نفسيته، أنه حين جاءه رجل يقول له: «يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقِمْه عليَّ»، يقول أنس بن مالك: ولم يسأله عنه، وبعد الصلاة كرر الرجل مقالته، «**فقال رسول الله : أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم. قال: فإن الله قد غفر ذنبك**» [2].

يقول ابن حجر: (وإنما لم يستفسِرْه إما لأن ذلك يدخل في التجسس المنهي عنه، وإما إيثارًا للستر، ورأى أن في تعرضه لإقامة الحد عليه ندمًا ورجوعًا) [3]، وندع الخلاف الفقهي في ذلك الحديث؛ لنقطف المغزى الأخلاقي الذي يُؤكّد حرمة المسلم ومكانته، حتى حين يقرُّ على نفسه ويعترف بذنبه.

---

1 (?) صحيح سنن أبي داود برقم 3680 وصحيح سنن النسائي برقم 4539.
2 (?) صحيح البخاري -كتاب الحدود 0باب 27 -الحديث 6823.
3 (?) فتح الباري 12/134 من شرح الحديث 6823.

أعود إلى واقعنا المؤلم، فأرى أناسًا يتهمون بالظن، ويشيعون بلا بينة، ويفترون على البريء، ويفضحون المذنب المستتر بذنبه، ويُشوِّهون صورة الفضلاء بإبراز صور ضعفهم، فمن يدعي أن هذا من الحياء والستر الذي يحبه الله؟

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- المسرُّ بالمعصية مستور بستر الله عليه.
- كشف العيوب مستقبح وإن تحدث المرء عن نفسه.
- لا تعارض بين الإنكار على العاصي وبين ستره.
- تتبع العورات منزلق إلى فضح العيوب.
- الارتياح بسماع العيوب علامة مرض القلب.
- الستر مطلوب حتى في حق مرتكب الكبيرة.

****

الباب التاسع

من أخلاقنا في التعامل الاجتماعي

الفصل الأول: اللين والرفق.
الفصل الثاني: السماحة.
الفصل الثالث: الاحترام.
الفصل الرابع: الإحسان.
الفصل الخامس: مكافأة المحسن.
الفصل السادس: الكرم.
الفصل السابع: الأمانة.
الفصل الثامن: البر.

****

الفصل الأول

اللين والرفق

«حُرِّم على النار كل هيِّن ليِّن سهل...».

إن التـوازن في شخصـية المسـلم ليجمع الشدة والرحمـة، وإن من الحكمـة مراعـاة

كل ظـرف بمـا يناسـبه، والتعامـل مـع كـل حالة بما تقتضيه؛ من الأخذ بقـوة أو الرفـق واللين، غير أنه يبقى أن الأصل في التعامل الاجتمـاعي اللين والرقــة، مــا لم يَقُمْ مــا يقتضي خلاف ذلك.

أما حين تنضُبُ ينابيع العاطفة، فلابد من تطهير القلب من عوامل القسوة؛ لتنعكس صور اللين على المعاملة والسلوك.

إن طــول الــزمن قــد يُخفِّف من رقـــة الشـعور، وتطـاول الأيـام قـد ينسـي بعض القيم، وتقـادم العهـد قـد يغـير المشـاعر القلبيـة، مـا لم يتعهَّد المـرء نفسـه، ويجلـو قلبـــه، ليبقى حاضرَ الفكـــر، واعيَ القلب، يقظَ الإحساس، ولأن اللِّين ظاهرة سـلوكية تنبع عن قلب لين، فقد عاتب ربنا عز وجـل الصـحابة الكـرام حين رأى منهم تغـيرًا في القلـــوب: {**أَلَمْ يَـــأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُـــوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَـتْ قُلُـــوبُهُمْ وَكَثِـــيرٌ مِنْهُمْ فَاسِـــقُونَ**} [الحديـد: 16]، وحدَّث ابن مسـعود فقـال: (مـا كـان بين إسـلامنا وبين أن عاتبنـا اللـه بهـذه الآيــة... إلا أربــع سـنين)[1]، وزاد في

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب التفسير - باب1 - الحديث 24/ 3027 (شرح النووي 9/368).

رواية (فجعل ينظر إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟!)[1]، فإذا كان الصحابة الكرام قد احتاجوا إلى تلك اللفتة القلبية بعد أربع سنوات من إسلامهم، فكم تحتاج قلوبنا إلى تعهُّد وتزكية؟!

وقسوة القلب قد تكون أحيانًا نتيجة المعاصي، ومظهرًا من مظاهر غضب الله على العبد، ولذلك يقول مالك بن دينا: (ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضِب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم)[2].

وإن العيش في أعطاف النعمة ليجعل على القلب غشاوة، تشغل المرء بذاته، وتحد من همته، ولذلك رأى محمد بن كعب في الآية السابقة توجيهًا آخر فقال: (كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة ففتَروا عما كانوا فيه فقسَتْ قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا)[3]، ألا فلنتواصَ حتى نُفِيقَ.

---

[1](?) عن الجامع لأحكام القرآن 17/162 عند تفسير الآية 16 من سورة الحديد.

[2](?) عن الجامع لأحكام القرآن 15/161 عند تفسير الآية 22 من سورة الزمر.

[3](?) عن الجامع لأحكام القرآن 17/ 162 عند تفسير الآية 16 من سورة الحديد.

إن الانشغال بلغو الكلام وتتبع الهفوات يُجفِّف منـــــابع اللين في القلب، وتنعكس الآثار على صورة حدة في التعامل.

جاء في موطأ الإمام مالك قوله: (بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى؛ فتقسوا قلوبكم؛ فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية)[1].

إن شخصية الداعية لتقتضي القدرة على التعامل مع الناس باللين. وقد تعجبت السيدة عائشة من موقف رسول حين استأذن رجل بالدخول عليه، فنعته بقوله: **«بئس أخو العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام.. »** [2]، وليس عجيبًا أن يكون هذا شأن نبينا وهو القائل: **«الكلمة اللينة صدقة»** [3]، ولما سأل رجل رسول عن أفضل الأعمال أوجزها له في صفات

---

[1] (?) موطأ مالك - كتاب الكلام - باب 3 - الحديث 8 من بلاغات مالك.

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب 48 - الحديث 6045 (فتح الباري 10/471).

[3] (?) مسند أحمد 2/312.

ذكر منها: «**لين الكلام وبذلك الطعام**»[1].

وإذا كان قصدنا الفوز برضا الله، والنجـاة من النار، فـإن المسـلم لينـال بـاللين مـا لا ينالـه بالغلظـة والشـدة، كمـا في الحـديث: «**حُـــرِّم على النـــار: كـــل هيِّن ليِّن سهل، قريب من الناس**»[2].

ويمكن أن يكون تكلف السـلوكيات اللينـة مدخلًا إلى اكتساب اللين القلبي، فقد شــكا رجل إلى النبي قسوة قلبه فقال له: «**إن أردت أن يَلِين قلبـــــك؛ فـــــأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[3].

وكثيرًا ما يُحرِّش الشـيطان في الصـدور، حـتى في لحظـة القيـام للصـلاة، وتسـوية الإمام للصـفوف، بتـأخير هـذا وتقـديم ذاك، إلى أن يستقيم الصف، وقد كان من وصيته قبـل الـدخول في الصـلاة: «**ولِينوا في أيدي إخـوانكم**»[4]؛ لأن إقامـة الصـفوف وســد الخلــل تقتضــي الاســتجابة وعــدم المعاندة.

---

[1](?) مسند أحمد 4/204.
[2](?) مسند أحمد 1/415 وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 3135.
[3](?) مسند أحمد 2/262 وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم 1410.
[4](?) مسند أحمد 2/98 وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 1187 ورواه أبو داود.

وليس المقصود باللين عدم إنكار المنكر، وإنما اللين في الأسلوب حيث يغني اللين ويحقق الغرض، وذلك باستنفاد جميع الوسائل الممكنة التي تضمن الاستجابة، ولا تستعدي الآخرين، وراجع - إن شئت - حديث البخاري في قصة الرجل الذي جامَع أهله في نهار رمضان، كيف عرض عليه رسول الله ﷺ عددًا من الخيارات للتكفير عن ذنبه، فقال له: **«هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟ قال: لا»**، فجاء النبي ﷺ تمرٌ، فأعطاه للرجل، وقال له: **«خذ هذا فتصدق به»**. فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله، والله ما بين لَابتَيْها أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: **«أطعمه أهلك»** [1].

فاللين صورة من صور الرحمة يضعها الله في قلب العبد، قال تعالى: {**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...**} [آل عمران: 159].

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب 30 - الحديث 1936 (فتح الباري 4/ 1063).

والرفيق الرحيم أحقُّ الناس برحمـة اللـه كما في الحـديث: «**الراحمون يـرحمهم الرحمن تبـارك وتعـالى، ارحمـوا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**»[1]، ولـذلك فـإن رسـول اللـه (كـان أرحم النـاس بالصـبيان والعيـال)[2]، ونفى كمـال الإيمان عمَّن لا يرحم، «**ليس منـا مَن لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»[3]، وحتى الرحمة بالمخلوقـات من أسـباب استحقاق رحمـة اللـه في الآخـرة، كمـا في قوله : «**مَن رحم ولو ذبيحة عصفور، رحِمه الله يوم القيامة**»[4].

والعَلاقــات الأُســْرِيَّة مــع الأهــل وذوي الــرحم، ينبغي أن يســودها الرفــق واللين؛ للمحافظــة على تماســك بنيــان الأســرة المسلمة وصفاء أجوائها، كما في الحــديث: «**إذا أراد الله بأهـل بيت خـيرًا أدخـل عليهم الرفق**»[5].

والهين اللين ينسحب رفقه على كل صور حياتــه، الــتي تقتضــي الســماحة واللين في التعامل مع المؤمـنين، حـتى يحظَى بمحبـة

---

[1](?) صحيح الجامع برقم 3522 (صحيح)، وهو عند أحمد وأبي داود الترمذي والحاكم.

[2](?) صحيح الجامع برقم 4798 (صحيح).

[3](?) صحيح الجامع برقم 5444 (صحيح) وهو عند أحمد والترمذي والحاكم.

[4](?) صحيح الجامع برقم 6261 (حسن).

[5](?) صحيح الجامع برقم 303 (صحيح) ورواه أحمد في مسنده).

الله «**إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله**» [1]، كما نحظى بعون الله «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويرضاه، ويعين عليه ما لا يعين على العنف.. »** [2].

وصورة الشديد الغليظ، الغاضب العنيف، صورة مَشينة مَعِيبة تنفر منها الطباع البشرية؛ بينما صورة السهل الرفيق، اللين اللطيف، صورة تزين صاحبها، وترتاح إليها النفوس، وتأنس إليها القلوب، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**» [3].

ولا ينفي كل ما مضى أن المؤمنين أشداء على الكفار رحماء بينهم. ولا أنهم يغضبون لله، كما أنهم يلينون لوجه الله.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- اللين هو الأصل.

- من عوامل قسوة القلب:

- طول الأمد.
- كثرة المعاصي.
- كثرة التنعم.
- كثرة اللغو.

---

[1] (?) صحيح الجامع برقم 1881 (صحيح) وهو أيضًا عند البخاري.
[2] (?) صحيح الجامع برقم 1770 (صحيح).
[3] (?) صحيح الجامع برقم 5654 (صحيح).

- اللين بالكلام.
- تَنال باللين ما لا تناله بالشدة.
- يمكن اكتساب اللين بممارسته.
- اللين في تسوية الصفوف.
- اللين لا ينفي الأمر بالمعروف.
- الرجل الرفيق حقيق بالرحمة.
- الرفق بالبهائم من الرحمة.
- صورة الرجل اللين محبوبة.
- لا تعارض بين اللين والشدة.

****

الفصل الثاني
السماحة

«الإيمان: الصبر والسماحة».

حين تجد امرءًا سهلًا ميسرًا، يتنازل عن حظِّ نفسه أو جزء من حقه، ليحل مشكلة هو طرف فيها، أو ليطوي صفحة طال

الحديث فيها، أو ليتألف قلبًا يدعوه، أو ليستطيب نفس أخيه، وهو قبل ذلك لا يتعدى على حق أخيه، ولا يُلحِف في المطالبة بحقوقه، فذلكم هو الرجل السمح وتلك هي السماحة.

وقد دعا رسول الله بالرحمة للرجل السمح: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[1]، وفي رواية (وإذا قضى)، وما هي إلا صور من المعاملات اليومية، التي تقتضي قدرًا كبيرًا من السماحة. ويعلق ابن حجر على رواية البخاري بقوله: (السهولة والسماحة متقاربان في المعنى، والمراد بالسماحة ترك المضاجرة ونحوها، وإذا اقتضى؛ أي: طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف، وإذا قضى: أي أعطى الذي عليه بسهولة بغير مطل، وفيه الحض على السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم)[2]، وأكثر ما تكون الخصومات في المعاملات المالية، والمناظرات الخلافية، والملاسنات الكلامية. وقل أن يسلم فيها من لم يتحلَّ

---

[1](?) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب 16 - الحديث 2076 (الفتح 4/306).

[2](?) فتح الباري 4/302 عند شرحه للحديث 2076.

بكرم الخلق، و جود النفس، وسماحة الطبع.

إن صاحب السماحة لا تطيب نفسه بأن يحصل حقًّا لم تطب به نفس الطرف الآخر، فيؤثر التنازل أو السماحة وإن كان الحق له، وهذا ما كان من عثمان حين اشترى من رجل أرضًا، فتأخَّر صاحب الأرض في القدوم عليه لقبض الثمن، وتبيَّن له أن سبب تأخره أنه بعد أن تم العقد شعر البائع أنه مغبون، وكان الناس يلومونه كيف تبيعها بهذا الثمن؟ قال عثمان: (فاختر بين أرضك ومالك)، ثم ذكر له الحديث: «**أدخل الله عز وجل الجنة رجلًا، كان سهلًا مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا ومقتضيًا**»[1].

إن إنظار المعسر، أو التجاوز عن القرض أو عن جزء منه، صورة عظيمة من صور الكرم وسماحة النفس. قال رسول الله : «**كان تاجر يُداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه؛ لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه**»[2]، بل إن توفيق الدنيا والآخرة مرهون بتيسيرك على أخيك المعسر: «**مَن**

---

[1] (?) مسند أحمد 1/58 وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (1789/2202) وصحيح النسائي (4379).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب 18 - الحديث 2078 (الفتح 4/308).

يسَّر على مُعسِرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[1].

وقد كان رسول الله يأمر برد القرض بخير منه وبالزيادة فيه، ويقول: «**أعطِه، فإن خيار الناس أحسنهم قضاء**»[2]، وما ترك صاحب القرض يمضي إلا وهو راضٍ، كما شهد لرسول الله شريكه في التجارة قبل البعثة: (السائب بن عبد الله) بقوله له: (كنت شريكي في الجاهلية، فكنت خير شريك، كنت لا تداريني ولا تماريني)[3]؛ أي: كنت لا تدافعني في أمر ولا تجادلني، بل كنت شريكًا موافقًا، ولم ينسَها له، وكانت سببًا من أسباب محبته له، وتكون سببًا من أسباب النجاة من النار لمن تخلَّق بها «**حُرِّم على النار: كلُّ هيِّن ليِّن سهل، قريب من الناس**»[4].

صاحب السماحة لا يحرِصُ على إيقاع الناس في الحرج، ولا يشغَلُه التفكير بما له عن التفكير بما عليه من سماحة مع إخوانه

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الذكر - باب 11 - الحديث 2699 رواه ابن ماجه برقم 2417 - واللفظ له -.

[2] (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/29 - الحديث 1851/ 2285 (صحيح).

[3] (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/29 - الحديث 1853/ 2290 (صحيح).

[4] (?) مسند أحمد 1/415 - صححه الألباني في صحيح الجامع برقم 3135.

وتقدير لظروفهم، وفي الحديث الصحيح: أن الصحابي أبا اليسر كان له على رجل قرضٌ، فلما ذهب لاستيفاءِ حقه اختبأ الغريم في داره؛ لئلا يلقى أبا اليسر، وهو لا يملك السداد، فلما علم أبو اليسر أن صاحبه يتخفى منه حياءً لعدم تمكنه من أداء ما عليه، أتى بصحيفة القرض فمحاها، وقال: «**إن وجدت قضاءً فاقض، وإلا فأنت في حلٍّ**»[1]، وبسماحته تلك أخرج أخاه من الحرج الشديد.

وأبرز مواقف السماحة ما يكون مع مَن أساء إليك، كالذي جرى مع أبي بكر حين أقسَم ألا يُنفِق على مِسْطَح بن أُثاثة؛ لتورُّطه في حديث الإفك، فأمره الله أن يعفو ويصفح، فكفَّر عن يمينه، وعاد ينفق عليه[2]، وفي ذلك يقول : «**ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفَرْ الله لكم**»[3]، وقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم: {**وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**} [الشورى: 37].

وقد يوسوس الشيطان للمسلم: إنك لو تسامحت وصفك الناس بالعجز, وظنوا فيك الضعف؛ ولأن تُؤثرَ أن يقال فيك ما يقال

---

[1] (?) صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب 18 - الحديث 3006.

[2] (?) هذه القصة من حديث الإفك في صحيح البخاري - الحديث 4750 (الفتح 8/452).

[3] (?) صحيح الجامع- الحديث 897(صحيح).

خير لك من الوقوع في الفجور، بحيث يخشى الناس شرَّك، وقد ورد في الحديث: **«يأتي عليكم زمان يُخيَّر فيه الرجل بين العجز والفجور، فمن أدرك هذا الزمان فليختَر العجز على الفجور»** [1]، ولابد من الإشارة إلى أن السماحة هنا مع أصحاب الفلتات من المسلمين، أما الذين يظلمون الناس، ويصرُّون على ذلك، فيُعامَلون بخلق (الانتصار).

وإن مما يتنافى مع السماحة الانزلاق إلى اللدد والخصومة؛ إذ كما يحب الله السماحة فإن **«أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم»** [2]، قال في الفتح: (الألدُّ: الكذّاب، وكأنه أراد أن من يكثر المخاصمة، يقع في الكذب كثيرًا) [3]، وحين يفتقد المرء السماحة تجده ينحدر في أخلاقه، إلى أن ينجرف إلى التصايح والجدل لأمر يعلم بطلانه، أو وقوفًا مع طرف لا يدري مدى أحقيته، **«ومَن خاصم في باطل - وهو يعلمه - لم يزل في سخط الله حتى**

---

1 (?) مسند أحمد 2/278.

2 (?) صحيح البخاري- كتاب الأحكام- باب 34- الحديث 7188 (الفتح 13/180)

3 (?) فتح الباري 13/181.

ينزع عنه» [4]، وقد قيل في المثل: (ما استرسل كريم قط).

إن خُلُق السماحة يقتضي من صاحبه المبادرة إلى التنازل عند الوقوع في أي موقف جدلي، ولنتذكر دائمًا أن العلم بميقات ليلة القدر خير كبير حُرمت منه الأمة؛ بسبب انعدام روح السماحة بين رجلين من الأمة: **«خرجتُ لأُخبِركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرُفِعت»** [1]، وكم تُحرم الأمة من البركات والنِّعم والنصر حين تدبُّ الخصومات، بل إن صفة أساسية من أخلاقيات المنافق أنه: **«وإذا خاصم فجر»** [2]، ولا يليق بالرجل السمح أن يتعنَّت ويجادل ويشد ويَصِيح، ناهيك عن أن يفجر في الخصومة (والفجور: الميل عن الحق والاحتيال في رده) [3].

وإنه مما يتنافى مع روح السماحة أن يقع الإخوة في جدالات تافهة لأمور سياسية، أو قضايا فكرية، أو توقعات غيبية، ثم تجدهم يَنْفضُّون متباغضين، وما كانت البداية إلا

---

4 (?) صحيح سنن أبي داود 2/686 - الحديث 3066/3597 (صحيح).

1 (?) صحيح البخاري- كتاب فضل ليلة القدر -باب 4- الحديث 2023 (الفتح 4/267).

2 (?) صحيح البخاري- كتاب الإيمان -باب 24- الحديث 34 (الفتح 1/89).

3 (?) فتح الباري 1/90 عند شرح الحديث 34.

روح الجدل، و«**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» [1]، ولحثِّ المسلمين على السماحة في الحوار، والتنازل عند الاختلاف، وعدم الوقوع في مغبة الجدل، تعهد رسول الله ببيت في الجنة لمن تنازل: «**أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا**» [2]، ولا يمكن أن يكون سماحة وتنازلًا إلا حين يكون المرء محقًا، وإنه لعسير، وإن أجره لكبير.

ومن نتائج انعدام روح السماحة أن تغدو أمتنا تتبارى بألسنتها، فتنقلب إلى أمة كلام بدل أن تكون أمة عمل، وتضيع الأوقات في الشد والجذب والأخذ والرد، وكل يناصر رأيه، إن مما حرم رسول الله على أمته (منعًا وهات) ومما كره لهم (قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) [3].

ولا يكمل أجر المجاهد إلا بالسهولة والسماحة «**الغزو غزوان: فأما مَن ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد, فإن نومه ونبهه**

---

1 (?) صحيح سنن ابن ماجه 1/15- الحديث 45/48 (حسن).

2 (?) صحيح سنن أبي داود (1/911)- الحديث 4015/4800 (حسن).

3 (?) صحيح البخاري - كتاب الأدب- باب 6- الحديث 5975 (الفتح 10/405).

أجر كله»[1]، قال الباجي في (ياسر الشريك): (يريد موافقته في رأيه مما يكون طاعة، ومتابعته عليه، وقلة مشاحّته فيما يشاركه فيه؛ من نفقة أو عمل)[2]، فلنوفر أوقاتنا، ولنحفظ أخوتنا؛ بتعميم روح السماحة فيما بيننا، وبالنزول عند رغبة إخواننا إيثارًا لما هو أغلى.

تظهر آثار (السماحة) في جميع مظاهر حياة صاحبها، فانظر إلى رسول الله مع زوجته (عائشة)، حين قصدت الحج والعمرة، فأصابها الحيض، فحزنت لعدم تمكنها من أداء العمرة، وبكت لذلك وقالت: (يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟!)، يقول جابر بن عبد الله: (وكان رسول الله رجلًا سهلًا، حتى إذا هَوِيَتْ الشيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبد الرحمن بن أبي بكر فأهلّت بعمرة من التنعيم)[3]، قال النووي: (سهلًا: أي سهل الخلق، كريم الشمائل، لطيفًا ميسرًا في الخلق)[4]، فما أعظم سماحته مع أهله

---

1 (?) صحيح سنن أبي داود 2/478 -الحديث 2195/2515 (حسن)

2 (?) في حاشية فؤاد عبد الباقي على موطأ مالك 2/466.

3 (?) صحيح مسلم- كتاب الحج- باب 17- الحديث137 (شرح النووي4/410).

4 (?) شرح النووي لصحيح مسلم 4/410 عند شرح الحديث 137 من كتاب الحج.

في مثل هذا الموطن المزدحم، وفي حال السفر.

وتأمَّل سماحة رسول الله في دعوته: فحين وجد ريح ثُوم في مسجده، نهى الصحابة عن أن يردَّ أحد مسجده قبل ذهاب ريح الثُّوم منه، وكان المقصود بالنهي (المغيرة بن شعبة) يقول : «أتيته فقلت: يا رسول الله إن لي عذرًا، ناوِلْني يدك - قال فوجدته والله سهلًا - فناولني يده، فأدخلتها في كمي إلى صدري، فوجده معصوبًا»، «**فقال: إن لك عذرًا**»[1]، فعذره حين وجد أنه أكل الثُّوم لمرض، وكم نحتاج إلى أن نتأسَّى بهذه السماحة مع المدعوين لنكون مبشِّرين غير منفِّرين، ميسِّرين غير معسِّرين.

وإن مما عرَّف به رسول الله الإيمان قوله: «**الإيمان: الصبر والسماحة**»[2]؛ حيث عرَّف الإيمان بحسن المعاملة مع الخالق، والمعاملة مع المخلوق، وكأنما يريد بالصبر عَلاقة العبد مع ربه؛ بالصبر على طاعته، والصبر عن معصيته والصبر على أقداره، وكأنما أراد بالسماحة عَلاقة العبد بأخيه؛ بحيث تغلب عليها السهولة والمياسرة والسماحة، وقابلية التوسيع

---

1 (?) مسند أحمد 4/252.

2 (?) صحيح الجامع- الحديث 2795 (صحيح).

والتنازل لرضى الله، وفيما يرضي الله، وربما كان من حكمة الربط بينهما أن السماحة تقتضي قدرًا كبيرًا من الصبر والتحمل: {**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**} [الشورى: 43] فكن سمحًا إذا عاملت أو دعوت، سمحًا إذا حاورت أو رافقت، سمحًا إذا ظُلمت أو جُهل عليك، فرسالتنا حنيفيَّة سمحة.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- صورة السمح.
- السماحة في التعامل اليومي.

- من صور السماحة:

- التنازل عن حق.
- إنظار المعسر أو التجاوز عنه.
- رد القرض بأحسن منه.
- السماحة مع الشريك.
- رفع الحرج عن الناس.
- السماحة مع من يسيء إليك.

- السماحة بين تهمة العجز أو الفجور.
- **صور تتنافى مع السماحة:**

- كثرة الخصومات.
- كثرة الجدل.
- كثرة اللغو.

- **مواقف تقتضي السماحة**:

- في الجهاد يكمل أجر السمح.

- السماحة مع الزوجة يسر.
- السماحة مع المدعوين بالإعذار.

- العلاقة بين الصبر والسماحة.

****

الفصل الثالث

الاحترام

«ليس منا من لم يُجلَّ كبيرنا ويرحم صغيرنا».

أولى الناس بالاحترام والتوقير مَن كان حظه من الشرع أوفر، ونصيبه من العمل الصالح أكبر، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقوامًا،**

ويضع به آخرين» [1]، وذلكم هو ميزان التقديم والتكريم.

وصاحب (خلق الاحترام) يُجِلُّ العلم وأهله، ومن احترامك للعالم أن تستشعر مهابته، روى البخاري أن حذيفة حدّث حديثًا عن الفتن، فأراد التابعون أن يسألوه، قالوا: (فهبنا حذيفة أن نسأله)[2].

وقد كان هذا شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ، ففي مرَّة أرادوا أن يسألوه عمَّن قضى نحبه، من المقصود به في قوله تعالى: {**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ**} [الأحزاب: 23]، (قالوا لأعرابي جاهل: سَلْه عمَّن قضى نحبه من هو؟ يقول الراوي: وكانوا لا يجترئون على مسألته، يُوقِّرونه ويهابونه)[3]، وفي حديث سجود السهو أن رسول الله ﷺ صلَّى ركعتين بدل أربع، فظن بعض الصحابة أن الصلاة قصرت، يقول أبو هريرة: (وفي القوم أبو بكر وعمر، فهاباه أن يكلماه)[4]،

---

1 (?) صحيح مسلم- كتاب صلاة المسافرين- باب 47-الحديث 817 (شرح النووي 3/346).

2 (?) صحيح البخاري- الحديث 525- ورواه أحمد 5/402 واللفظ له.

3 (?) صحيح سنن الترمذي 3/91- الحديث 2560/3433 (حسن صحيح).

4 (?) صحيح البخاري الحديث 6051- ورواه أحمد 2/234 واللفظ له.

وكان رسول الله استحثَّهم على السؤال، فقال: (سلوني، فهاهبوه أن يسألوه)[1]، فأرسل جبريل على صورة آدمي ليسأله, ولكي يتعلموا دينهم.

ومن احترام العلماء عدم الخوض معهم في نوادر المسائل، فقد نهى رسول الله عن الغلوطات، قال الأوزاعي: (الغلوطات شداد المسائل وصعابها)[2]، وقد ورد في الحديث الصحيح: «**لا تَعَلَّموا العلم لتُهَابوا به العلماء، أو تماروا به السفهاء، ولا لتجزئوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**» [3]، فليحذر الذين يسألون ليجادلوا، أو ليختبروا، لا ليتعلموا. فإن شأن أمة محمد التوقير والإجلال للعلم وأهله, و«**ليس منا مَن لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**» [4].

وكما وجب الاحترام للعالِم، فإن للمتعلم حقَّه من التوقير والإكرام، يروي أحمد في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله أنزلهم ضيوفا على الأنصار: «فلما أن أصبحوا»، «**قال: كيف رأيتم كرامة**

---

1 (?) صحيح مسلم -كتاب الإيمان-باب1-الحديث7-10(شرح النووي1/278).

2 (?) مسند أحمد 5/435.

3 (?) صحيح الجامع- الحديث7370 (صحيح).

4 (?) صحيح الجامع- الحديث 5443(حسن).

إخوانكم لكم، وضيافتهم إياكم؟»
«قالوا: خير إخوان: ألانوا فُرُشَنا، وأطابوا مَطْعَمنا، وباتوا وأصبحوا يُعلِّمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ» [1]، وأوضح من ذلك ما جاء في الحديث الحسن:
«سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصية رسول الله، وأفتوهم» [2]، فليستوصِ العلماء بطلابِهم خيرًا، فإن ذلك يزيد المتعلِّمين توقيرًا وتقديرًا لمربِّيهم ومعلِّميهم.

وإن من أحوج ما ينبغي التذكيرُ به احترام ذوي سابقة الخير، فقد كان من وصية عمر ؓ - قبل وفاته -: (أُوصِي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرًا؛ أن يعرف لهم حقَّهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا - الذين تبَّوؤا الدار والإيمان - أن يقبلَ من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم)[3]، فتجاوز عن زلَّة مَن سبقوك في ميدان الدعوة والجهاد، واحفظ لهم قدرهم ولا تنسَ لهم فضلهم.

يروي أنس أن جرير بن عبد الله كان يخدمه مع أنه أكبر منه سنًّا؛ لأن جريرًا هذا

1 (?) مسند أحمد 3/432.
2 (?) صحيح الجامع- الحديث3651 (حسن).
3 (?) صحيح البخاري- كتاب الجنائز- باب 96- الحديث 1392 (الفتح 3/256).

لم ينسَ إكرام الأنصار لرسول الله ﷺ، فقال: (لا أجد أحدًا من الأنصار إلا أكرمته)[1]، ويروي أحمد أن رسول الله ﷺ قال في خطبة: «**وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[2]، وحين يتربَّى أبناء الأمة على إكرام ذوي السبق في الخيرات، والأقدمية في خدمة الإسلام، عندئذٍ يعم الوفاء بين الأجيال.

ومن صور الاحترام المحمودة إكرام الصغير لمن هو أكبر منه سنًّا، أو أكثر منه فضلًا, فإن ابن عمر لما عرف جواب سؤال رسول الله ﷺ عن الشجرة التي تشبه المسلم لم يُجب، يقول: (فأردت أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فسكتُّ)[3]، وفي حديث صحيح: «**البركة مع أكابركم**»[4]، والكبير في قومه لا يليق أن يقابل بغير الإكرام جاء في الحديث الحسن: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[5].

---

1 (?) صحيح البخاري- كتاب الجهاد- باب 71- الحديث 2888 (الفتح 6/82).
2 (?) مسند أحمد 3/500.
3 (?) صحيح البخاري -كتاب العلم- باب 14- الحديث 72.
4 (?) صحيح الجامع- الحديث 2884 (صحيح).
5 (?) صحيح سنن ابن ماجه 2/303 -الحديث 2991/3712 (حسن).

ومن كرمِ المؤمن احترامُه لمن سبقَ أن أحسن إليه، فإن رسول الله ﷺ لم ينسَ لبعضِ المشركين ما كان لهم من دور في الذبِّ عنه وعن دعوته، حتى العرب في جاهليتهم كان من الأخلاق المحمودة لديهم: الوفاء والاحترام لمن أحسن إليهم، فقد روي أن رجلًا من المشركين مثل عروة بن مسعود لما أغلظ له أبو بكر القول في مفاوضات صلح الحُدَيْبية، لم يجبه بشيء؛ لما لأبي بكر عليه من جميل سابق لم يكافئه عليه بعد، فلذلك قال: (أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك)[1]، وفي حديث صحيح: **«من صنع إليكم معروفًا فكافئوه»** [2] وأدنى ما تُكافِئ به المحسن إليك أن توقره وتحترمه.

وكل مؤمن حريٌّ بالاحترام فلا يُقَام من مجلسه ليجلس غيره، وتجب ضيافته، وتشرع مشاورته، ويُشكر على المعروف، وتُؤَدَّى إليه حقوقه غير مُتَعْتع، ونقابله بطلاقة الوجه، وندخل السرور إلى قلبه، والإنسان بطبعه يحب أن يقابل بالاحترام والإكرام، ويطلب من ربه أن يكرمه. جاء في دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهم زِدْنا ولا**

---

1 (?) مسند أحمد 4/324.

2 (?) صحيح سنن أبي داود 1/314- الحديث 1486/1672.

تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطِنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا» [1]، ألا خابت أمة لا تتبادل خلق الاحترام والتوقير، و**«حسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»** [2].

إن من كان في نفسه حقيرًا قد لا يقابل الآخرين بالاحترام، والإكرام، والذي يحترم نفسه يُتوقع من مثله أن يحترم الآخرين المستحقِّين للاحترام، وفي موقف أبي سفيان في جاهليته درسٌ لأصحاب الجاهليات، ولكثير من المسلمين في احترام النفس. إذا أبت عليه نفسه أن يشهد أمام هرقل وأمام الوفد المرافق له من قومه شهادة كاذبة في حق رسول الله ، وفي رواية ابن إسحاق يعلل ذلك، فيقول: (فوالله لو قد كذبت ما ردوا عليّ. ولكني كنت امرءًا سيدًا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبتُه - أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه)[3].

وأحيانًا يكون الاحترام الشكلي حتى مع من لا يستحق الاحترام لمصلحة شرعية

---

1 (?) صحيح سنن أبي داود 1/314- الحديث 1486/1672.

2 (?) صحيح مسلم- الحديث 2564- ورواه أحمد 3/491 واللقظ له.

3 (?) عن فتح الباري1/35.

كما كان من مخاطبة رسول الله لهرقل بـ(عظيم الروم).

يقول ابن حجر: (لم يُخْلِه من إكرام لمصلحة التألّف)[1]، وكثيرًا ما يحتاج المسلمون للتعامل بالاحترام والتوقير لمصلحة وحدة الصف وتوفير الجهود، وتأليف القلوب، وإزالة الدَّخَن، وإغاظة العدو، وبقدر ما يحترم بعضنا بعضًا نكون في نظر الناس محترمين.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- ميزان احترام المرء بقدر حظه من الصلاح.
- **من صور الاحترام للعالم:**
  - إجلاله والهَيْبة منه.
  - إقلال الأسئلة معه.
  - عدم تعنيتِه بالغلوطات.
- احترام العالم لطالب العلم بإكرامه.
- احترام صاحب السبق بالخيرات علامة وفاء.
- احترام الصغير للكبير.
- احترام من أحسن إليك.
- كل مؤمن حري بالاحترام.
- من يحترم نفسه يحترم الآخرين.
- احترام من لا ينبغي لمصلحة شرعية.

---

1 (?) عن فتح الباري1/38.

- التعامل بالاحترام لمصلحة وحدة الصف.

****

الفصل الرابع
الإحسان

«وأحسِنْ كما أحسَن الله إليك».

إن دِينًا يفرض على أتباعه (الإحسان) في كل شيء، لا يرتضي من أتباعه أن يألفوا الإساءة أو أن يمارسوها، فما يدعو إليه

دينُنا أسمى وأرفع من ممارساتنا اليومية الخاطئة التي نشوه بها الصورة العملية لأخلاق هذا الدين.

منذ الخطوة الأولى على بوَّابة الإسلام، نحن مطالَبون أن نُحسِن إسلامنا لتضاعف أجورنا، فقد روى البخاري «**إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها**»[1]، بل إن رُكام الجاهلية الذي يثقل كاهل حديث الهداية لا خلاص منه إلا بصدق التوبة وإحسان العمل؛ ولذلك يقول : «**مَن أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[2].

الإحسان إتقان للعمل، وتحسين للأداء، وحسن في العطاء يعمُّ مظاهر الحياة الرجل المحسن حقًّا؛ فإن نظرت إلى أخلاقه وجدت خلقه حسنًا، وإن أحبكم وأقربكم إلى رسول الله «**أحاسنكم أخلاقًا**»[3]، ولذلك قال الفُضَيل بن عِياض: (لأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيِّئ الخلق)[4]؟

---

[1] (?) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب 31 - الحديث 42.
[2] (?) صحيح البخاري - كتاب المرتدين - باب 1 - الحديث 6921.
[3] (?) صحيح سنن الترمذي 2/196 الحديث 1641 (صحيح).
[4] (?) إحياء علوم الدين 3/45.

وإن نظرت إلى الجميع أعمال المحسن وجدت الإحسان فيها غالبًا، ولذلك أخبر رسول الله أن من خير الناس «**مَن طال عمره وحسن عمله**» [1]؛ لأن كل زيادة في العمر تغدو لديه زيادة في الأجر والخير.

إن الحياة كلها مجال للترقي في مدارج الإحسان؛ ولذلك كان النهي عن تمني الموت معللًا بما جاء في رواية البخاري: «**لا يتمنَّى أحدكم الموت؛ إما محسنًا فلعله يزداد، وإما مسيئًا فلعله يستعتب**» [2]، فيسوقه الإحسان إلى التوبة ومحاسبة النفس قبل قدوم الأجل، وحتى صورة القتلة والذبحة - تلك الصورة القاسية بطبيعتها يمكن إشباعها بنفحة إحسان: «**وليحدَّ أحدُكم شفرتَه وليُرحْ ذبيحته**» [3].

ويجمَعُ الغزالي أصول الأخلاق الحسنة في أربعة أخلاق أساسية (الحكمة والشجاعة والعفة والعدل)، فيقول: (في الباطن أربعة أركان لا بدَّ من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق... وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون

---

[1] (?) مسند أحمد 5/40.
[2] (?) صحيح البخاري - كتاب التمني - باب 6 - الحديث 7235.
[3] (?) صحيح مسلم - كتاب الصيد - باب 11 - الحديث 1955.

بين الخلق ملكًا مطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال)[1]، فمَن سعى إلى أستاذية العالم لقيادة البشرية فلابد أن يكون مؤهَّلًا بالإحسان في أهم الأخلاق.

ويربط الغزالي في عَلاقة التأثير والتأثر بين حسن الباطن بالطبع، وحسن الظاهر بالتطبع ليصوغ من ذلك منهجًا تربويًّا في إصلاح النفس وترويضها نحو الأحسن، فيقول: (الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلُّف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً لتصير طبعًا انتهاءً، فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح... وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب)[2].

والصلاة نفسها وسيلة من وسائل غرس الإحسان في النفوس؛ لأنها تنهَى عن الفحشاء والمنكر ويدعو المؤمن فيها بالدعاء المأثور: **«اللهم اهدِني لأحسن الأخلاق لا يَهْدي لأحسنِها إلا أنت، واصرف عني سيِّئها لا يصرف عني سيِّئها إلا أنت»** [3].

---

[1](?) إحياء علوم الدين 3/47.
[2](?) إحياء علوم الدين 3/51.
[3](?) صحيح مسلم - كتاب المسافرين - باب 26 - الحديث 771.

وساحة الجهاد فرصة من فرص الارتقاء بالخلق وتهذيب الطباع والاستزادة في الإحسان، فقد جاء في سنن ابن ماجه: **«يا أكثم، اغزُ مع غير قومك يحسن خلقك وتكرَّم على رفقائك»** [1]، وربما كان الخروج من التقوقع على النفس، والانخراط مع قوم آخرين في سبيل الله، فرصة للتأثر بخير ما عندهم، وتحسين الخلق بالتأسي بأفضل ما يظهر منهم، فالرفقة القصيرة غالبًا تُبدِي أحسن ما لدى الآخرين وتستر ما وراء ذلك من عيوب يظهرها طول العشرة.

ومن أسمى صور الإحسان - وهنيئًا لمن يصل إليها - أن تقابل الإساءة بالإحسان، وأن تكون مقتديًا بكل امرئ بخير ما فيه من خصال، روى البخاري عن عثمان بن عفان قوله: (فإن أحسن الناس فأحسن معهم. وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم)[2].

وتربية القرآن تُنشِئ في نفس المؤمن صورًا من الإحسان؛ لأنه مخاطب بالتأمل فيما أحسن الله إليه من النعم الغامرة، ومطالب بالإحسان إلى الخلق بمثل ذلك:

---

[1] (?) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه 2/118: (إسناده ضعيف، وله شاهد في صحيح ابن حبان وأبي داود والترمذي. وقال: حسن غريب).

[2] (?) صحيح البخاري - كتاب الآذان - باب 56 - الحديث 695 (موقوف على عثمان).

{**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**}
[القصص: 77]، وكم في القرآن من
المرغبات للمرء في أن يحسن: لينال محبة
الله وليضمن معية التأييد، وعدم ضياع
الأجر، وقرب الرحمة منه، وإيتاء الحكم
والعلم جزاءً على إحسانه، وله في الآخرة
الحسنى وزيادة، والسلام، وما يشاء[1]:

وكم من مجالات الإحسان أمام الداعية!
فإن أراد الدعوة فبالحكمة والموعظة
الحسنة، وإن أراد القول فمَن أحسن منه
قولًا؟! وهو الذي يقول للناس حسنًا، وإن
أمر فبالعدل والإحسان، وهو الذي يأمر
الناس أن يقولوا التي هي أحسن، وإن دفع
مخالفيه أو جادلهم فبالتي هي أحسن، وهو
يتقلب في صور الإحسان عاملًا بها وداعيًا
إليها.

وقد يجد المرء نفسه في حالات الضعف
مائلًا عن الإحسان إلى صور لا تليق
بالمحسنين؛ كأن يصبح استماعه للمواعظ
تتبعًا للهفوات، وتسقطًا للزلات، بينما كان
من الذين {**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ**} [الزمر: 18]، وأخطر أمراض
الحائدين عن الإحسان أنهم يسيئون ومع

---

[1] (?) إشارة لقوله تعالى: {**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**} [يونس: 26] {**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**} [الأعراف: 56] {**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**} [الزمر: 34].

ذلك {**يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**} [الكهف: 104]؛ ذلك أن الواحد منهم {**زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**} [فاطر: 8] بسبب انقلاب الموازين لديه وعدم تقبله للنصح وبسبب غلبة الهوى على الرابطة الإيمانية.

فاحذَر أن تكون من أولئك الظالمين لأنفسهم البعدين عن رحمة الله: {**إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [النمل: 11] فاجعل الله غايتك، واستزِدْ من الإحسان يُسدِّد الله خطاك، ويكن عونك على من عاداك {**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**} [العنكبوت: 69]، ووعد الله باق، وسنته مع المحسنين ماضية.

خلاص هذا الفصل وعناصره:

- يدعونا ديننا إلى الإحسان.
- من صور الإحسان (إحسان الإسلام بصدق التوبة).
- إحسان العمل بإتقانه.
- إحسان الخلق.
- إحسان اغتنام الحياة.
- الإحسان إلى الذبيحة.
- إحسان الباطن والظاهر.

- الدعاء عون على الإحسان.
- الجهاد يعين على الإحسان.
- أسمى صور الإحسان بمقابلة الإساءة بالحسنى.
- مجالات الدعوة كلها إحسان.
- من أمراض الذين لا يحرصون على الإحسان.
- عمى بصيرة المسيء يريه الإساءة إحسانًا.
- استحقاق الرحمة بالإحسان بعد الإساءة.
- المحسن مؤيد بالعون من الله.

****

الفصل الخامس
مكافأة المحسن

«مَن أتى إليكم معروفًا فكافئوه».

إنه لمن القبيح أن ينتظر المُحسِن من
الناس جزاءً أو شكرًا، وأقبح منه اللئيم

الكنود الذي، لا يستشعر فضل المحسن إليه ولا يقابله بالحسنى، وأشد قبحًا من قابل الإحسان بالإساءة والإكرام بالجحود.

وإن مكافأة المحسن خُلق فطري ينشأ من خلق الوفاء، إذ أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، والمؤمن المستقيم لا يكون شاكرًا لله حتى يكون معترفًا بالفضل لأهل الفضل، وفي ذلك يقول ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[1]، وفي رواية أخرى: «**إن أشكر الناس لله عز وجل أشكرهم للناس**»[2]، وبهذا نرى أن أخلاق المؤمن لا تكتمل بحسن علاقته بربه فحسب وإنما لا بدَّ أن يكون على نفس المستوى من الأخلاق في التعامل مع الناس.

وليس المؤمن بالجشع الذي لا يهزُّه إلا فيض الإكرام ومزيد الإنعام، بل إن نفحة من الإحسان كافية لأن تُثيرَ فيه دواعي الشكر والمكافأة، وقد وضَّح رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: «**مَن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير**»[3].

والشكر اللساني أقل ما يُقدِّمه المرء مكافأة لمن أحسن إليه ووفاءً لمن وقف

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود 3/913 - الحديث 4026 (صحيح).
[2] (?) مسند أحمد 5/212.
[3] (?) مسند أحمد 4/278.

بجانبه، لكيلا يتعلَّم أبناء الأمة الكفران والجحود، ولئلا يتخلَّقوا بنكران الجميل ونسيان المعروف، وحتى لا تموتَ المروءة في الناس، ولذلك يقول ﷺ: «**ومَن أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه**»[1].

ولكي تبقى دافعيةُ الإحسان قائمةً بين الناس، فإن البشر يُؤثِّر فيهم المكافأة على إحسانهم، ومن صور المكافأة المقابلة بالمثل، أو الدعاء لصاحب المعروف، أو الثناء على فعله: «**ومَن لم يجد فليثن؛ فإن مَن أثنى فقد شكر ومَن كتم فقد كفر**»[2]، ومقابلة إحسان الناس ببرود ولا مبالاة يقتل فيهم المبادرة للإحسان، ويضعف عندهم التفكير في الآخرين، ويقتل المروءة والنجدة والنخوة، ويفشي السلبية والأثرة؛ لأن من طبيعة الإنسان أن تقوى اندفاعته بالشكر، وإن كان الأصل فيه ألا يبتغي شكرًا ولا جزاءً.

وحين ظنَّ المهاجرون أن الأنصار ذهبوا بالأجر كلِّه لما جادت به نفوسهم من الإنفاق على المهاجرين بين لهم رسول الله

[1] (?) مسند أحمد 2/68 وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وصحيح سنن النسائي.
[2] (?) صحيح سنن الترمذي برقم 1656 (حسن) وهو في صحيح سنن أبي داود برقم 4028.

 بابًا من الخير يقربهم من أجر الأنصار، عن أنس أن المهاجرين قالوا: «**يا رسول الله، ذهبت الأنصار بالأجر كله، قال: لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم**»[1]، فعلمهم أن يكافئوا إحسان المحسن بالدعاء له، أو بالثناء عليه، وليس أمام فقير من وسيلة لمكافأة المحسن غير هاتين.

وقد كان من خُلُق رسول الله أنه «كان يقبَل الهدية ويُثِيب عليها»[2]، وذلك ضمن الاستطاعة؛ فإذا غدا التهادي نوعًا من التكلف والتقاليد الاجتماعية المرهقة، أو أصبح المهدي يمنُّ أو يتعب على مَن لا يقدر على مكافأته فقد خرجت هذه الأخلاق عن حدِّ الحسن، ودخلت في حيِّز المادية وعدم الإعذار وعدم خلوص العمل بانتظار الجزاء عليه، وهذا من مفاسد التعاملات الاجتماعية حين تفقد الروح الشرعية وإخلاص القصد.

وحين اقترض رسول الله من عبد الله بن أبي رَبيعة المخزومي قبل حُنَين ردَّ إليه القرض بعد الغزوة، وقال له: «**بارَك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء**

---

[1] (?) صحيح سنن أبي داود 3/913 - الحديث 4027 (صحيح).
[2] (?) صحيح الجامع برقم 4999 (صحيح).

السلف الوفاء والحمد»[1]، وكلمة شكر وعبارة حمد لا يخسر قائلها شيئًا، ولا تُكلِّفه جهدًا، ولكنها تعود عليه بكسب ود المحسن، وائتلاف قلبه، وتحريضه على مزيد من الخير.

وإن سيدنا موسى عليه السلام حين سقى للمرأتين، ثم تولى إلى الظل لم يلبث كثيرًا حتى لقي جزاء إحسانه من والد المرأتين، الذي أوتي الحكمة، ويدرك ضرورة مكافأة المحسن، فجاءت إحداهما تقول: {**...إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا...**} [القصص: 25]، وإن عُروة بن مسعود - رغم شركه - حين أغلظ له أبو بكر بكلمة قاسية في مفاوضات صلح الحديبية لم يزد في تعليقه على كلمة أبي بكر أكثر من قوله: «أما والله، لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها»[2]، واعتبر إساءة أبي بكر إليه مغفورة بسابق إحسانه عليه. ولعل هذه الاعتبارات تشيع وتحيا في معاملات المسلمين اليوم.

ولقد كانت المكافأة بالسوء مستنكرة حتى مع البهائم؛ إذ حينما فرَّت امرأة من المسلمين من العدو على ناقة مسلوبة

---

1 (?) مسند أحمد 4/36 ورواه النسائي وابن ماجه وابن السني وسنده جيد (بلوغ الأماني 15/84).

2 (?) مسند أحمد 4/324.

كانت لرسول الله نذرت إن وصلت إلى المدينة ناجية أن تنحرها، فلما ذُكر ذلك لرسول الله قال: «**بئسما جزيتِها**»[1]، ومُنعت من نحرها لهذا المعنى ولعدم جواز نذرها بما لا تملك.

وللمحسنين الذين يلقون الإساءة بدل الإحسان عزاء في أن الله ناصر لهم كما جاء في قصة الصحابي الذي جاء يشكو إلى رسول الله قائلًا: «إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم - أي بمثل إساءتهم -» «**قال: لا، إذًا تتركون جميعًا، ولكن خذ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك من الله ظهير ما كنت عليه**» [2]، والكريم لا ينسى الفضل لأهله، ولا يجازي الإحسان بالإساءة، وقد كان من الأجدر بنا ونحن نتحدث عن أخلاق المؤمنين أن نتكلم عن العفو، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فذلك هو المقام اللائق بالمؤمنين حقًّا، وحينما استفسر صحابي رسول الله فقال: «يا رسول الله الرجل أمرّ به فلا يقريني ولا يضيفني ثم يمرُّ بي أفأجزيه؟ - أي بمثل بخله علي -» «**قال: لا، بل**

---

1 (?) مسند أحمد 4/429.
2 (?) مسند أحمد 2/208.

أقره» [3]، وهكذا يكون أصحاب النفوس العالية. يحيون المعروف بين الناس فلا يدعون محسنًا إلا ويكافئونه، ولا يدعون مسيئًا إلا ويقابلونه بالإحسان، ولا يمكن أن يكون المؤمن جحودًا للمعروف ولا كفورًا للعشير.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- قبح الجحود واللؤم.
- مكافأة المحسن نوع من الوفاء، وصورة من الشكر لله.
- من صور مكافأة المحسن:
  - الشكر اللساني على قليل الإحسان وكثيره.
  - مقابلة الإحسان بالإحسان.
  - الدعاء للمحسن.
  - الثناء على المحسن.
  - التهادي.
  - الوفاء بالحقوق.
- جزاء المحسن في الدنيا.
- من حق المحسن التغاضي عن إساءته.
- المكافأة بالشر مستقبحة حتى مع البهائم.

---

3 (?) أخرجه الترمذي برقم 2007 وأحمد 3/473 وصححه الأرناؤوط (جامع الأصول 7/57).

- الثابت على الإحسان إلى المسيء ينصره الله.
- أسمى صور المكافأة الإحسان إلى المسيء.

****

الفصل السادس
الكرم

«إن الله كريم يحب الكرماء».
بين الكرم والتضحية ارتباطٌ وثيق وصلة قوية؛ فالمجاهد يَجُود بنفسه - وهذا غاية

الجود - والمتحرِّر من شهوة المال، الباسط يده في أبواب البر والإحسان، قد يكون أقدر على الجهاد، لَما يُؤصِّله الكر في النفس من معاني التضحية والإيثار.

ولأن الكرم له مجالاته المشروعة، فإن بذل المال في غيرها قد لا يكون كرمًا، ولذلك يقول ابن حجر: (والجود في الشرع إعطاءُ ما ينبغي لمن ينبغي وهو أعم من الصدقة)[1]، وضده الشح الذي يعني البخل مع مزيد من الحرص.

وصاحب الكرم لا بدَّ أن يكون شديد التوكل، عظيم الزهد، قوي اليقين. ولذلك فإن الكرم مرتبط بالإيمان ظاهره كرم اليد ودافعه كرم النفس، وقد وصف رسول الله المؤمن بقوله: **«المؤمن غرٌّ كريم، والفاجر خب لئيم»**[2]، وفي حديث آخر: **«ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا»**[3].

وأعظم صور الكرم ما يكون مع الفقر والحاجة وقلة ذات اليد، وهذه كانت من أخلاق العرب في الجاهلية، وأهل الإيمان بها أولى. وقد ورد أن أسماء بنت أبي بكر -

1 (?) فتح الباري 1/31 من شرح الباب 5 من كتاب الوحي.

2 (?) صحيح سنن الترمذي -أبواب البر- باب 14- الحديث 1599/2047 (حسن).

3 (?) صحيح سنن النسائي -كتاب الجهاد- باب 8- الحديث 2913 (صحيح).

رضي الله عنها - قالت لرسول الله : «إنه ليس لي من شيء إلا ما أدخل على الزبير أفأعطي؟»، قال: **«نعم، لا تُوكِي فيُوكى عليك»** [(1)]، وعلى قلة ما يدخل عليها أشار عليها بالعطاء وبعدم الإحصاء ليُبارك في الرزق ولمزيد من التوكُّل.

وجيء إلى رسول الله ذات يوم بلحمٍ، أتدرون ممن كان، كان من بَريرة الفقيرة ومن صدقة قدَّمت إليها: **«قال: ما هذا؟»** «قالوا: شيء تُصُدِّق به على بَريرة»، **«فقال: هو لها صدقة ولنا هدية»** [(2)]، فقد كان الواحد منهم لا يملك إلا قوت يومه ويكون كريمًا، وحين سئل رسول الله : أي الصدقة أفضل؟ **«قال:جهد المُقلِّ»** [(3)].

إن دينَنا بماله من أهداف عظيمة ليحتاج إلى النفوس الكريمة التي يفيض خيرها على الأقربين، وينصب في الإعداد والجهاد **«أفضل الدينار: دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله. ودينار**

---

1 (?) صحيح سنن الترمذي -أبواب البر- باب 40- الحديث 1598/2043 (حسن).

2 (?) صحيح سنن أبي داود -كتاب الزكاة- باب 31- الحديث 1457/1655 (حسن).

3 (?) صحيح سنن أبي داود -كتاب الزكاة- باب 41- الحديث 1471/1677 (حسن).

ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله» [1].

قد تنطلق نفحات الكرم من فاقد الأمل بالدنيا حين يشرف على الموت، ولكن الكرم الحقيقي لصاحب قوة البدن، وطول الأمل، ودواعي الحرص محيطة به من كل جانب، لذلك حين سئل رسول الله : أي الصدقة أعظم أجرًا؟ «**قال: أن تَصَّدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى»**[2].

قال ابن حجر: (ولَمَّا كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالًّا على صحة القصد وقوة الرغبة في القربة كان ذلك أفضل من غيره، وليس المراد أن نفس الشح هو السبب في هذه الأفضلية)[3].

من الصفات المميزة لمن تأصلت فيه خصلة الكرم أنه لا يرد أحدًا يسأله وقد كان هذا الحال رسول الله (ما سئل عن شيء قط فقال: لا)[4]، حتى حين أُهدِيت إليه بُرْدَة وكان محتاجًا إليها رآها عليه رجل من

1 (?) صحيح سنن الترمذي -أبواب البر- باب 42- الحديث 1601/2049 (حسن).
2 (?) صحيح البخاري -كتاب الزكاة- باب 11- الحديث.
3 (?) فتح الباري 3/285.
4 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب- باب 39- الحديث 6034.

الصحابة، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسُنِيها.

قال: نعم، فلام الصحابة ذلك الرجل قائلين له: (أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوتُ بركتَها حين لبِسها النبي لعلِّي أكفَّن فيها)[1].

والكرم من صفات الرب سبحانه وتعالى، يقول رسول الله : «**إن ربكم حَيِيٌّ كريم، يستَحْيِي من عبده أن يرفع إليه يديه؛ فيردهما صِفْرًا، (أو قال خائبتين)**» [2].

وعباد الله الصالحون يمنعهم حياؤهم وكرمهم من رد حاجة العبد من عباد الله.

ومن أوجب الكرم معاملة الكرام بما يستحقون كما في الحديث: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**» [3]، وقد حث رسول الله على الضيافة - كمظهر من مظاهر الكرم - بتحريك المشاعر الإيمانية: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه..** » [4]، ومَن كانت المادة

---

1 (?) نفس المرجع السابق -الحديث 6036.

2 (?) صحيح سنن ابن ماجه -كتاب الدعاء- باب 13- الحديث 3117/3865 (صحيح).

3 (?) صحيح الجامع - الحديث 269 (حسن).

4 (?) صحيح سنن الترمذي -أبواب البر- باب 43- الحديث 1602/2050 (حسن).

قد التَهَمَتْه واستولت على قلبه وجعلته يعد ويُحصِي ويُحجِم عن المكارم استبقاء لما في الجيب وحذرًا مما يأتي به الغيب فلا خير فيه يقول ﷺ: «**لا خير فيمن لا يضيف**»[1].

وقد كانت السمعة والصيت عند أبناء الجاهلية عرضًا يخشون عليه أن يمسّ، فيتحدث الناس عنهم بما لا يحبون، فكانوا يهينون أموالهم حفاظًا على سمعتهم، وعزّز الإسلام خيار الأخلاق فقال ﷺ: «**ذُبُّوا عن أعراضكم بأموالكم**»[2]، وأي دناءة يصل إليها المرء حين يؤثر المال الوفير المحفوظ بالشح والبخل والتقتير؟!

الناس بفطرتهم لا يُحِبُّون الشحيح البخيل، وإذا لم تتحقَّق المحبة لم تنفتح القلوب للاستجابة والاستقبال، وقد ورد بهذا المعنى: (السَّخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولَجَهِل سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل)[3].

---

1 (?) صحيح الجامع -الحديث 7492 (صحيح) وهو عند أحمد 4/155.

2 (?) صحيح الجامع -الحديث 3426 (صحيح).

3 (?) أخرجه الترمذي. وقال المناوي: روي بأسانيد ضعيفة يقوي بعضها بعضًا. قال الأرناؤوط: ومعنى الحديث صحيح (جامع

ومما يُعين المرء على اكتساب صفة الكرم وتأصيلها في نفسه أن يستحضر صفة ربه - عز وجل -: **«إن الله تعالى جوادٌ يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق ويكره سَفاسفها»** [1]**،«إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجَوَدة»** [2]،**«إن الله كريم يحب الكرم»** [3]، ومَن لا يحب أن يكون كما يحب الله؟!

وإن في تأمُّل الحياة العملية للرسول القدوة صلوات الله وسلامته عليه ما يُفجِّر معاني الجود والكرم في قلب المتبع المحب. جاء في الحديث (كان النبي أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس)[4]، كما ورد بمثل هذا المعنى: (كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة)[5]، وجوده هذا كان سبب إيمان الكثيرين، ومحبة الكثيرين، واحترام العدو والصديق، وما على حملة الدعوة إلا أن تكون الدنيا أحقرَ ما يكون

الأصول 5/3 -الحديث 2979).

1 (?) صحيح الجامع - الحديث 1744 (صحيح) .

2 (?) صحيح الجامع - الحديث 1800 (صحيح) .

3 (?) صحيح الجامع - الحديث 1801 (صحيح) .

4 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب- باب 39- الحديث 6033.

5 (?) صحيح البخاري -كتاب بدء الوحي-باب 5- الحديث 6.

في أعينهم لتفيض بها أيديهم، وليعم الخير من حولهم.

وللشيطان نصيب كبير في قلب البخيل الشحيح، ولذلك شرع لنا الاستعاذة بالله من هذه الصفات الشيطانية، فقد كان رسول الله يتعوذ دبر كل صلاة من: **«اللّهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن.. »** [1]، ولعل السر في تلاحق وصف البخل والجبن أن من عزَّ عليه ماله أن يصرفه في وجوه الخير فبخل، طبيعي من مثله أن تعزَّ عليه روحه أن يُزهِقها في سبيل الله فيجبن، والجود بالنفس أسمى غاية الجود.

وإذا افتقدت الأمة الجود بالمال والجود بالنفس، فقد سارت في طريق الهلاك لما جاء في الحديث: **«إياكم والشح، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخِلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»**[2].

وقد حذر رسول الله من صفات شرار الخلق في آخر الزمان وكان من صفاتهم الشح: **«يتقارب الزمان، وينقص**

---

1 (?) صحيح سنن النسائي -كتاب الاستعاذة- باب 27- الحديث 5059 (صحيح).

2 (?) صحيح سنن أبي داود -كتاب الزكاة- باب 47- الحديث 1489/1698(صحيح).

العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج» [1]؛ ولأن الكرم صفة قلبية تنعكسُ على السلوك، فإن المريض بالشح مريض بالقلب يقعد به بخله عن البناء، ويحجزه الشح عن المبادرة، ويغدو يأخذ ولا يعطي، وماذا بعد ذلك من شر؟ لذلك يقول رسول الله : «**شرُّ ما في رجل شحٌّ هالع، وجبن خالع»** [2].

وقد عدّ رسول الله الموبقات فذكر منها «**الشرك بالله والشح»** [3]، وعدّ المهلكات، فذكر فيها: «**هوى متبع، وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه»** [4]، الجيل الأول تميز بزهده ويقينه فصعد؛ فما هي سنن السقوط والهلاك؟ يقول : «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلِك آخرها بالبخل والأمل»** [5]، قبض اليد والإحجام عن المبادرة والامتناع عن تقديم أي جهد، ثم بعد كل ذلك بناء الأحلام الكبيرة والآمال العريضة، ذلكم تشخيص هلاك الدنيا فهل صرنا إليه؟

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب- باب 39- الحديث 6037.

2 (?) صحيح سنن أبي داود -كتاب الجهاد باب 22 - الحديث 2129 / 2511 (صحيح).

3 (?) صحيح سنن النسائي -كتاب الوصايا- باب 12- الحديث 3432 (صحيح).

4 (?) صحيح الجامع - الحديث 3039 (حسن).

5 (?) صحيح الجامع - الحديث 3845 (حسن).

أما في الآخرة، فإن الكانز لمال دون أن يؤدي حق الله فيه يخيل له المال يوم القيامة بصورة: «**شجاع أقرع يفرُّ منه صاحبه وهو يتبعه يقول له: هذا كنزك الذي كنت تبخل به**» [1].

إذا لم يكن خلق (الكرم) يميز عامة أبناء الإسلام العاملين لنصرته فلن تجتمع حولهم القلوب ولن يحظوا بالثقة، وحين تكرم النفوس وتتخلص من رق الدنيا، ويصغر في عينها كل متاع تنجذب إليها القلوب، وتعظم في الأنظار، ويتسابق الناس في الجود والكرم لا في الحرص والشح، وعندئذٍ نكون أهلًا للتمكين، بإذن الله.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- الرابط بين الكرم والتضحية.
- ارتباط الكرم بالإيمان.
- من أعظم الكرم جود الفقير وجهد المقل.
- الجهاد لا يكون بلا كرم.
- الكرم الحقيقي مع وجود دواعي الحرص.
- الكريم لا يرد سائلًا.
- البخيل لا خير فيه.
- من صفات ربنا عز وجل أنه كريم.

---

1 (?) صحيح سنن النسائي-كتاب الزكاة- باب 9- الحديث 2302 (صحيح).

- من أوجب الكرم إكرام الكرماء.
- الكرم إهانة للمال وحماية للعِرْض.
- الكريم قريب من الله والناس.
- الله يحب الكرماء.
- القدوة يجب أن يكون كريماً.
- الرابط بين الجبن والبخل.
- الشح مرض قلبي.
- الشح من الموبقات والمهلكات في الدنيا والآخرة.
- الكرم مدعاة للقبول عند الناس والتمكين في الأرض.

****

الفصل السابع
الأمانة

{**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**}
حين تستقيم الفطرة وتسلَم من اتِّباع الهوى تتمثَّل في صاحبها بخلق الأمانة،

وفي تفسير قوله تعالى: {**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**} [الأحزاب:72]، يقول القرطبي (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال)[1]، كما يقول في تفسير قوله تعالى: {**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**} [المؤمنون: 8]، (والأمانة والعهد: يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولًا وفعلًا، وهذا يعمُّ معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيام به) [2].

وحين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي اؤتُمِن أمانته، سواء اؤتمن على قنطار أو دينار؛ لأن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات، وجعل من صفات المُفلِحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم، والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين، وتثق بالقوي الأمين، حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد روي في قصة أهل نجران لما وافقوا على دفع الجزية أنهم

---

1 (?) فتح القدير 4/308 نقلًا عن القرطبي.
2 (?) الجامع لأحكام القرآن 12/73.

قالوا: «**إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا، حقّ أمين**» [1]، وأرسل معهم أبا عبيدة.

إن من أغلى ما يرزقُه الله للعبد، ولا يحزن بعده على أي عَرَض من الدنيا، ما جاء في الحديث: «**أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة مطعم**» [2]، فالأمانة ركن من هذه الأركان الأخلاقية الأربعة، التي لا يعدلُها شيء في الدنيا، بل قد تكون سببًا في إقبال الدنيا على العبد، لما يجده الناس فيه.

والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل منهم يقول لقومه: {**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**} [الشعراء: 107، 125، 143، 162، 178].

وكانت تلك شهادة أعدائهم فيهم، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل، حيث قال هرقل: (سألتُك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة - قال: - وهذه صفة

[1] (?) صحيح البخاري -كتاب المغازي -باب72 -الحديث 4380.
[2] (?) صحيح الجامع -الحديث873 (صحيح).

نبي)[1]، وفي موضع آخر في صحيح البخاري: (وسألتُك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون) [2].

ولئن كانت هذه صفة أصحاب الدعوات فإن أتباعهم كذلك متميزون، ولذلك اقتران تعريف المؤمن بسلوكه المميز، حيث قال ﷺ: «**والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**» [3].

وإذا تمكَّنت صفة الأمانة من صاحبها تعامل بها مع القريب والبعيد، والمسلم، والكافر يقول ابن حجر: (الغدر حرام باتفاق، سواء كان في حق المسلم أو الذمي)[4]، وكذلك حال المؤمن حتى مع مَن عُرف بالخيانة، واشتهر بالغدر كما في الحديث: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**» [5]؛ وذلك لأن خطورة السقوط في الخيانة، وفساد الفطرة بنقض العهد، أشد من مجرد مقابلة الخائن بمثل فعله؛ ولأن السقوط مرة قد

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الشهادات -باب 28 -الحديث 2681.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الجهاد -باب 102 -الحديث 2941.

3 (?) صحيح سنن الترمذي -كتاب الإيمان -باب 12 -الحديث 2118/2775 (حسن صحيح).

4 (?) فتح الباري -من شرح الحديث 3178 من باب 17 من كتاب الجزية.

5 (?) صحيح سنن أبي داود -كتاب البيوع -باب 45 -الحديث 3019/3535 (حسن صحيح).

تستمرئُه النِّفس، وتواصل في منحدرِ الخيانة.

وغدر الكبراء والوجهان وخيانة ذوي الهيئات أفحش وأقبح من انزلاقه العامة، لِمَا يترتَّب على زلة الأوَّلين من مفاسد كبرى.

ويُوضِّح القرطبي هذه المسألة في حديثه عن غدار الأمراء؛ حيث يقول: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره؛ لما في ذلك من المفسدة، فإنهم إذا غدروا وعُلم ذلك منهم، ولم ينبذوا بالعهد على سواء، لم يأمنهم العدو على عهد ولا صلح، فتشتد شوكته، ويعظم ضرره، ويكون ذلك مُنفِّرًا عن الدخول في الدين، وموجبًا لذم أئمة المسلمين، وقد اختلف العلماء هل يُجاهد مع الإمام الغادر؟)[1].

وإذا كانت الخيانة من الوضيع مذمومة، فإنها من الوجيه أكثر قبحًا، وتصل الدناءة بالمرء حين تفسد فطرته إلى حال أهل النار؛ الذين عدّ منهم رسول الله ﷺ:

«والخائن الذي لا يخفى عليه طمع وإن دقّ إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك

---

1 (?) الجامع لأحكام القرآن 8/33 عند تفسير الآية 58 من سورة الأنفال.

ومالك» [1]، وكم تنفطِرُ قلوبنا حين نرى هذه الأوصاف في بعض المسلمين، فيُهرَعون لكل طمع يلوح، ويخونون في سبيله كل وعد مقدس، وكل عِرْض مَصُون.

لا يكفي عديم الأمانة ما يلقاه في الدنيا من مهانة وصغار، وإنما يجدها متمثلة له يوم القيامة عند الصراط؛ لتهوي به من فوق الصراط؛ إلى قعر جهنم؛ لقاء ما ضيّع منها، وفرّط فيها كما في الحديث: **«وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبَتَي الصراط يمينًا وشمالًا»** [2]، وهنيئًا لن قام بحق الأمانة فجرى على الصراط غير هيَّاب ولا وَجِل، والحسرة والندامة - حيث لا تنفع حسرة ولا ندامة - على مَن تساهل فخان، وسقط فغدر؛ لشهوة عارضة، أو لحقد أعمى.

ومن الصور العملية للأمانة: أن تنصح مَن استشارك، وأن تصدق من وثق برأيك، فقد جاء في الحديث: **«المستشار مؤتمن»** [3]، **«ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه»** [4]، وماذا يكون قد بقي فيه من الخير مَن أشار على أخيه بما لا ينفعه، بل ربما بما يضره؟!

---

1 (?) مسند أحمد 4/162. ورواه مسلم أيضًا.
2 (?) صحيح مسلم -كتاب الإيمان -الحديث329.
3 (?) صحيح الجامع -الحديث 6700 (صحيح).
4 (?) صحيح الجامع -الحديث 6068 (حسن).

والمجاهد في أرض المعركة مأمورٌ بالأمانة، ومنهيٌّ عن الغدر والخيانة والغلول: «**لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا**»[1]، والقاعد الذي يخلف المجاهد في أهله بخيرٍ قائمٌ بالأمانة، وإن قصر أو خان وقف له المجاهد يوم القيامة، يأخذ من حسناته ما شاء: «**وما من رجلٍ من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟**»[2]؛ أي: هل تظنُّون أنه يُبقي له من حسناته شيئًا؟

ومن أخطر الأمانات شأنًا حفظ أسرار الناس، وستر عَوْراتهم، وكتمان أحاديث مجالسهم، فقد ورد في الحديث «**المجالس بالأمانة**»[3]، وإن لم يوصِ المتحدِّث بكتمان حديثه الخاص إليك لم يكن لك أن تُشيِّعه إلا بإذنه وعلمه؛ لقوله ﷺ: «**إذا حدّث رجل رجلًا بحديث ثم التفت فهو أمانة**»[4]، وأقل ما في هذه

1 (?) مسند أحمد 1/300 وهو عند مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والموطأ.
2 (?) مسند أحمد 5/352 وعند مسلم برقم 1897 في كتاب الإمارة.
3 (?) صحيح الجامع -الحديث 6678 (حسن).
4 (?) صحيح الجامع -الحديث 486 (حسن).

الأمانة أن ينقله الناقل - حين ينقله - بنصِّه، ولا يُحمِّله ما ليس فيه بتدليس أو تحريف.

ومن الأمانة في العمل إتقانه، وكتمان أسراره، ولذلك ترجم البخاري في كتاب الأحكام (باب: يستحب للكاتب أن يكون أمينًا عاقلًا)، مشيرًا بذلك إلى قول أبي بكر لزيد بن ثابت - رضي الله عنهما - حين أراد أن يستعمله: (إنك رجل شابٌّ عاقل لا نتَّهمك)[1].

ومن مخاطر الأزمان المتأخرة اضطراب الموازين، وفساد القيم، إلى الدرجة التي وصفها رسول الله بقوله: **«سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات؛ يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتَمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطِقُ فيها الرُّوَيْبضة في أمر العامة، قيل وما الرُّوَيْبضة؟ قال: الرجل التافِهُ»** [2].

ومن خشي رسول الله من انتشار الخيانة بعد قرون الخير فقال: **«إن بعدكم قومًا يخونون ولا يُؤتَمَنون»** [3].

ومن ذلك الحين استمرَّ مسلسل السقوط، إلى أن أصبحنا نرى الأمر يوسَّد

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الأحكام -باب 37 -الحديث 7191.

2 (?) صحيح سنن ابن ماجه -كتاب الفتن -باب 24 -الحديث 3261/4036 (صحيح).

3 (?) صحيح البخاري -كتاب الشهادات -بابا 9 -الحديث 2651.

إلى غير أهله، ويُؤتَمن الخائن، ويُخوَّن الأمين، ويغدو الأمناء - حقًّا - ندرةً يُشار إليهم كما جاء في الحديث: «... **فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يُؤدِّي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا»** [1]، ومع نُدْرة هؤلاء الأمناء يُستَبعدن ويُولَّى غيرهم، ويكون ذلك سببًا في تضييع الأمانات - وهو من علامات الساعة - قال رسول الله ﷺ: **«إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة»**، «قال أبو هريرة: كيف إضاعتها يا رسول الله؟» **«قال: إذا أُسنِد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة»**[2]، وفي الفتح: (قال ابن بطَّال: معنى (أُسند الأمر إلى غير أهله): أن الأئمة قد ائتمَنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلَّدوا غير أهل الدين فقد ضيَّعوا الأمانة التي قلّدهم الله تعالى إياها) [3].

ومن اللَّمحات الفقهية لتبويب البخاري أنه استشهد بحديث **«فإذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة»**[4]، في كتاب العلم،

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الرقاق -بابا رفع الأمانة -الحديث 6497.
2 (?) نفس المرجع السابق -الحديث 6496.
3 (?) فتح الباري عند شرح بابا رفع الأمانة من كتاب الرقاق.
4 (?) صحيح البخاري -كتاب العلم -باب 2 -الحديث 59.

ويُعلِّل ابن حجر إيراده في كتاب العلم، فيقول: (ومناسبة هذا المتن لكتاب العلم أن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل، ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط) [1].

الوفاء بحقوق الأمانة من صفات المؤمنين، والإخلال بشيء خصلة من النفاق، ولذلك جاء في صفات المنافق أنه **«إذا ائتمن خان»** [2]، وقال ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دِين لمن لا عهد له»** [3].

صاحب خلق (الأمانة) حريصٌ على أداء واجبه، بعيد عن الغدر والمكر والخيانة، حافظ للعهود، وافٍ بالوعود.

ورسالة عظيمة مثل رسالتنا لا يصلح لحملها والمُضِي بها إلا الأمناء، فهل نرشح أنفسنا لذلك؟

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- تفسير القرطبي للأمانة بأنها تعم وظائف الدين.
- حتى الكافر يميل إلى الأمين.
- الأمانة صفة المؤمن.

---

1 (?) فتح الباري عند شرح باب من سئل علمًا وهو مشتغل.. من كتاب العلم.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الإيمان -باب 24 -الحديث 34.

3 (?) مسند أحمد 3/154. صححه الألباني في صحيح الجامع برقم 7179.

- الأمانة لا يعدلها شيء في الدنيا.
- الأمانة صفة المرسلين.
- أعداء رسول الله شهدوا له بالأمانة.
- أفحش الخيانة ما كان من الأمراء والكبراء.
- الأمانة تقتص من الخائن عند الصراط.

- من صور الأمانة:

- الأمانة في الشورى.
- الأمانة في الجهاد بعدم الغدر أو الغلول.
- أمانة القاعد في حفظ عرض المجاهد.
- الأمانة بحفظ أسرار المجالس.
- الأمانة بإتقان العمل.

- من علامات الساعة:

- تخوين الأمين وائتمان الخائن.
- وتوسيد الأمر إلى غير أهله.
- وندرة الأمناء.
- وتضييع الأمانة باستبعاد أهل الدين وبغلبة الجهل.

- لا يصلح لحمل الدعوة إلا الأمناء.

****

الفصل الثامن
البر

«إن الله تعالى يُوصِيكم بالأقرب فالأقرب».

البر اسم جامع للخير، ويأتي بمعنى الإحسان إلى الوالدين والأقربين، كما يأتي

بمعنى الصلة، وهو في استعمال الشرع: (كلمة جامعة لكل أصناف الخير، ويُراد منه ما هو زائد عن حدود التقوى، فهو مرتبةٌ فوق التقوى، ودون مرتبة الإحسان) [1].

والرجل البارُّ رجل وفِيٌّ عطوفٌ مُخلِص في محبَّته، ويظهر أثر برِّه في تعامله مع والديه، وأقاربه، وجيرانه، وضيوفه، ومعارفه، ومعارف والديه، وأيتام المسلمين. ويتميز سلوك البارّ بالمداومة على الصلة؛ بالزيارة وبشاشة الوجه، والاستمرار في بذل المعروف، والإنفاق على الأرحام والمعارف، والإيثار على النفس.

وقد جعل رسول الله البرَّ في مقابل الإثم في نصوص عديدة، مفسَّرة مرة باطمئنان النفس إلى الحلال الطيب، الذي لا شبهة فيه فقال: **«البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس»** [2]، وفي رواية: **«البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب»** [3]، ووصف ابن حجر النفس البارَّة بأنها: (المطمئنة الموهوبة نورًا، يُفرِّق بين الحق

---

1 (?) البر والصلة -لابن الجوزي -من المقدمة ص (4-5).

2 (?) مسند أحمد 4/194 قال في بلوغ الأماني 19/34: (حسنه السيوطي والنووي).

3 (?) صحيح الجامع -الحديث 2881 (صحيح).

والباطل، والصدق والكذب)[1]، كما فُسِّر البرُّ في السنة بحسن الخلق كقوله ﷺ: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك**»، وقيل في شرحه: (أي التخلُّق بالأخلاق الحسنة مع الخلق والخالق، والمراد هنا المعروف، وهو طلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى، وأنه يحب للناس ما يحب لنفسه)[2].

ولأن درجة البرِّ من أعلى الدرجات، فلا يصل إليها المسلم إلا بعد مجاهدة للنفس، وإيثار للآخرة على علائق الدنيا وزينتها، ولذلك قال تعالى: {**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**} [آل عمران: 92]، حتى لا يكون للقلوب تعلُّق إلا بما عند الله، ولتخلص النفوس لبارئها، وعندئذٍ يعلو مقامها عند الله، ولذلك «**فالناس رجلان: رجل برّ يرتقيّ كريم على الله، وفاجر شقي هّين على الله**»[3]؛ كما جاء في الحديث الصحيح، فالبر تقي كريم على الله، ومن كان كريمًا على الله كان كريمًا على عباده الصالحين والعقلاء، ولذلك يقول بعض الحكماء: لا

---

1 (?) بلوغ الأماني من الفتح الرباني 19/33.
2 (?) بلوغ الأماني من الفتح الرباني 19/33.
3 (?) صحيح سنن الترمذي -كتاب التفسير -سورة 49 -الحديث 2608/3501 (صحيح).

تصادق عاقًّا فإنه لن يَبَرَّك، وقد عقَّ من هو أوجب حقًّا منك عليه.

ومن أوجب البر الإحسان إلى الأقرب فالأقرب، وليس أقرب من الوالدين، وقد أمرنا بالإحسان إليهما، وبمصاحبتهما بالمعروف، وبشكرهما، وبالصبر عليهما، وعدم التضجر منهما، وبالتواضع لهما، وحسن الحديث معهما، والدعاء لهما، وقد جاء في الحديث: **«إن الله يوصيكم بأمهاتكم - ثلاثًا - إن الله تعالى يوصيكم بآبائكم - مرتين - إن الله تعالى يوصيكم بالأقرب فالأقرب»** [1] والهالك من أدرك والديه فلم يبرّهما، وقد دعا رسول الله ﷺ بالذل والهوان على من فاتته فرصة البر بوالديه فقال: **«رغم أنفه. ثم رغم أنفه. ثم رغم أنفه... مَن أدرك والديه عند الكبر: أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»** [2]؛ لأن الحياة فرص، وتفويت الفرصة المتاحة ليس من شأن المؤمن الفَطِن.

وعدّ رسول الله ﷺ من الثلاثة لا يدخلون الجنة **«العاق لوالديه»** [3]، كما

---

[1] (?) صحيح الجامع -الحديث 1924 (صحيح).

[2] (?) أخرجه مسلم في الأدب برقم 2551 (جامع الأصول 1/400 -الحديث 193).

[3] (?) صحيح الجامع 3063 (صحيح) ونصه: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء»**

وصفه في حديث آخر بأنه ممن **«لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا»** [1]، ولا يسلم العاقُّ من عذاب الله حتى في الدنيا، لقوله ﷺ: **«بابان مُعجَّلان عقوبتهما في الدنيا: الغي والعقوق»** [2]، بالإضافة إلى أن العقوق من الكبائر، وكما أنه كبيرةٌ شرعًا، فإنه من أكبر صور الجحود وعدم الوفاء في نظر العقلاء.

وقد جعل الله البر بالوالدين بابًا للفوز برضاه سبحانه، كما في قوله ﷺ: **«رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»** [3].

وهو مَن أحب الأعمال إلى الله **«أحب الأعمال إلى الله: الصلاة لوقتها، ثَم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»** [4].

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن المبالغة في التماس رضا الأم بقوله: **«الزَم رجلها فَثمَّ الجنة»** [5]، وآثر الصحابي أن يُقدِّم

---

1 (?) صحيح الجامع 3065 (حسن) ونصه: **«ثلاثة لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا: عاق، ومنّان، ومكذب بالقدر»**.

2 (?) صحيح الجامع -الحديث 2810 (صحيح).

3 (?) صحيح الجامع -الحديث 3507 (صحيح).

4 (?) صحيح الجامع -الحديث 164 (صحيح).

5 (?) صحيح الجامع -الحديث 1248 (حسن).

خدمة والديه على الجهاد الكفائي، فقال له: **«فيهما فجاهد»** [1]، يعني الوالدين.

وفي قصة الثلاثة الذين حبسهم المطر في غار، واسند عليهم الغار بصخرة كبيرة، مثل بليغ لتنزل رحمة الله وتفريج الكروب، إذا ما صلحت العلاقات المالية، وحفظت الأعراض، واستقرَّت العَلاقات الأُسْرية؛ حيث توسَّل كل منهم بصالح عمله، ومنهم الحريص على رضا والديه والمقدم لهما على أهله وولده، فكانت تنفرج الصخرة كلما دعَوا حتى خرجوا من الغار سالمين[2].

ومن أبلغ البر بالوالدين وأصدقه وأخلصه ما يداوم عليه البارُّ في حضور الوالدين، وغِيبتهما، وفي حياتهما، وبعد موتهما، ومن صور هذا البر إكرام أصدقائهما وأحبابهما، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إن أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يولي الأب»** [3]، وفي رواية أخرى: **«من البر أن تصلَّ صديق أبيك»** [4]، و**«مَن أحب أن يصل أباه في قبره، فليَصِلْ**

---

1 (?) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (جامع الأصول 1/402 الحديث 195).

2 (?) القصة في الصحيحين. وهي في اللؤلؤ والمرجان 3/236 -الحديث 1745.

3 (?) صحيح سنن الترمذي -الحديث 1552/1983 (صحيح) ورواه مسلم بألفاظ مقاربة.

4 (?) صحيح الجامع -الحديث 5901 (صحيح).

إخوان أبيه من بعده» [1]، يقول النووي: (وفي هذا أفضل صلة أصدقاء الأب وإكرامه؛ لكونه بسببه، وتُلحَق به أصدقاء الأم، والأجداد، والمشايخ والزوج والزوجة) [2].

ومن إكرام الأب إكرام العمّ لقوله : **«إن عمّ الرجل صِنْوُ أبيه»** [3]، ومن البر بالأم الإحسان إلى الخالة، فقد ورد أن رجلًا أذنب ذنبًا كبيرًا وتساءل إن كان له توبة؟ فدلَّه رسول الله على بابٍ من البر يُكفِّر عنه ما أذنب، فقال له:**«ألك ولدان؟»** قال: لا، قال: «**فلك خالة؟**»، قال: نعم، قال رسول الله : «**فبِرَّها إذًا**» [4].

وأثر بر الولد يصل إلى والديه، حتى بعد موتهما؛ بدعائه لهما، كما في الحديث: **«أربعٌ مِن عمل الأحياء تجري للأموات: رجل ترك عقبًا صالحًا يدعو له ينفعه دعاؤهم»** [5]، وكم يستبشرُ قلبك حين تعلم أن استغفارك لأبيك المؤمن يرفع درجته في الجنة، ويعجب هو هناك، وفي ذلك يقول رسول الله : **«إن الرجل**

---

1 (?) صحيح الجامع -الحديث 5960 (صحيح).
2 (?) عن بلوغ الأماني 19/41.
3 (?) صحيح الجامع -الحديث 2113 (صحيح).
4 (?) مسند أحمد 2/14. وأخرجه الترمذي والحاكم وابن حبان وصححه الحاكم وأقره الذهبي: (بلوغ الأماني 19/42).
5 (?) صحيح الجامع -الحديث 888 (حسن).

لتُرفع درجته في الجنة، فيقول: أنَّى لي هذا؟! فيُقال: باستغفار ولدك لك» [1].

ومن صور البِر إليهما بعد موتهما التصدُّق عنهما، جاء في الحديث الصحيح «أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أبي مات ولم يوصِ، أفينفعه أن أتصدق عنه؟ قال: **«نعم»** [2]، ولقد كان من بر رسول الله ﷺ بأمِّه رغم أنها ليست من أمته أنه استأذن ربه في الاستغفار لها؛ حيث قال: **«استأذنت ربي أن أستغفر لأمي، فلم يأذَن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»** [3]، وورد عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبةٌ مُشركة، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة مشركة، أفأصلها؟ قال رسول الله ﷺ: **«صِلِيها»** [4].

هذا شأن البارّ حين يكون ابنًا، وهو إن نشأ على البر انعكس أثر بره في التعامل مع بنيه، وربما كانت التوجيهات النبوية إلى البر بالآباء أكثف وأغزر؛ لأن الإنسان

---

1. (?) صحيح الجامع -الحديث 1617 (صحيح).
2. (?) أخرجه مسلم والنسائي (جامع الأصول 6/484 -الحديث 4691).
3. (?) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي (جامع الأصول 11/152 -الحديث 8667).
4. (?) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود بألفاظ مقاربة (جامع الأصول 1/405 الحديث 201).

بفطرته ميال إلى ولده، حريص عليه، متلهِّف للأخذ بيده إلى معالي الأمور، بينما قد ينسى البشر جيلًا سابقًا في طريقه إلى أن يولي، وهم في غمرة انشغالهم بجيل لاحق، يوشك أن يتمكن في الأرض، فاحتاج البشر إلى لفتة تذكرهم بفضل الجيل السابق،، لئلا يغفلوا عنه، وليقدموا إليه بعض صور الوفاء بحقه، وهو أنفسهم في طريقهم إلى أن يكونوا في يوم من الأيام ذلك الجيل السابق، وسيندبون ضعف الوفاء في بنيهم إن لم يبَرُّوهم.

ومن صور البر بالأبناء التي وجه إليها رسول الله العدل بينهم، بحيث لا تثورُ الضغائن، ولا تتحرك الأحقاد، ولذلك قال : **«اعدِلوا بين أولادِكم في النِّحَل - العطايا - كما تُحبُّون أن يعدلوا بينكم في البّر واللّطف»** [1]، ولما جرت به بعض الجاهليات من إيثار الأولاد على البنات، فقد خص رسول الله البر بالبنات بلفتات خاصة، منها قوله: **«ليس أحد من أمتي يعول ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، فيحسن إليهن، إلا كن له سترًا من النار»** [2].

---

1 (?) صحيح الجامع -الحديث 1046 (صحيح)
2 (?) صحيح الجامع 5372 (صحيح).

وصاحب البر يتعدى بره الوالدين والأبناء إلى الأرحام والأقارب، ولأن الوفاء والإحسان أصيل فيه، فإنه يتميز به مع جميع الناس الذين يتعامل معهم، وفي مقدمتهم الأقرب فالأقرب، ولذلك حث رسول الله على توثيق هذه الصّلاة فقال: **«اتقوا الله وصلوا أرحامكم»** [1]، وهذه الصلة من أحب الأعمال إلى الله: **«أحبُّ الأعمال إلى الله: إيمان بالله ثم صلة الرحم»** [2]، وهي من أبواب الجنة لقوله : **«أطِبِ الكلام، وأفش السلام، وصِلِ الأرحام، وصَلِّ بالليل والناس نِيام، ثم ادخل الجنة بسلام»** [3].

ولِمَا لبرِّ الأرحام وصلتهم من المنزلة عند الله، فقد أخذ على نفسه - سبحانه - أن يصل البارَّ الواصل، كما جاء في الحديث من قول الله للرحم: **«أما ترضين أن أصِلَ مَن وصلك، وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك»** [4]، وجعل الوصل من أسباب البركة في العمر، كما جاء على لسان رسول الله : **«من**

---

1 (?) صحيح الجامع -الحديث 108 (حسن).
2 (?) صحيح الجامع -الحديث 166 (حسن).
3 (?) صحيح الجامع -الحديث 1019 (صحيح).
4 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب -باب 13 -الحديث 5987 (الفتح 10/417).

سرّه أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أَثَره، فليَصِلْ رحمه» [1].

هذا بالإضافة إلى أثرها الاجتماعي في التأليف والمحبة، وقد قال ﷺ: **«صلة القرابة مثراة في المال، محبة في الأهل، مَنْسَأة في الأجل»** [2]، وكما يُعجِّل الله عقوبة العاق والقاطع، فإنه ليعجل المثوبة في الدنيا للبار الواصل، كما في الحديث: **«وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فَجَرة، فتَنْمُو أموالهم، ويكثُرُ عددهم، إذا تواصلوا»** [3]، وهذا رغم فجورهم.

وقد يقابل الواصل بالجفاء، مما قد يغريه بالقطيعة، ولكن الله نصيره إذا ما داوم الصلة، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يقول: «يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، «**فقال : لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت ذلك»**[4].

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب -باب 12 -الحديث 5985 (الفتح 10/415).

2 (?) صحيح الجامع -الحديث 3768 (صحيح).

3 (?) صحيح الجامع -الحديث 5705 (صحيح).

وخير الوصل، والخالص لوجه الله، ما كان بالبر والإحسان إلى من يقابلك بالعداوة، ولذلك قال : **«إن أفضل الصدقة، الصدقة على ذي الرحم الكاشح»** [1]؛ أي: المعادي، يقول ابن الجوزي في بيان علِّة الأفضلية: (وإنما فُضِّلت الصدقة عليه لمكان مخالفة هوى النفس، فأما من أعطى مَن يحب إنما يُنفِق على قلبه وهواه)، وقد كان حال البارِّين الواصلين لأرحامهم على هذه الصورة من الإحسان، حتى مع اختلاف الدين، ويشهد لذلك ما ورد من أن رسول الله أُهدِيت إليه حُلَل كان قد قال عن مثلِها: **«إنما يلبسُ هذه مَن لا خلاقَ له»**، فأهدى منها إلى عمر، فقال عمر: كيف ألبسها، وقد قلتَ فيها ما قلت؟ قال: **«إني لم أعطِها لتلبسها، ولكن نبيعها أو تكسوها»**، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يُسلم)[2]، ويجب على البارِّ أن يستمر في صلة أرحامه ولو بأدنى

---

4 (?) صحيح مسلم -كتاب الأدب -باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها -الحديث 2558 (شرح النووي 16/115)

1 (?) مسند أحمد 5/416. وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 1110.

2 (?) صحيح البخاري -كتاب الأدب -باب 9 -الحديث 5981 (الفتح 10/414).

صور الوصل، كما قال ﷺ: «**بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام**»[1]؛ أي صلوا أرحامكم.

وتتَّسِع دائرة البر لتشمل الجيران، وقد أوصى بهم جبريل كثيرًا: «**لقد أوصاني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه يورثه**»[2]، وقال ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره**»[3]، ونفى الإيمان الكامل عمَّن «**لا يأمن جارُه بوائقَه**»[4]، و«**مَن بات شبعانُ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به**»[5].

وفي وصيته ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر، إذا طبَخت فأكثر المرقة، وتعاهد جيرانك أو اقسم بين جيرانك**»[6]، وقد ذُكرت لرسول الله ﷺ امرأة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل وتصَّدَّق، وتؤذي جيرانها بلسانها، قال ﷺ: «**لا خير فيها، هي من أهل النار**»[7].

---

[1] (?) صحيح الجامع -الحديث 2838 (حسن)، بُلّوا: بمعنى صلوا. لأن النداوة صلة.
[2] (?) صحيح الجامع -الحديث 5126 (صحيح).
[3] (?) صحيح الجامع -الحديث 6501 (صحيح).
[4] (?) صحيح الجامع -الحديث 7102 (صحيح).
[5] (?) صحيح الجامع -الحديث 5505 (صحيح).
[6] (?) صحيح الجامع -الحديث 7818 (صحيح) ومسند أحمد 5/149 واللفظ له.
[7] (?) مسند أحمد 2/440. وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات.

وكثيرٌ من صور البر تقتضي جودًا وإنفاقًا، وما حث به رسول الله ﷺ قوله: «**نفقة الرجل على أهله صدقة**» [1]، و«**أفضل الدنانير: دينارٌ يُنفِقه الرجل على عياله، ودينار يُنفِقه الرجل على دابَّتِه، ودينار يُنفِقه الرجل على أصحابه في سبيل الله، وأي رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيال صغار، يعفُّهم الله ويغنيهم به؟!**» [2].

كل هذه الصور إنما أمثلة من حياة البارّ، وإن كانت مظاهر برِّه تَسَع جميع المتعاملين معه من القريبين منه والمحتكين به.

والبر يولِّد البر، والصلة تستدعي مزيدًا من الصلة، وتلتحم أواصر الأسر، وتتوثق العلاقات الاجتماعية، فإلى مزيد من البر والصلة.

خلاصة هذا الفصل وعناصره:

- معنى البر جامع للخير.
- صورة الرجل البارّ.
- ضد البر الإثم.
- البر حسن الخلق.
- البر يقتضي المجاهدة لأهواء النفس.

---

1 (?) صحيح البخاري -كتاب المغازي -باب 12 -الحديث 4006.

2 (?) صحيح الجامع -الحديث 1103 (صحيح).

- البر بالوالدين.

- من عواقب العقوق:

- الذل لمن لم يبر والديه.
- العاقُّ لا يدخل الجنة.
- عقوبة العاق معجلة في الدنيا.
- العقوق من الكبائر.

- من فضيلة البر بالوالدين:

- رضا الله برضا الوالدين.
- البر بالوالدين من أحب الأعمال إلى الله.
- خدمة الوالدين مقدمة على الجهاد الكفائي.
- تفريج الكروب ببر الوالدين.

- من البر بالأبناء:

- العدل بينهم.
- الإحسان إلى البنات.

- البر بالأرحام من أحب الأعمال إلى الله.
- البر حتى مع المخالف في الدين.
- استمرار الصلة ولو بأدنى صور البر.
- البر بالجيران بالإحسان إليهم.
- إيذاء الجار من ضعف الإيمان.
- البر يوثق العلاقات الاجتماعية.

تم بحمد الله وتوفيقه

****

قائمة المراجع

- القرآن الكريم.
- آداب القضاء، شهاب الدين الحموي الشافعي، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الزحيلي.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، طبعة عالم الكتب.
- رسالة (أفراح الروح)، سيد قطب.
- أسد الغابة، ابن حجر. ط. كتاب الشعب.

- أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي.
- البر والصلة، ابن الجوزي.
- تفسير أبي السعود، أبو السعود. طبعة دار الفكر (قديمة).
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني - ط دار الفكر.
- تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية. تهذيب عبد المنعم صالح العلي - طبعة وزارة العدل في الإمارات.
- تخريج أحاديث الإحياء، دار العاصمة للنشر بالرياض ط1/1408هـ.
- تحفة الأحوذي، المباركفوري. المكتبة السلفية - مؤسسة قرطبة - الهرم.
- تخريج أحاديث الظلال، علوي السقاف. دار الهجرة للنشر - ط1/1412 - 1991م.
- جامع الأصول، ابن الأثير الجرزي. تحقيق الأرناؤوط ط2 دار الفكر - لبنان 1983.
- جمع الفوائد، محمد بن محمد بن سليمان. تخريج عبد الله هاشم اليماني - طبعة المدينة المنورة 1961.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. طبعة دار إحياء التراث العربي 1985م.

- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي. تحقيق وتعليق: نايف عباس ومحمد على دولة ط دار القلم 1987م.
- الخلق الكامل، محمد أحمد جاد المولى.
- روح المعاني، محمود الألوسي. ط/ 1987 - دار الفكر.
- رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي تحقيق وتعليق: أبو غدة - نشر مكتب المطبوعات حلب/الإسلامية
- زاد المسير، ابن الجوزي. طبعة المكتب الإسلامي ط 4/1987.
- زاد المعاد، ابن قيم الجوزية.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني. ط. 1988 - مكتبة المعارف/الرياض.
- السلوك الاجتماعي في الإسلام، حسن أيوب.
- السيرة النبوية، ابن هشام. تحقيق وشرح: السقا - الأبياري - الشلبي - ط دار المعرفة.
- السنن الكبرى، البيهقي. ط. دار الفكر.
- صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني. ط2/1986 - المكتب الاسلامي.

- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني. ط2/1987 - مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني. ط1/1988 - مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني. ط1/1989 - مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- صحيح مسلم بشرح النووي، النووي. ط1/1987 - دار القلم - بيروت.
- صفوة التفاسير، الصابوني. ط1/1987 - دار القرآن الكريم - بيروت.
- ضعيف الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني. ط2/1979 - المكتب الإسلامي.
- ضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني. ط1/1988 - المكتب الإسلامي.
- طبقات ابن سعد،
- طبقات الشافعية،
- عون المعبود، محمد بن شمس الحق العظيم آبادي. تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ط2/1969 المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

- عارضة الأحوذي.
- في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق 1987.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني. ط. دار الفكر (ابن باز - عبد الباقي - الخطيب).
- فتح القدير، الشوكاني. طبعة عالم الكتب.
- الفتح الرباني (وبلوغ الأماني).
- لسان العرب، ابن منظور. طبعة إيران 1405هـ.
- اللؤلؤ والمرجان، ط.1986 - دار الجيل بيروت.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي.
- المعجم المفهرس للحديث الشريف، لمجموعة من المستشرقين. ط. المكتبة الإسلامية - تركيا.
- موطأ مالك، مالك بن أنس - ط 1985 - دار إحياء التراث العربي.
- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي. تحقيق الألباني - ط3/1985 المكتب الإسلامي.
- ممرات الحق، الدكتور عبد الهادي.

- مصباح الزجاجة، شهاب الدين الكناني البوصيري. دراسة: كمال يوسف الحوت - ط1/1986.
- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل. دار الفكر - بيروت.
- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي. ط7/1986 - المكتب الإسلامي تحقيق زهير الشاويش.
- مجموع فتاوي ابن تيمية.
- المفني، ابن قدامة. ط. القاهرة - 1990.
- محاسن التأويل، القاسمي.

الفهرس